حوار مع صديق أمازيغي



عبد السلام ياسين

حوار مع صديق أمازيغي

الطبعة الثانية: 2018/1439
ISBN: 9789953506586



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

حوار مع صديق أمازيغي

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

زميلان جمعتهما المهنة منذ أكثر من أربعين سنة. ثم تقارَبَ ما بينهما لِجديَّةٍ في الطِّباع، لم يشتركا وهما في عنفوان الشباب إلا في النقاش الدائم حول جدِّيات الحياة.

وها هما بعد أربعين سنة ونَيِّفٍ وقد اشتعل الرأسان شيبا يتحاوران على ملإٍ من الناس حول قضية تتجاوز شخصيتيهما.

كان الله في عوْن العباد وما يُبتَلَى به العباد.

سلا، الأربعاء 15 رجب 1417

عبد السلام ياسين

الجزء الأول من الحوار

رسالة الأستاذ محمد شفيق

إلى الأستاذ عبد السلام ياسين

إلى أخ لي في الإسلام...
الشيخ الجليل الحاج عبد السلام ياسين،

أخي في الإسلام والمواطنة والإنسانية، السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد،

ها قد تطوعت أنت منذ ثلاثة عقود من الأعوام ونيّف للدفاع عن حرمة الإسلام، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وها قد ذقت الأمرين، وقاسيت ما لا يطاق، فتجلدت وصبرت. لقد كنت -شهد الله- أعلم أنك ستصابر وتواجه وتجاهد، لأني رأيتك تبحث عن طريقك متجها هذه الوجهة، مصمما العزم مستهينا للعقبات والصعوبات. فبادلتني الرأي وحاورتني وحاورتك ساعات وساعات. فكنت في الغالب أفهم عنك، ولكني لم أكن أقتنع بكل ما كنت أنت مقتنعا به. وكنت تألم لذلك، وكنت أنا آلم لكونك تلومني على اعتمادي العقل وميلي إلى نبذ ما قد يشابه الخرافة... أو الشعوذة. وها أنت اليوم مسموع الصوت، بعيد الصيت يحسب لك حساب ويُرهب لك جانب. ولو لم أكن أعرفك حق المعرفة لأيقنت أنك صرت تنظر في عطفيك وتطلب الطعان والنزال، وتصول وتجول في «قفصك» الذي يُراد منه أن يُخمد شعلة توقدك وتلألئك، ويَحد من مدى ندائك، فأضفى عليك وجودك في قفصك صفات الأسد المأسور، الذي يهز زئيره جدران سجنه، ويُبلغُ عنه من سمع من لم يسمع. اعلم، أخي، أني واثق بصدق مسعاك وبخير مبتغاك، وحسن نيّتك ورسوخ إيمانك، ليس لك من أغراض الدنيا ما يمكن أن تلام عليه . وإنّي أعلم، فوق هذا كله، أنك لست من الذين يزكون أنفسهم، لأنك

رجل ذكر ما تفتأ تقرأ قول الله عز وجل: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾. وأنت تعلم، أخي، أن تزكية النفس مضلة ضل فيها غير المسلم، وليس المسلم في مأمن من الضلال في متاهاتها، وأنها أحد أبواب الريّاء، والريّاء هو الشرك الأصغر. والدّليل على أنك حصنت نفسك دون تزكيتها، أنك تقبل التحاور، بل ترغب فيه وتطلبه، عملاً بقول الله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾. وقد رأيتُني معنيا بالعبارة التي اتخذتها عنوانا لمؤلفك الأخير «حوار مع الفضلاء الديمقراطيين»، وذلك لأني من أنصار الديمقراطية والمؤمنين بمزاياها السياسية، لأنها هي الوجه المشرق لمفهوم الشورى الذي نصّ عليه كتاب الله، بل هي الشّورى بعينها. وسأعود إلى هذه المسألة بعد حين، إن أنت تفضلت وأصغيت إلى حديثي برحابة صدر كما كنت تفعل من قبل. أصغ أخي، أصغ، فلا تُعجلني، وحاول أن لا تقاطعني، حتى وإن قدرت أني قد هفوتُ.

عهدي بك أنك تتبسم ضاحكاً كلما اعتبرت حجة مخاطبك واهية، ولكنك لا تغضب ولا تثور. أصغ إلى حديثي. إنّك لن تجد فيه جدة بالقياس إلى ما عرفت قبلا، لسبب بسيط، هو أنّي لم أستطع التخلص من سيطرة العقل، مع أنك دعوتني إلى التمرد على العقل وإلى تكذيب مزاعمه. والجديد هو أنّ انصرام السنين وتصرم أيام العمر زاداني إيماناً بالله، فزادني الإيمان بالله إيماناً بقدرة العقل على معالجة أمور الدنيا، ما دام العقل مقبلاً. وهو لا يُلام على تصرف من يجعله مدبراً.

كيف يمكن أن لا أتفق معك وأنت تأسف وتأسى وتتألم لما أصاب الأمة الإسلامية من الرّكود والانحطاط والرّكون إلى القول دون الفعل، وما آلت إليه من الضعف المادي والمعنوي، وهي تقرأ قول

الله سبحانه: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾، وتقرأ قوله عزّ من قائل: ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾؟ وكيف يمكن أن أخالفك حينما تستنكر سلوك «أهل الحل والعقد» كلما أخلوا بواجبهم وضربوا عرض الحائط بما لا يُرضي رغباتهم من تعاليم ديننا الحنيف، وكلما تغافلوا عن المنكر فلم ينهوا عنه. وكيف يمكن أن لا أتفق معك حينما تنبه إلى أن التمسك بالماديات وحدها مَهلكة للإنسان، وإلى أن الغرب ذهب بعيدا في عبادته للمادة وأنه صار -جزئيا أو كلياً؟- عنوانا للتّرف الذي حقّ على أصحابه القول، وعنواناً للخلاعة والإباحية؟ وأنا متفق معك في دعوتك إلى اتخاذ الإيمان بالله خير نبراس لنا يُجنّبنا الإلقاء بأيدينا إلى التهلكة في ظلمات هذا الكون الذي لا يعلم كنهه إلا بارئه. أنا متفق معك...

لكني لا أسايرك كلما جنحت إلى نبذ العقل وطرحه بالمرة، وإلى تطليق الحكمة، مع أن الإسلام هو دين العقل والعلم والحكمة. ألم يقل الله عز وجلّ: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾. أولم يقل عز من قائل: ﴿**وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾...﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾؟!...﴿**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾...﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾! لقد كان مصدر العلم والمعرفة في عهد النبوات هو الوحي وحده. أما بعد نزول القرآن وبعد الدّعوة المحمدية، فقد أصبح مصدر العلم هو العقل، شريطة أن يسلّم العقل بأن الحقيقة المطلقة المتعلّقة بوجود الكون وبكنه الذات الإلهية ليست في متناوله، ولن تكون في متناوله أبداً، لأنّها بيد الله، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿**وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**﴾ إلى آخر الآية. ومعنى

ذلك أنّ الخالق لا تناله حاسّة، ولا وصف. ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾. إنه تعالى لا يُصوَّر، ولا يُتصوَّر ولا يُشرَك به ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾. وهو وحده يعلم علام يشاء ما يشاء، وهو أعلم بالمتقين. وترك للعقل البشري المجال شاسعاً دون ذلك ليجول فيه وينظر ويرى. فممّا أكد عليه الإسلام أن عهد النبوات انتهى بنبوة خاتم المرسلين، ومما أكَّد عليه أيضاً ضرورة رفع العقل والعلم إلى أرفع المنازل. إني لا أعتقد أن دينا من الأديان الأخرى أشاد بقيمة العقل والعلم كما أشاد بها الإسلام. ولا غرابة في ذلك، بما أن الرسالة المحمدية هي الخاتمة لعهد الوحي، والفاتحة لعهد العقل في آن واحد. **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: «**أوّل ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر**». **ثم قال الله عز وجلّ**: «**وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم منك! بك آخذُ وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب**». وقال صلوات الله عليه: «**سألت جبريل عليه السلام: ما السؤدد؟ فقال العقل**». وما إخالني في حاجة إلى سرد جميع الآيات والأحاديث التي ترفع من شأن العلم والعقل، ولكن أراني مضطراً إلى التأكيد على وجوب التأمل في قول نبينا الأكرم «**العلماء ورثة الأنبياء**»، من جهة، ووجوب التأمل في قول الإمام الغزالي رحمه الله: «العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه»، من جهة أخرى. فلم يا ترى نُصِّبَ العلماء ورثة للأنبياء؟ أليس لأحقيتهم بإنارة طريق البشر وإطلاعهم على أسرار المخلوقات الكامنة في الآفاق وفي النفوس؟ أليس لكونهم يجعلون العقل المروض والـمُجرَّب منبعاً لعلمهم؟ وهذا يقتضي أن يكون لكل زمن علمه النابع من ظروف ترويض العقل وتحنيكه. والمستخلص من هذا أن العلم لا يمكن أن يكون جامدا، بل هو في تطور مستمر. وكل من جادل في هذا الأمر إنما

يجادل من موقع دفاعه عن مصالح دنيوية سواء استبان سيطرتها على وجدانه أم لم يستبنها. وهذا ما يفسر تزمت كثير من الفقهاء المحترفين وجنوحهم إلى القول بأن باب الاجتهاد قد أغلق، واعتقادهم الراسخ أن بين «العلوم الدينية» و«العلوم الدّنيوية» فاصلا من قبيل الأعراف التي بين أهل الجنة وأهل النّار، وأن علمهم وحده هو العلم، وأن ما سواه تُرَّهات وخرافات وأوهام. وكأنّ التفقه في الدّين يتنافى والتأمل في المخلوقات وما ينتابها من حالات ويلحقها من أطوار بإذن الله وأمر منه، وما يضبط كينونتها من نواميس ويربط تلك النّواميس بعضها ببعض ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾؟ العالم في عصرنا هو من يسعى لفهم الكون من خلال معطياته الفيزيائية والكيماوية والبيولوجية والفلكية والرّياضية... وهو مدعو في كل آن وحين لأن يخشى الله ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾ بما يكتشفه من النواميس الدقيقة المعقدة المتداخلة المتشابكة التي لا يمكن أن يكون من وراء دقّتها وتعقيدها وتشابكها إلا خالق جبّار يُطلع بني آدم بمقدار ﴿**قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ على ما يشاء من أسرار خليقته ويزيدهم حيرة في «ماهية» الكون، إشعاراً لهم بضعفهم وضلالتهم وافتقارهم إلى رحمة من خالقهم، وإيذاناً للإنسان بأنّه كادح إلى ربّه كدحاً، حتى بأنبل قوّة تصدر عن جوارحه، ألا وهي قوَّة العقل. إنّ الإيمان الذي ينبني على التسليم بجبروت المنشئ الخلاق لا يمكن أن يعتمد إلا العقل والعلم بحقائق الأشياء من مكونات عالَم الشهادة. أما الإيمان الذي ينبني على الجهل لحقائق الكائنات الدنيوية فسرعان ما ينقاد لطغيان الشعوذة والسحر. لقد حان للمسلمين أن يتخلصوا من دكتاتورية الفقيه المحترف الذي يسعى، في غالب

الحالات، لتحقيق مطامحه وللحفاظ على امتيازاته الاجتماعية، ويوهم النّاس أنه هو وحده المدافع عن حوزة الدّين. وكم من فقيه جاهل أفتى الناس مخطئاً، لن يشفع له عند الله إلا حسن نيّته. إن حسنت نيّته، ذلك ما قصد إليه الشّاعر بقوله:

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزَّل

وكثيراً ما ينسى الفقيه أنه ليس نبيّاً، وأنّ جيله من النّاس ليسوا هم جيل الصحابة الكرام. فيوهم نفسه أنّ بإمكانه أن يقوم مقام النبي -وأنّى له ذلك- ويضفي على جماعة طلبته ومريديه كل ميزة امتاز بها المهاجرون والأنصار، ناسيا أو متناسيا قول خاتم الأنبياء صلوات الله عليه مخاطباً المؤمنين: «**إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثمّ يأتي زمان من عمل منكم بعشر من أمر به نجا**». وهو حديث، وإن رُوي بسند غريب، يؤيّده ما فُسرت به الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ وما جاء في الحديث الشريف «**سيأتي زمان للعامل فيه مثل أجر خمسين منكم**». فكيف يُعقل أن تُقبل في زماننا هذا دكتاتورية الفقيه، وهي أظلم الديكتاتوريات لأنها تَزْعَمُ في عصمة النبوة، وينسى من يمارسها أن الله عز وجلّ وحده هو الذي لا تدركه أوهام العباد. كيف لإنسان، في زمننا، كان من كان في «العلم» و«الفقه»، أن يقيم الحدود بالقتل والقطع والجلد وهو موقن أنّه على حقّ لا يأتي الباطل أحكامه من بين يديها ولا من خلفها! كم من فتنة تسبب فيها التعارض بين آراء الفقهاء وفتاويهم السياسية! وكم من فقيه خدم الطغاة طوال حياته! وكم من فقيه قطع على المسلمين سبل التقدم في السيطرة على التقنيات الـمُكسِبة للقوة والمناعة، باسم الدين وباسم «الحق»! ألم يأتك، أخي العزيز، حديث «مجلس العلماء» ذلك الذي حرم في أوائل الثلاثينات

استعمال التّيلفون، بأحد الأقطار الإسلامية، بدعوى أن التّيلفون من عمل الشّيطان؟ وكم من «عالم» استنكر حصيلة من حصائل البحث والتنقيب والتفكير والاختراع، واستعاذ منها بالله ودعا إلى الإعراض عنها وتركها لمن هو «كافر بالله»!

ثمّ إنّي لا أسايرك، أخي كلما شعرتُ أنك تلغي البعد التاريخي في تَـرْوِيـزِكَ لآراء غيرك من النّاس وتقويمك لأحوال المسلمين. أو ليس يدعونا كلام الله إلى استخلاص العبرة مما يُقصّ علينا من أخبار الأولين؟ فهل كان القصص مصدراً للحكمة والعبرة، إبّان نزول القرآن، ثم لم يعد إلاّ مجرد إخبار بما مضى من الأحداث لا فائدة فيه؟ إن تاريخ ما مر بالأمة الإسلامية طوال أربعة عشر قرناً ونيّف لنوع من القصص. قال الله تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ وقال عز من قائل: ﴿**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا**﴾. وقال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾. إن تاريخ ما مرّ من الأحداث والفتن والمحن بالأمة الإسلامية، أيّها الأخ الكريم، طوال أربعة عشر قرناً ونيّف، لمن باب القصص الذي يجب أن يُقص على الأجيال وعلى المؤمنين، لعلهم يتفكرون ويعتبرون. أمّا الخلاصة، أما العبرة، فهي أن السياسة كادت تذهب بريح المسلمين لولا لطف من الله. والمحقق أنّها هي التي ذهبت بقوتهم ومناعتهم وجعلتهم عرضة لأصناف الانحلال وأنواع التخاذل والتناحر، إذ نسوا قوله تعالى ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾، فصارت كل فئة لها مبتغى سياسي ترى رأيها ولا تتورع من لبس الحقّ بالباطل، مستشهدة بالقرآن وبالحديث، مجندة جماهير المؤمنين في معارك طاحنة. وكم كلمة حق أريد بها باطل لم تتردد جماهير المسلمين في الاستجابة لها عن حسن نية وعن صدق إيمان، وَلَمْ يفطنوا لما وراء الأكمة إلا بعد

فوات الأوان! كم من مسلم قَتل أو قُتل في صفوف «زعيم» سياسي لقب نفسه بحسام الدين أو سيف الإسلام، دعا للجهاد ولم يكن له من الجهاد إلاّ الأماني، لأنّه لم يكن «يجاهد» إلاّ في إخوانه المسلمين. لقد مرت بالأمّة «الفتنة الكبرى»، وما أدراك ما الفتنة الكبرى، تلك التي لا تزال جراحها غير ملتئمة. ولقد اغتيل عمر بن الخطاب، واغتيل عثمان بن عفان، رضي الله عنهما، واغتيل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، واغتيل ابنه الحسين رضوان الله عليه. كان كل ذلك، أخي العزيز، لأسباب سياسية لا غير. وقد حكم المسلمين بعد ذلك حكام لم يكن لهم الدين غاية، بل صار وسيلة. فتتابعت القرون وعامة الناس ينتظرون عن حسن نية ظهور «الإمام المهدي»، بينما يتصرف في رقابهم طغاة لا يتخلل صفوفهم حاكم عادل إلا نادرا، فقتّلوا وعذبوا وشردوا واستعبدوا، باسم الإسلام والإسلام منهم براء. وحشدوا في «أحاريمهم» المئات من «الجواري» و«الإماء» بدعوى أن تلك حقّ من حقوقهم لهم أن يمارسوه باسم الإسلام. فاتخذوا المستضعفات من المؤمنات والمنبتّات الحبال سراري لهم يشبعون فيهن غرائزهم، موهمين خصوم الإسلام أن الدين الحنيف جعل المرأة لعبة للرّجل وأنه حكم عليها بلزوم الدونيّة والاستكانة. ولم يردعهم عن ذلك فقه ولا علم «عالم». بل قلدهم الفقهاء و«العلماء»، أو جل الفقهاء والعلماء، حتى إن المسلمين ظلوا غافلين عن ضرورة استنباط قوانين التنظيم السياسي من قول الله عز وجلّ «وأمرهم شورى بينهم». فلو استنبطوها، وإن بعد أقرن من الاجتهاد، لسبقنا، أيّها الأخ العزيز، جميع الأمم إلى ما يسمى اليوم بالديمقراطية. ولفظة الديمقراطية، كما تعلم، ليست إلا اسما أعجمياً للشورى التي نص عليها القرآن. إني لم أعد أفهم عنك حينما تسخر من الديمقراطيين وتتخذ الديمقراطية هُزُؤاً، احذر، أخي، بارك الله فيك وفي مساعيك النّزيهة، احذر أن تفتح

الأبواب على مصاريعها لديكتاتورية أدعياء الفقه الجامدي العقول غير المميّزين بين العلم والجهل، الراغبين في الحفاظ على امتيازاتهم، أو في السّيطرة السياسية المكسبة للمال والجاه والنفوذ، والمتخذة للعنف وسيلة للحكم، ليس الفقهاء جميعهم أتقياء ورعين زاهدين. لا تقس على نفسك، أيّها الأخ العزيز. إنّي بقدر ما أنا على استعداد للشهادة أمام الله وأمام الملإ من النّاس أنّك نقيّ الطّوية زاهد في الدنيا، بقدر ما أنا موقن بأنه قد اندس في الصفوف من ورائك «حواريّون» لهم من الأغراض الدنيوية ما لا يخطر لك ببال، ينتظرون النهزة للانقضاض على زمام الأمور، مغالين، مزايدين، مكفرين لكل من خالفهم في الرأي. أذْكُرُ، أخي، ذلك الحديث الذي دار بيني وبينك مساء صيف من أصياف أواسط الستينات، إذ حذرتك من مكر المشعوذين، فلم تلبث أن تيقنت من أني صدقتك ومن أنّ المرائين والمتظاهرين بالقنوت والعكوف والتقوى قد كذبوك وسخَّروا لأغراضهم حماستك التي رصدتها لخدمة الدين. إنّ توظيف مشاعر المؤمنين الدينية في العمل السياسي يتطلب كثيراً من اليقظة والحذر، كيلا يقع المسلمون فيما وقع فيه بعض سلفهم من الشطط والانحراف عن الجادة. فليكن في علمك مثلا، أن أناسا ألفوا استعباد عباد الله لا يزالون يطالبون، باسم الإسلام، في بلد غير بعيد من بلدنا، بممارسة الاسترقاق وامتلاك الإماء والغلمان، حجتهم في ذلك آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة لا يتشبثون منها إلا بالحرف.

أنا معك، أخي، إذ تنادي لمقاومة الغش والزور والرّشوة والرِّيَاء والظلم والطغيان. أنا معك وأمثالي من مواطنيك المغاربة الذين لا طموح لهم في السيطرة ولا في الحكم ولا في الإثراء غير المشروع. نحن معك إن أنت حذرت من تزكية النفس الأمارة بالسوء. ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ**

نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾. نحن معك ما دمت تدعو إلى إقامة العدل بين الناس، قائما في ذلك بواجب كل داعية مسلم غيور على دينه. نحن لا نرى أن دورك في المجتمع، ودور أتباعك، ينبغي له أن يكون هو «الانزواء في المساجد والقيام بتكفين الموتى» كما قد ظننت. ولكن لن نكون معك إن أنت أشرت ولو إشارة خفيفة إلى أن العنف شيء مشروع ما دام... في خدمة الدّين. إن لخدمة الحق في المجتمعات العصرية لضروباً من الوسائل السليمة التي من شأنها أن تُجنب كلّ إراقة دماء وكل تعذيب أو تنكيل أو تشريد أو تمثيل. فالزمها، رحمك الله، وادعُ إلى لزومها في كل آن وحين. وعهدي بك أنّك أبعد النّاس عن الرّغبة في سفك الدّماء، وقد برهنت الأيام على أنك كذلك. انس ما قاسيت وادع الله أن يجعله لك زاداً مزوداً، ولا تحقد على أحد حقداً ولا تضغن ضغينة. وبصّر كل من يتّعظ لوعظك بأسباب ما حدث في أفغانستان وفي الجزائر وما قد يحدث، لا قدّر الله، في بلدان إسلامية أخرى. وألحّ على كل من أرشدت كي يلزم الدّعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل بالتي هي أحسن، أي العقل والمنطق وإقامة البرهان.

فإن تسمح، أخي، أُنهِ كتابي هذا إليك بكلمة أود لو تقرأها بإمعان وتنظر فيها وتحكّم بشأنها العقل والشرع معا، حتى يُرفع عن حوارنا كل سوء تفاهم.

أنا، مخاطبك ومحاورك ومناشدك في لزوم القصد والعدل والمواظبة على الإحسان، أنا، عبد ربّه، إنسان مؤمن ينتمي إلى الشعب الأمازيغي في المفهوم القرآني للفظة الشّعب. أنا مسلم عجميّ اللّسان، اختلاف لساني ولسان قومي عن اللسان العربيّ مصداق لقول الواحد القهار: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ**

﴿فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾. فهل يعقل أن يسمح للعربي بالانتساب إلى العروبة، وأن يُمنع الأمازيغي من الانتساب إلى الأمازيغية؟ أجدادي الأمازيغيون هم الذين نشروا الإسلام بربوع أفريقيا، فيما وراء الصحراء الكبرى، وهم الذين أسهموا إسهاما وافراً في حمل الدعوة إلى أوربا، وفي الدّفاع عن دار الإسلام هناك ما لم يخرّبها من الداخل الـمُجّان والفُسّاق بلياليهم الحُمر وتباريهم على التبذخ والتبجح والتنعم، وعلى ابتذال لغة القرآن في أشعار يندى جبين قارئها لما فيها من السفه والخلاعة. أجدادي الأمازيغيون تمسكوا بمبدإ الشورى فيما بينهم ما لم يجبروا على الخضوع والخنوع بقوة الحديد والنّار، تمسكوا به تلقائيا، واستلهاما للرشاد في الكتاب والسنة. نعم، أخي في الإسلام والمواطنة والإنسانية، أنا أمازيغي لا ينبغي لي أن أنتحل غير نسبي الذي حفظه لي لساني، ولذا أحافظ على لساني، دونما تفريط في الإشادة بمزايا اللّغة العربية ولا في القيام بواجبي من أجل خدمتها والتعريف بأسرارها وعبقريتها المتجلية في كتاب الله. كُفّ، أخي، عن اتهام كل من دافع عن لسانه بالعصبية والتعصب. وتفطن إلى أنّ جنود العصبية المجندين محدقون بك أنت من حيث لا تشعر. إني وأمثالي من الأمازيغيين مسلمون عجم، لا فضل لعربي علينا بعروبته وحدها، ولا فضل لنا عليه بعجميتنا وحدها. ومن هذا الانطلاق لا نسمح للعربي اللِّسان أن يزدري لساننا، ولا بالأحرى أن يعمل من أجل إماتته وإقباره، لأنّ الله ما أنزل بذلك من سلطان. إنا نوجب على أنفسنا تعلّم العربية وإتقانها وتحبيبها إلى النّاس، بل وتقديسها، لأنّها إحدى اللّغات التي نزل بها الوحي، وهي فوق ذلك لغة الفرقان. وَلَكِنَّنَا لا ننزع إلى الاعتقاد بأنها هي لغة الخالق كما ينزع بعض العرب المنقادين للعصبية الهوجاء، والذين لا يقدرون الله حقّ قدره،

والمنزلقون على مزالق التجسيد، إن عن جهل وغباوة، وإن عن مكر وكيد ضد الإسلام. إنا، نحن الأمازيغ، نقدر العروبة ونؤاخيها في الإسلام وفي المواطنة، ولكنا نأبى أن نتخذها دينا كما يدعو إليه شاعر العروبة المشرقية المربّاة في أحضان المسيحية المراوغة، إذ يقول:

واتخـــذنـــا العـــروبة دينـــا وتركـــنا ما لـــيس يـلــزم

ألست ترى أن العصبية العربية في الأربعين سنة الأخيرة جددت العهد مع جاهليتها الأولى؟ فذهبت إلى أبعد مما ذهب إليه العربي الأندلسي الذي كان يعتقد أنّ الآية القرآنية ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ لم تنزل كما هي، وإنّما نزلت كما يلي، في ظنه: «وتلك الأيام نداولها بين العرب» ثم حرَّفها من حرَّف! ألم تسمع نعيق الدّعاية للقومية العربية بنغماته الجديدة؟ ألم يحمل إليك أحد أبواق تلك الدعاية المندسّين في صفوف مريديك «بُشرى» إعلان أحد منظري القومية العربية المسيحيين إسلامه... ساعة وفاته؟ ألم تفطن للاستراتيجية التي تبنتها القومية العربية حينما شعرت في السّنوات الأربع الأخيرة أن لائكيتها المزعومة باءت بالفشل بعدما أدانها بقوة جمهور المسلمين غير العرب، وارتاب من مقاصدها، وإن بأخرة، عدد من المسلمين العرب؟ ها هم المسيحيون العرب، اليوم في خدمة الإسلام... وا إسلاماه!... وقديماً قوض بعض العرب البنية السياسية الإسلامية من أُسها، إذ آلت إمرة المسلمين، في المشرق، إلى حفداء الطلقاء الذين أسلموا على مضض وأوجسوا في نفوسهم حسيفة للإسلام الحق، واتخذوا التظاهر به رأس مال معنوي لهم استغلوا به الشعوب ونهبوهم وسبَوهم واستعبدوهم، وما كان يضايقهم شيء أكثر مما كان يضايقهم دخول النّاس في دين الله أفواجا، لأن ذلك كان يضيّق عليهم مجال الابتزاز. وأنت أدرى الناس بِمَا اضْطَرُّوا إليه أجدادَنا

«البربر» من المناهضة والمقاومة لجيوشهم الجرارة التي كانت في جملتها تأتمر أوامرهم عن حسن نية... يقول المؤرخون: «كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على إفريقية: «أما بعد، فإنّ أمير المؤمنين[!] لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير إلى الملك بن مروان، رحمه الله تعالى، أراد مثله منك، وعندك من الجواري البربريات المالئات للأعين الآخذات للقلوب، ما هو معوز لنا بالشام وما والاه. فتلطف في الانتقاء، وتوخ أنيق الجمال، وعظم الأكفال، وسعة الصدور، ولين الأجساد، ورقة الأنامل، وسبوطة العصب، وجدالة الأسؤق، وجثول الفروع، ونجالة الأعين، وسهولة الخدود، وصغر الأفواه، وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخامة الكلام». فلا عجب أن يكون الله قيّض لجيوش هشام هذا ميسرة المطغري وخالد بن حميد الزناتي ومن تبعهم من الأمازيغيين المسلمين، فجعلوها بإذن الله فلولا مفلولة. ولولا جشع هشام وغلمته ونهمه، لَحُمِلَتْ راية الإسلام إلى أبعد من بلاد الغال، ولرفعت في أقاصي أوربا شمالا وشرقا. ولله الملك من قبل ومن بعد.

أخي، أريد قبل أن أودعك، أن أقدم لك نصيحة، والدين النصيحة. قرأت لك وسمعت من النّاس أنك تدعي الانتماء إلى الدّوحة النبوية، وتقول في الوقت نفسه إنك «بربري» من الأطلس الكبير. لك ذلك إن شئت، وإن كان لا يعلم حقائق الأنساب، في زمننا المتأخر هذا، إلا الله تعالى. وكأني بك اتّخذتها خطة في عملك السياسي، كما فعل غيرك من الأمازيغيين قبلك. اترك هذه الخطة، عزيزي، وانهج نهجاً سياسيا آخر، لا التواء فيه ولا تستر. لقد أديت الثمن غاليا للسياسة، وبشجاعة نادرة، فَلِمَا هذه الخطة التي أكل الدّهر عليها وشرب منذ عهد ابن تومرت وعهد عدد لا يحصى من الفقهاء و«المرابطين» و«الصالحين». إني أربأ بك عن الانضمام إلى جحافل المنتحلين للنسب

النبوي الشريف دونما حجة علمية ثابتة تزكّي ما خُطَّ لهم، أو ما خطّوه هم بأيديهم من «شجرة» ترقى بنسبهم إلى... آدم عليه السلام.

أثابنا الله وإياك بحلاوة الإيمان، وبنعمة العقل مقبلاً، ووقانا شرور الكفر ونقمة العقل مدبراً، جامحاً كان أو جامداً. والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

الرباط في 20 شوال 1415
الموافق 21 مارس 1995
أخ لك لم يتخلّ عما توجبه الأخوة الصادقة،
محمد شفيق

جواب الأستاذ عبد السلام ياسين
على رسالة الأستاذ محمد شفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

مقدمات

أخي العزيز محمد شفيق،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ما بال الرسائل بيننا تتباطأ إلى ثلاثة أشهر؟ شكوت إلي تسكع كلمتي إليك ثلاثة أشهر؟ ووصلتني بطاقتك اللطيفة بخطك الذي يُخجل خربشتي هذه في الأجل المعتاد. لكن رسالتك الحوارية المؤرخة بالعشرين من شوال 1415 الموافق 21 مارس 1995 لم تصلني إلا اليوم الرابع عشر من يوليوز. وعلى غلافها طابع البريد بتاريخ 13 يوليوز. ففي أية سراديب استخبارية تُدووِلت الرسالة الكريمة؟

أشكرك على عنايتك، ويزيد من فرحي أنك الديمقراطي الفاضل الوحيد الذي كتب إلي. تصفو المودة -وما بها كان يوما من كدر- فتملي من خلال كلماتك بنبرة الصدق ما يختلج من هموم نحن فيها مشتركان، وما يطرق من توجسات نحن منها على خيفة.

الذي أفرحني حقا وصدقا أن مكاتبي رجل مؤمن بالله ورسله، يستشهد بكتاب الله ويبجل كلمات الوحي. هذه عندي بُشرى كبيرة أن الشاب محمدا الذي عرفته، أول ما عرفت، في ردهات وزارة التعليم تقدم في الحكمة مثلما تقدم في السن. لم تنل من وضوح فكره ملابسات الأيام، ولم يلتفت عن الوِجهة التي كان مُوليها عندما كنت أسائله ويسائلني في القرآن وقراءته وتلاوته.

في ردهات وزارة التعليم أَنِستُ إلى رفيق أكتشفه مرشحا مثلي للامتحان الشفوي أمام لجنة «كونيون» والسليماني رحمه الله. أكان كونيون أم غيره؟ أتذكر تلك الأيام؟ أَتَذَكَّرُ أنا جميلَك إليّ حين لقّنتني على باب قاعة الامتحان بعض المعطياتِ في الجغرافيا والتاريخ، وكنت جئت صفر اليدين منها.

ثم تمتنت الروابط الودية الحميمة على مدى بضع عشرة سنة. فأنت، مخاطبي العزيز الديمقراطي الفاضل، صديق قبل كل اعتبار. وأنت أقرب من عرف طبعي ومناحي تفكيري ومعايب شخصي. فالحوار معك إنما هو تجديد لعهد، وتوثيق لرابطة، قبل أن يكون مطارحة فكرية سياسية بين رأيين قد يتفقان وقد يختلفان.

قرأت رسالتك المتلَكئة حيث يعلم الله في أي مستخبر، ثم أعدت قراءتها بعد شهر وقد اختمر في الذهن مضمونها. فهذا أوان إجابتك. والله المستعان.

دعني أولا أفرغْ من ثلاث نقط أو أربع لأدخل في صميم الموضوع.

1. تعطيني في أول سطر من رسالتك، وعلى غلاف الرسالة، من هذه الألقاب الطنانة التي لا تسلك في أذني ولا تأتلف عليها القلوب: الشيخ، الحاج، إلخ. وكأنك بهذا تتوهم حواجز مما تنسجه الزعامات حول نفسها أو مما يحيط به الناس الموميات السياسية التي تنصب أوثانا تعبد من دون الله. تأسفت، ولاتَ حين أسف، لما زرتني منذ تسع سنوات أنت وصديقنا العزيز عبد الكريم حليم فلم أجدْ فرصة للجلوس إليكما خاصة. سلامي إليه.

2. فرحي بما تضمنته رسالتك من تأكيد، وما صرحت به، من الشهادة الثابتة الراسخة بالإيمان والوَلاء الكامل لله ورسوله فرحاً ذا

بعدين إن صح هذا التعبير: فرحاً لأخ طالما ناقشني وناقشته في معاني الإيمان. وفرحاً أن وجدت مدخلا نورانيا إيمانيا إلى قلب الدعوة الأمازيغية وصدرها وبُؤبؤها.

3. خفت على أخيك أن يكون انتحل «خطة سياسية أكل الدهر عليها وشرب» حين أعلن انتسابه إلى الدوحة النبوية. عرفت أخاك شلحا من حاحة نازعته ونازعك أيهما أمثل: الشلوح أو الأمازيغ. وكان لك عليه فضلُ أنك تفهم شلحته بينما تستغلق على فهمه أمازيغيتك. كانت مخايل التخصص الأكاديمي تَبرُق عند الشاب لتسطع اليوم في كتابات الأستاذ المكتهل المكتمل.

ما كنت أتحدث عن جرثومتي الإدريسية. ولست اليوم وقد اكتهلت بصاحب خطة سياسية يفتري نسبا ويدعي لقبا. كيف وقد **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجه: «من انتسب إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»؟!**

يطول لو جئتُ أقص عليك اضطرابات تاريخية كان لآل «أبيهى» الحاحيين السوسيين الأدارسة فيها يد وساعد وشأن. آل أبيهى هم عشيرتي وآبائي، وهم معروفو النسب. والطعن في الأنساب من أمر الجاهلية كما في الحديث الشريف. ثم إن الباعث لاغتصاب نسب بقصد سياسي مُنتف في حق أخيك. فلا حاجة للمراء. وليس ينفع أحداً النسب الطيني إن كان النسب الديني خرابا. وقد خالطت الأقوام، وعرفت عن كثب ما يرتكبه المنتسبون.

4. لا أزال أذكر جلسة لنا مع صاحبك الدكتور بنيحيى، أوسعتماني فيها تنكيتا وأنا أزعم لكما أنني عثرت على شيخ جعل الله على يده هداية الخلق. كانت «الخرافية» الصوفية وجها لوجه مع «العقلانية» الشمولية الشاكة الجاهرةِ بشكها واستخفافها بالشعوذة

والمشعوذين. وهل تنتهي هذه المواجهة يوما إلى كلمة توافق فيصطفَّ العقل والقلب صفا واحدا. وهل يخضع العقل الفلسفي العتيد المعتد بسلطانه خضوعا بالقول إلا أن يطير به جناحا الشوق لمعرفة خالقه إلى ما وراء الأفق الحسي الملموس المحسوب المنكشف تحت المجاهر الساكن إلى منطق التحليل والتركيب والتعليل؟

لن يكون عقلاء الساعة آخر من يُملأُ رعبا وشكا كما لم يكونوا أول من أُرعب وشك. إن كنتُ أخبرتك، فيمن أخبرت، بعثوري على عارف بالله اتخذته إماما فالحامل لي على ذلك حرصي أن يسمعني الناس، كان حُسباني أنها بُشرى فذة، وأن الناس سواسية في تقدير قدر العارفين بالله، متقاربونَ من حيث الظمأُ إلى الحقيقة الوجودية الكبرى. ما كل الناس يريد أن يعرف، ويصبر حتى يعرف.

بعد ثلاثين سنة من لقائي بالرحمة الساكنة في قلب رجل رحمه الله، أحتفظ بالحديث عن الصوفية في مستودعات يجدها من يطلبها بلهف وشغف كما طلبت، ولسائر الناس مِرفق الحديث عن الأمور العامة الواضحة. ما بالنا نستشكل البسيط، ونستعظم التافه، ونغرق في المعميات! يحملني على الاحتفاظ إدراكي أن الناس ما هم سواسية عقلا ولا متقاربون. ولا لجميعهم شغف ولهف إلى معرفة نفوسهم.

ويمر أحدهم من هذه الحياة لم يطرح على نفسه سؤالا أبعد مما يتداوله العامة. وإن شئت أن تسمع كلمتي عن نتيجة تجربة ثلاثين سنة غصتها، والمِنة لله العلي الكبير، في عالم الذكر والفكر فانتظر صدور كتاب سميته «الإحسان» أودعته شهادة تقول: وجدت الحق مع الصوفية.

كيف وقد فارقتَ الفقراء منذ بضع وعشرين سنة! هذا موضوع آخر.

الآن وقد طفت ببعض الأزقة الجانبية، ونبذت الخرافات والشعوذة وما يشبههما، فهلم نحتكم في حوارنا إلى العقل ومنطقه، وننظر في التاريخ وعبره، ونستشرف المستقبل الكالح بما تصنعه الأيدي المفسدة. وبما تُخلِّفه لنا بعد الطوفان الذي حذرتُ مَن تعلم منه منذ أكثر من عشرين سنة.

الفصل الأول

مدخل



- ماذا بعد الطوفان؟
- أزمة ثقة
- حوار مع الفضلاء الديمقراطيين
- أكاد أفهم!
- أية ديمقراطية؟
- المثقفون والدين
- «العقل المدبر»
- وعقل مقبل... على ماذا؟
- ثَمرات العقل المخترع

ماذا بعد الطوفان؟

ماذا بعد الطوفان؟ ماذا بعد خزي النظام المفسد في الأرض وهُوِيِّهِ حيث هَوَى وغَوى الفراعنة؟

دعني من التأملات النظرية الـمُسلّية أكبادَ الحزينين! دعني من «الرومانسية» التي يتراءى في منظرها غد يُشرق فيه وجه ديمقراطية هي الشورى بعينها. إن كان يُسلي أكبادنا الحزينة المغمومة بديمقراطية الزور والبهتان والرشوة المخزنية التطلّع إلى مثاليات ننحتها نحتا من مادة معاناتنا، فإن حقائق ما يتوقعه عقلاء ما قبل الطوفان (وأحسِبك منهم وأحسُبك) لما بعد الطوفان هي أقسى من أن تفيد في علاجها صيدليات المستعجلات ومراهم الطلاءات.

حقائق ما بعد الطوفان، حين تغرَق السفينة المعطوبة، ترسم في أفق العقلاء المجربين المحنكين مثلك على شكل هيعات خافضة رافعة، على شكل تشتت كريه لما كان تجمعه ولاءات مغصوبة، على شكل نكولٍ ببيعة كانت محض شعوذة، على شكل نكال بجملة كان فيها الفاعل والمفعول، والجار والمجرور.

على شكل كارثة يغرف عامة المسلمين مِن أحواضها علقم الخيبة، ومرارةً يتقاسم مذاقها الشامت بالأمس والمشموت به.

ذلك الوجه المشرق لديمقراطية/ شورى من أين يطلع علينا طلعة البدر غدا بعد الطوفان؟ أربَأُ بعقلك الأخوي أن تكون لامستْ خيالَك إمكانية أي عمل جاد قبل الطوفان يجرف الباطل من جذوره.

بيننا الأيام أخي! بيننا الله تعالى الذي تؤمن به وأومن.

ماذا أنتَ قائل غدا لتنفس عن الناس كربة؟ ماذا أنت قائل وكلمتك مسموعة وأبحاثك مؤسِّسة؟ ماذا أنت قائل وفاعل، وللدعوة الحرة (الأمازيغية كما يقول المسلمون العجم) مناجاة مع عقول مفكرة، وعواطف جياشة، وأصالة حقّروها وهمشوها دهرا، ومَخْزنوها عهودا، وجندوها كَوما يقتحم عنهم مونتي كاسينو؟

أنقول أنت وأنا قولا شططا، وفعلا غلطا، أم ننصح لله ولرسوله وللمؤمنين؟

أعتذر إلى عربيتك الرشيقة عن استعمال التركيب الأعجمي، المتأدب بآداب غير آدابنا، القاضي باستعمال ركاكة «أنقول أنت وأنا». العرب المسلمون، والعجم المسلمون أيضا، لهم آداب لا يخدشها قولنا. أنا وأنت.

كيف تتربى ديموقراطية (هي الشورى بعينها) في عش بزاة القومية الجامعة الجامحة المغيرة من أعالي جبالها على بوم السهول؟ نحن جبال وسهول إذا! نحن عرب وبربر إذا! بل نحن بربر وفد علينا دخيل منذ قرون.

ذهنية تعرفها جيدا. فلعل عمق أبحاثك يتقدم قبل الطوفان وبعده لينثُرَ رعونة مجسدة تتخبط في شعارات هائجة تحرك العامة، وليفضحها، وليتلافى ما يتهدد غرقى ما قبل وما بعد من تمزق وآلام وإهدار مستقبل يرتهنه المفسدون في الأرض في أيدي اليهود.

أينا، أخي، أقرب ملامسة للتاريخ وعبره: عقلك الفيلسوف الذي يتمكث طويلا في صياغة مفهومي «العقل المقبل» و«العقل المدبر»، أم صاحبك الملتاع قلبه شفقة على ما قبل الطوفان وإشفاقا على ما ينتظرنا بعد الطوفان؟

لا تحتاجُ إلى أكثر من إشارة عابرة: هي أن الأحاديث التي استشهدت بها على مرتبة العقل لا يصحح رجال الحديث منها حديثا واحدا. بعد هذا فأنت مُحِق في تهممك بالعقل المتخلف (المدبر كما اصطلحتَ) الظلامي حقا.

عقل «الفقيه» المتزمت المنغلق العائم في بحار جهله هو عديل ذهنية بُزاة الجبل الـمُغيرين بجهالة تثير العامة، وتبث ألغام الحقد، وتنادي غدا يالَثاراتِ الأمازيغ!، إن لم تُلَجمها وتتقدمها وتنشرها رصانة علمية باحثة متعمقة لا تساير الفهاهة الفكرية ولا العرامة المهيجة.

«الإسلام غدا» عنوان نشرتُه منذ بضع وعشرين سنة. كان فكرا وتجريدا وتأملات. ما قلت في صفحة ولا كلمة أن إسلام الغد يفرز العرب من العجم. لا ولا أنا اليومَ، وحماني الله غدا، ممن يقرأ تحريف الشياطين العصَبيةِ لكلمة الله فينطق سفَها: وتلك الأيام نداولها بين العرب.

ما هي شعوذة ولا خرافة ولا تخرُّص في الأوهام أن يقول مسلم اليومَ: إن الإسلام سفينة النجاة ورابطة الجمع وقانون السلام لغرقى ما بعد الطوفان. ما هي شعوذة ولا خرافة ولا تخرصٌ تلك المقالة اليومَ وإن كانت تأملات «الإسلام غدا»، بلْ شعار «الإسلام غدا»، تبدو ضربا من الإفراط في الأحلام منذ بضع وعشرين سنة.

حوارنا، أيها الأخ العزيز، لا مغزى له إن لم نتطلع منذ اليوم إلى ما يحسبه العقل المؤرخ المعتبر من تقلبات موج وتغير مُناخ وإضرار حاجة وتمزيق شمل هي من لوازم كل غرق.

أنت، أخي، أدخلُ الناس في دهاليز الحكم. يسمع الناس جعجعة و«مشاريع» وخطبا ولا يرون طحنا. والألباء مثلك يتحسسون تحت

الجعجعة المخزنية صرير حديد تصدّأ، وآلة هالكة لا يُخفي التنميق والتزويق تهالك الشيء العجوز الصرار. يتسمع الألباء مثلك ركز ممسوس وحشرجة محتضر.

أزمة ثقة

فما نحن قائلون غدا؟ أصاب التآكل المستمر منذ أربعين سنة مَقاتل الثقة بين الناس، فالضمائر بضاعة والسوق أثمان. فكيف يَستعيد الناس الثقة، أم كيف يثق بالمستقبل من لا ينفكون عن تغريره بالوعود الخُلّب منذ أربعين سنة. الخُطب، كما تعلَّم الناس، حبالة حاطب ليل. الوعود كذب. والنصيب من أسلاب المسلمين حظ المداحين المتملقين. فكيف تعلَق الثقة بذمم فاسدةِ الأصل وأخرى أنهكها الغيظ العاجز وخيَّبت آمالها وقتلت نأْمة الصدق والتصديق عندها عقود من الزّيف والكذب؟

ماذا نحن قائلون غدا؟ أننتظر خاطراً من وحي آلام الساعة لنرتجل خطابا ونرتحل قريحة اللحظة ونمتطي الـمُتاح من اندفاع الرعاع وتخبط الطبقة السياسية وتخرص «المجتمع المدني» الذي حبسوه في أطوار المخاض فهو يتحفز؟

الثقة بالمستقبل، والثقة بين الناس، وثقة العامة بالنخب المتعلمة، إنما هي حُلْم في بلاد المسلمين إن لم تكن الثقة بالله عز وجل هي العروة الماسكة والرباط بين ذمم الصادقين. يتضاعف وِزر الوازرين الكاذبين وتستعصي الثقة على مراجعة النفوس لأن ما فيه الناس من فساد كان ينادَى عليه بأنه هو الإسلام الحق، إسلام التسامح، إسلام المستنيرين، لا إسلام الأدعياء المتطرفين الإرهابيين الظلاميين.

ما فيه الناس اليومَ من فساد جناية ارتكبت باسم الإسلام. تضاعف وِزر الوازرين من أجل ذلك، وتستعصي الثقة على مراجعة النفوس لسماع شعار الإسلام. فالناس ضحية نفاق تسربل وتدثر بمظاهرَ وثنية صارخة، وانسلّ في البواطن انسلال الوباء. والكل، ظاهرا معلنا وباطنا، فقد الحياء فما يستخفى: هو الإسلام الحق المتسامح المستنير.

كانت الثقة تستعصي على المراجعة غدا رِيبةً في نياتٍ متشابهة الخطاب لولا أن الناس خبرَت الخبيث من الطيب، وساعدهم فُحش الهالكين المتهالكين على التمييز.

فمن يرفعْ شعار الإسلام غدا يمتحن في رصيد ثقة أثلته براهين صدق. من يرفع شعار الإسلام غدا يتحمل مسؤولية ثقيلة تنوء بالجبال: مسؤوليةَ أن تكبسه الأحداث، وتضغطه الأولويات، وتُرهقه الأوزار المخلفات، وتعوزه الخبرة والكفاءات، فيذهبَ مع صوت اليتامى من أبوة سرابية خداعة ليقيم أعراس الهتافات أن الإسلام هو الحل. وإذا هو واعد إن صَدَقَ نيةً كذبته الحقائق الصلبة، وإن نواها صادقة على مستوى النظر والتخطيط جاءته المستحقات العينية بما لم يحسُب.

حوار مع الفضلاء الديمقراطيين

شعار «الإسلام هو الحل» كفارغ البندق، جعجعة بلا طحن، إن لم يجلس العقلاء المسلمون، الفضلاء الديمقراطيون، لحوار مخلص حتى يتفاهموا على الكلمة السواء، ويتعاونوا على البر والتقوى. الإسلام ما هو حكر على أحد، ولا مرتع خاص لحزب وجماعة. إن كان لكلٍّ فهمه للإسلام، وإن كان عند بعض الفضلاء تساوي الديمقراطية الشورى،

وتبرز لاحقتهما السابقة في أجلى الصور وأبهاها، فالحوارالهادئ الحكيم المتأنّي المتوقّع لما بعد انكساف شموس النفاق الكاذبة، هو الوسيلة لترتيب الفهم وعرض بعضه على بعض. هذا مما نتفق فيه مع الديمقراطية.

ولهذا أتساءل: ما أنا قائل غدا وقائل أنت؟

أنا لا أستسْمن ذا ورم، ولا أنفخ في غير ضَرم، إن عرضت على الفضلاء عرضا، وإن قدّرت أن في الديمقراطيين فضلاء. بل أقدّر أكبر التقدير كل ذي مروءة وكفاءة علمية وخبرة عملية، لأن كل أولئك ذُخر الأمة، بل لا قرار للأمة بدون فضلائها وعلمائها وخبرائها.

وأرى بعض الناس أساءوا بي الظن فحسبوا أنها سخرية واستخفاف أن أقرن كلمة «فضلاء» بكلمة «ديمقراطية». وآخرون دافعوا عن حقهم في أن يكونوا ملحدين. أنا لا أمانع أن يلحد الملحدون. ليجهرْ بإلحاده منهم الشجاع الجريء. لكن أن ننافق الأمة ونزعم أننا مسلمون بينما نحن نتبنى فكرا ماديا، ونرفض أن تكون كلمة الله بيننا هي الفيصل، ورباط الإيمان شأنا عاما، وشرعة الإسلام قانونا، فهو توغّل في الرداءة الفكرية، وترَدٍّ في مهواة نفاق جديد يُلَبِّس كما لَبَّسَ النفاق الموروث.

أكاد أفهم!

أكاد أفهم دعوتك لي ونصيحتك أن أنظر في عِبر التاريخ تلميحا لبقا حذرا إلى ضرورة «تلييك» الحكم لكيلا تتكرر مآسي الانحراف الأموي فما بعده. أفدتني بالنص الفريد (أين نقبت عنه؟)، نص رسالة

هشام بن عبد الملك إلى عامله يستجلب من عذارى الأمازيغ كل ذات كذا وكذا.

إن فظائع الملوك العاضين لا تسوِّد إلا وجه الإسلام الرسمي المتلبس المتأبلس. إسلام منحرف منقوض العُرى، أول عُراه نقضا الحكم.

جعلها الأمويون وراثة عصبية فسنوا في تاريخ المسلمين السنة المشؤومة التي آلت بالأمة إلى شرذَمَة وانهزام وصفريّة على رقعة العالم. كان الرِّق نظاما شرعيا للتعامل مع أسرى الحرب، إيوائهم من خوف، وضمهم إلى أسرة مسلمة تربي وتعلم وتؤلف القلوب بحسن المعاملة بما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نطعمهم مما نَطْعَم ونكسوهم مما نكتسي.

جريمةُ اللاعبين بالدين، الناقضين لعُراه، أن أحالوا نظاما إنسانيا رحيما يعد تحرير الرقاب المؤمنة نية قربة إلى الله مرْبَح تجارة وبضاعة سوق وحظيرة دواجن بشرية يكتب الملك بأوصاف المطلوب منها كما يوصي المرء سائس الخيل بشيات الخيل. نِخاسَةً وإهانة للمرأة وخِطّةَ خسْفٍ وخِسة أصبحت الرحمة التي نطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم في فِتيان المسلمين وفتياتهم بقوله: «**هم إخوانكم وَخَوَلكم، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل، وليُلبسه مما يلبَس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم. فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه**».

روى الحديثَ الشيخان وغيرهما عن أبي ذر الصحابي الذي ذكر الحديث لما تعجب رجل حين رأى على أبي ذر حلة وعلى غلامه مثلُها.

كما انحدر هذا النظام الجزئي في الإسلام، نظام تربية «إخواننا» تهييئا لهم لوقت تُفك رقابهم، انحدر وانتقض نظام الحكم. فلا عجب

أن تجد من ملوك العض هِشاما –وما أكثر النوع!– ينعت بنات الناس بنعوت نهِمة مرذولة.

تحت الحكم المنقوض العُرى تصبح النساء أنعاما مطهّمة لحريم الملك، والرعية قطيعا مذعنا.

أكاد أتفَهّم ما يجعل الغابطين للديمقراطية اللهجين بها متحفظين إزاء حكم إسلامي ودولة إسلامية. أفهم أنهم يدرسون التاريخ الذي صنعه منحرفون مسلمون من حكام العض والجبر فيَعْزون الشرور لدين الله لأنهم اكتفَوْا بإطلالة عابرة على أصول الدين، وأقنعهم الفكر الاستشراقي الإسلامولوجي الـمُدَجّج بالتوثيق العابر القارّات، أن فترة النبوة والخلافة الراشدة ما هي إلا أسطورة «وميث» زينها في مخيال القائلين بالإسلام الناهضين إليه حنين إلى مثاليات، وأعطاها بريقا وإشعاعا قتامة الحاضر، وانهزام الحاضر.

أكاد أفهم من تبصيرك إياي بمزالق إدخال الدين في السياسة أن لدى المثقفين الفضلاء صعوبة لتصور الدين في صورة غير مدلول كلمة «رلجيون». وأكاد أفهم أن طرح تاريخ الكنيسة في أوربا وسيطرتها على الدولة قرونا بإزاء تاريخ الإسلام الرسمي عندنا أدّى العقول النافرة من الظلم والبهتان إلى مقارنة تَدين الزورَ الكنسي والتزوير العاض معا لتستنجد عندنا بديمقراطية لاييكية محرِّرة. نستنبتها نحن استنباتا صناعيا، ونطوع الأرض والمناخ، وننبذ الدين أو ننحيه جانبا، محترما موقّرا في ركن القضايا الشخصية، لنتصدى لمشاكل التنمية وتوزيع السلطة وبناء الدولة على استقرار تعددي تداوُلي.

لا أزَال أنتظر من يقنعني، نظريا أو بمثال واقع، أن الديموقراطية يمكن أن تمارس منقطعة عن لازمتها «القِدِّيسة لاييكية».

أية ديمقراطية؟

هي عِنْدي أصلح نظام لشعب يأبى الظلم والاستبداد، ويريد للناس التعايش في سلام اجتماعي وبحبوحة استهلاكية، لا قضية له وراء ذلك. فإن رضي المسلمون بتطليق دينهم جرياً وراء ديمقراطية تلك مزاياها وهذا حدّ أفقها فالكلمة لكل فاضل ديمقراطي لاييكي. لكن المسلمين لا يطلقون دينهم، بل يعودون إليه لأن لهم قضية عظمى يكون إصلاح الحكم والتنمية والتعايش السلمي وسيلة من وسائل تحقيقها. للمسلمين قضية عظمى هي رسالتهم في العالم، رسالتهم إلى الإنسان.

وللمسلمين قضايا أخرى أهمها أنهم قصعة توكل، وخراف تذبح، وأعراض تنتهك، ومِلّةٌ تَجَرّأ على حُرَمها الصهاينة اليهود يطأون أرضها، ويرومون تدجين اقتصادها، ويطمعون في إذلالها وتركيعها وخَطم أنْفها وتمريغ هامها في حَمْأة الهوان.

منذ يومين وبّخ الرئيس الدوكولي جاك شِراك الديمقراطيات الغربية التي تعلم الناس، حسب قوله، الحرية وحقوق الإنسان وتخذل المظلومين في البوسنة، بل تتواطأ مع أسراب الجراد الصربي ليفعلوا الأفاعيل في سِرِبْرِنِتْسَا وجيفا وسراييفو.

حياة جندي غربي واحد ذخر ثمين وكنز ثمين. وسفك دماء شعب، وإهدار عِرضه، واغتصاب بناته وأرضه ما هي إلا مشاهد عابرة على صور الإعلام.

إلى أية ديمقراطية تدعو، أخي الكريم، غدا؟ لئن كتبت في كتاب «حوار مع الفضلاء الديمقراطيين» أن سكوت النخبة المثقفة عن

تلازم اللاييكية والديمقراطية خيانة وتعتيم على الأمة وتغرير بها وكتم للحقائق عنها فلأني نظرت إلى عواقب الاندفاع إلى قارَب نجاة، يتعلق به غريق الأنظمة المفسدة في الأرض يحسبه ألواحا فإذا به تمساح.

تماسيح هي الديمقراطيات الغربية على المسلمين. أنت الباحث المؤرخ أدرى بما فعلته ديمقراطيات أوربا في القرن الماضي حين اقتسمت العالم الإفريقي الأسيوي المسلم، وتوزعته وانتهكته وانتهبته. لو كانت انتهكت الأرض وانتهبت خيراتها وتمَوّلت مقوماتها أسلابا تدعم بها رأسماليتها التمساحة لهان الأمر. يهون الأمر إزاء ما فعلته بالعقول والذمم والأخلاق والدين. بنت مدارس وحشدت أساتذة مُعَلمين وخبراء مخططين لمسخ هُوَيّة المسلمين، وتجهيلهم بدينهم، وتحويل وَلاء أبنائهم وبناتهم لمثَلٍ أعلى كان البلسم والسَّلْوَة إلى وَلاءٍ لعقلانية دكارت، ووضعية كنت، وفلسفة هيوم، وثورية فلتير على الدين، وتهويمات روسو، وأدب موليير إلخ.

تماسيح وردت علينا مُتزَيِّنة بزِيٍّ حامل مشعل الحضارة، ومصباح التنوير الفكري، حامل العَتاد التربوي التعليمي الذي يُفرنج الأجيال، ويقسُر طموحها على الجري وراء الحضارة البراقة ولو تعلقا بأذيالها، واغتباطا بمقعد خلفي على مائدة أفراحها.

لئن كان يشعر الباحثون المتعمقون من فضلاء المثقفين بضرورة الخروج من المأزق التاريخي الذي نجد أنفسنا محشورين فيه، أهم سِمات المأزق فساد الحكم، فما كان ينبغي أن نكسوَ الديمقراطية بألوان البهاء كما تتزيّن المطالب في مخيلة المحرومين. فأحرى أن نظنها الشورى بعينها.

الديموقراطية في بلادها كسب وغُنم وتحرر وكرامة. كان لا بد من قرون في تاريخهم ليشتد عودها وتبسُق شجرتها وتَينَع ثمرتها.

حتى إذا استوت في تلك الديار وأكسبت القوة وفتحت للعقل المنظم المدبر العلومي مجالا لصناعة المزيد من القوة وأسباب الرخاء، حتى إذا استوت في الديار الأصلية عضت بالناب والمخلب الإنسان المقهور، وتعَض، لا تزال، في البوسنة والهرسك، وتعَض في فلسطين، وتحرق العراق، وتُنكل بالشيشان. العالم ضحية تُستهلك أعيانا وأشخاصا وشعوبا.

ماذا أنت قائل غدا أيها الأخ العزيز؟

الديمقراطية إما أن تأخذها برُمَّتها ولازمتها اللاييكية وطبيعة أهلها الأنانية الاستعمارية الدوَابية الجاهلة بالله. وإما أن تنافق الناس فتزعُمَ أن اللاييكية وطرد الدين من المكان وتهميشه شيء، والديمقراطية شيءٌ آخر.

لا أزال أنتظر من يقنعني نظريا وبالمثال الواحد الحي أن الديمقراطية واللاييكية يفترقان ويبقى للديمقراطية مدلول كامل.

تأخذها برُمتها، والرُّمة حبل تقاد به البُعران وتُزَمّ أنوفها. يشرد البعير أو يهم بشرود فالرُّمة تُنَهْنِهُ من شهامته وتكف من غُلُوائه. زعمت الديمقراطية أنها تفتح ذراعيها للإسلاميين في الجزائر. فلما أعلن الإسلاميون في برنامجهم وهتف معهم الشعب وصوت لهم الشعب لدولة إسلامية زجرت ذلكَ الشاردَ الرُّمةُ الماسكُ بها لاييكيون عسكر يصوت لهم ويهتف معهم ويؤيد برنامجهم المعادي للدين المهمش للدين نخبة مغربة منها قوميون ملحدون.

نخبة منها قوميون أمازيغ كانت فرنسا اصطنعت منهم عصبَةَ أرادتها منها وإليها، شأنها في سياسات الظهير البربري في المغرب، وسياسات التعليم البربري في المغرب.

قالت اللاييكية في الجزائر بزجرة مأساوية. إما ديمقراطية كاملة أصيلة بلايكيتها، وإما الصحراء والتشريد. ونقاتل حتى آخر قطرة دم جزائرية ظلامية تزعم التسلق إلى الحكم على متن التصويت الشعبي والبرنامج الإسلامي.

تأخذ الديمقراطية برُمتها اللاييكية، أي تتنصل من كل دين، وإلا فالماسك المصنوعُ عقلُه واقتناعُه ومصالحُه الطبقيةُ وحساسيتُه السياسية وولاؤه لك بالمرصاد.

أنتظر من يقنعني نظرا وأثرا.

المثقفون والدين

تُحَلَّى الديمقراطية في عين عشاقها وخيالهم بزينة الذكاء، والتسامح، والتنوّر، والانفتاح، وقَبول الرأي الآخر واحترامه، والاستفادة من التعددية الحرة، ومقابلة الأفكار بعضها مع بعض في جو الثقافة العالمية المتقدمة التي تجاوزت بدائية الأفكار المطلقة والحقائق المطلقة المزعومة. فكل ما هو واقع من قوى قائمة، وأفكار متداولة، وكشوفات علومية، وفن، وتاريخ، وأنظمة حكم، ودروس تاريخ تمخض عن زبدة فلسفية إجرائية اسمها الديمقراطية، وحكمة إنسانية تسمى اللاييكية ضامنة الحرية حافظة حقوق الإنسان.

«الأعلَوْنَ» المثقفون من الطبقة السياسية لهم دين هو الديمقراطية وصنوها اللاييكية مُجَمّلتين بمزايا الحرية وحقوق الإنسان. دين يوجب عليك أن تحترم الرأي الآخر ولو كان الآخر يمارس حريته في سب الملة وتنجيس المصحف وعيب الدين الإسلامي والسخرية الجاهرة المكتوبة في الجرائد والمصورة المسموعة في التلفزيون بقيم الأمة.

ليجهر «الآخر» بجحوده كما يجهر بفسوقه. إن كان من هواة الانتحار السياسي. لا مانع عندنا من ذلك. الكفر الصراح يزيل عن أعين المسلمين الغماضات، أما النفاق ودخول الأجحار الملتوية فخِسة لا تليق بالأحرار.

يعاني «الأعلون» المثقفون، خاصة منهم المناضلون التقدميون آنِفا قبل أن تسفر الإديولوجية التقدمية عن إفلاس، من عقدة، من أزمة، هي أن «الأسفلين» من الشعب الأمي لا يزالون مؤمنين الإيمان الضروريَّ الفطريَّ، إيمان العجائز المفوِّض لله، المتوكِّل على الله، العابد لله، فإن عصَى استغفر الله ورجع إلى الله وتمنى أن يُدفَن في مقابر المسلمين، يصلي عليه الأتقياء، ويشفع له النبي ليحشر مع المسلمين إلى جنة النعيم.

إسلام العجائز وإيمان العجائز حركة قلبية فطرية، يتضخّم العقل الاستدلالي الباحث عن يقين بوجود الله الخَالق فيُغَيّم على القلب سماء الإيمان الفطري. لذلك تمنى إمام الحرمين أستاذ الغزالي، بل طلب من الله عندما حضره الموت، أن يعطيه إيمانا كإيمان العجائز. الجُوَيْنِيّ إمام الحرمين أمضى حياته في مُجادلة أهل البِدَع إذ كان إمام المتكلمين.

كانت له مع الله تعالى قضية هي أن ينال سعادة الأبد في آخرة دله عقله على وجوب الإيمان بها بعد أن دلّه على وجوب صانع خالق للكون والإنسان، وبعد أن دله على الصفات العُلَى الواجبة في حق الخالق، وبعد أن دله على أن النبوة والوحي هما الطريق الوحيدة لمعرفة الخالق ومعرفة المصير بعد الموت، لا الفلسفة الإغريقية التي نازلها طول عمره.

أما «الأعلَوْن» من النخبة المثقفة فلهم قضية أخرى سياسية. كانوا زمانا وُسطاء بين الشعب ومراكز القرار، وكانوا تراجمة مناضلين عن حقوق شعب يريدونه نصيرا لمشروعهم.

من كان منهم مسلما بقي على أصله، أو قارئا للقرآن جادّا في طلب الحق، قد لا يجد ضيرا ولا صغارا ولا احتقارا لنفسه حين يعلن أنه مسلم، لأنه بالفعل مسلم. عقدة مثلِ هذا تفصيلية. يجادل «الدخيل» الجديد في الحقل السياسي - أعني الإسلاميين - فيما هو الإسلام وما هي الشورى، وما هي الديمقراطية، وما هو القاسم المشترك؟

أما من كان انتماؤه إلى الإسلام من الطبقة المفكرة الترجمانية الوسيطة المناضلة انتماءً بالاسم والنسب والسِّحنَةِ والفكرُ غربي والدين لاييكية فعقدته وكارثته ومَثارُ ألمه وجام غضبه وصارم عَطَبه أن يرى جهوده لمدى خمسين سنة، وآماله وطموحه وغرس يده، يجنيها ويقطفها غيره.

عقود طويلة من النضال تبلورت جهودها في طلب ديمقراطية، فإذا الديمقراطية تنادي إلى الحكم هامشيين كانوا في السياسة، يقفزون فجأة إلى الواجهة ويفوزون بالرهان.

«العقل المدبر»

في هذا السياق، أخي العزيز، ينبغي أن نطرح قضية العقل لا في المجردات التأملية. بقطع النظر عن أحاديث العقل، الواهيةِ روايةً، لتصنيفك العقل إلى مدبر ومقبل. مدبر عن ماذا ومقبل على ماذا؟

تخاف من العقول المتحجرة مثلما نخاف. فالحرفيون الذين يحيلون دين الله، الذي جعله رحمة، دين نقمة وعذاب وتزمت، ما في جعبتهم

إلا تكفير المسلمين وتبديعهم، ولا في صيدليتهم لعلاج أمراض المجتمع إلا آلات بتر الأعضاء وقطع الرؤوس وإسالة الدماء وقذف النساء بالأحماض التي تُحرق الأجسام وتُعمي العيون.

تلك عقول مدبرة عن دين الهداية والرفق والرحمة. عقول تعجز عن التفكير في المتشابكات السياسية الاجتماعية الاقتصادية، كما تعجزُ عن تصورٍ إنساني لمشاكل الإنسان، تحسِب أن لها القِدْحَ الـمُعلَّى في الفقه الديني لاطلاعها على أحكام الشرع وحدوده.

النية الحسنة قد تكون مَدْرَجَة للعنف الفظيع والظلم الأفظع.

قرأ الفقيه العاقل «المدبر» أن حد السرقة القطع. فهات مباضعك واقطع الأطراف. لم يسأل هذا نفسه السؤال الفقيه، المتنوّر بنور الهداية، الحامل للدعوة وهي تحبيب الدين إلى الناس، السّؤال الضروري: مَن يحُد من في مجتمع غاطس في الفتنة؟ من يقطع ماذا في مجتمع تلطخت فيه الأيدي بالجرائم الموبقة واللصوصية العامة؟ ما حد من سرق النصاب الشرعي؟ القطع. لكن من سرق تاريخ أمة وثروة شعب ودينَ شعب ما حكمه؟

تقطع سارقا بشهادة كومساريات وضباط كومساريات هي معطن السرقة والفساد والرشوة!

تسلخ من حسابك ملابسات الفتنة وجرائم الحكام العاضين وسرقتهم المنهجية لثروة شعب، ودين شعب، وتاريخ شعب، وتخلَع على فقهك الكسيح حُلَلَ النزاهة والصرامة في الحق وتطبيق الشريعة!

يرسم «الفقيه» الجامد بسوء تقديره، الذي لا يشفع له حسن النية، على جبين الأمة بصمة الجهل بما هو الإسلام وما هو رفقه وتدرجه ورحمته، بل وسمة الجهل، بل وصمته.

نخاف مثلما تخاف من عقل مدبر مثل هذا.

وعقل مقبل... على ماذا؟

ونخاف من عقل مقبل على المزايا الوهمية الأسطورية التي تزين الديموقراطية وقواعدها في «المجتمع المدني» بحُلل المثالية من ذكاء وتسامح وانفتاح إلخ.

منذ غزانا الغرب بخيله ورَجله من عساكر المدفع والبندقية، وعساكر الإدارة والحكم، وعساكر السبورة والدفتر والكتاب خاصة، ارتسمت على جبين الأمة علائم الحيرة والهزيمة، ثم التبعية القسرية، ثم التقليد في الزّيِّ، ثم التّبعية الفكرية الإرادية، ثم الوَلاء المطلق والمتحمس والمناضل لدين العقلانية الجاحدة، ومذاهب الفلسفة «التنويرية»، وأنظمة الحكم.

كنا بالأمس نتغنى بمزايا الحزب الواحد، والديمقراطية المركزية، والاقتصاد الموجه، والاشتراكية المسَوِّية. فاليوم يناغي الجميع ويناجي ديمقراطية «هي الشورى بعينها»، وهي الشورى في أكثر مظاهرها إشراقا.

على جبين الأمة مكتوب بما تركه عليه رسْما دارساً أثر تاريخ الانحطاط، ثم بما جدده العباقرة المغرَّبون، كلمات: أمة هُواة سُعاة في الحياة. غثاءٌ قصعة مأكولة.

من يمحو الوصمة؟ عقل «مدبر» عمِيٌّ عن حقائق الواقع وحكمة الشرع في الرفق والرحمة والتدرج ودَرْءِ الحدود بالشبهات، أو عقل «مقبل» على دينامية تكنولوجية هي التي تسيّر العالم، وتسيطر وتخطط وتنفذ مستقبل الإنسان؟

ذكاء وتسامح وانفتاح إلخ.

الذكاء الصانع، ذكاء العقل المعاشي المنفتح على نواميس الكون المتتلمِذ لها عن وعي كامل واطلاع وتجربة، وفي جهل مطبَق غبي بأن النواميس في الإنسان والكون البديعة النظام الدقيقته لا تقبل الفطرة السليمة أن تكون من صنع طبيعة صماء تَجرها الصدف. بلغ ذكاء العقل المعاشي أقصى مداه التكنولوجي إلى حد الآن في الصناعة التواصلية، والتكنولوجية المعلوماتية الإعلامية، وما سماه «آل كور» بالطريق السيار للمعلومات.

ذكاء صانع دبر وفكر وأتقن حاملات من شرائح مندمجة، وكمبيوترات متطورة أجيالا بعد أجيال، متَسارعة متطاردة، وشُعيرات بصرية زجاجية يجيز الخط الهاتفي الواحد منها من الرسائل السمعية البصرية آلاف ما كان الخط المعدني العتيق يُجيز. وشبكاتٍ تواصلية موصولة عبر الأقمار الصناعية، مفتوحة مطلعة على المبذول من ذخائر الخزانات الجامعية والمتاحف العالمية. «أنترنت»، شبكة الشبكات الحرة، ماذا تصبح غدا بعد أن يتولاها جبابرة الرأسمالية الإعلامية ويغذّوها بآلاف الأفلام الهوليودية؟

حاملات تواصلية ومحمولات على آلاف الشبكات التلفزيونية المباحة لمن معه ثمن المقَعّر. فما شاء للعقل المعاشي المخترع مزاج البشر الدوابي المستهلك للمشاهد العاهرة، حتى إن بلاد «حرية التَعبير» وحُماة حرية التعبير في أمريكا يضجون احتجاجا على العهارة السائلة عبر الأثير، تضعها التكنولوجية الذكية في متناول طفل وطفلة يستطيعان تهَجّيَ الحروف وقراءة الأرقام ولَمس الأزرار. في متناول الجميع يضع الذكاء المنفتح المتسامح إلخ القدرة على تبادل المعلومات القذرة من صور وكلمات بين طفل وطفل، وشاذ وشاذ، وحيوان وحيوان.

نعم!

اقرأ، أخي العزيز، وعهدي بك قارئا في المصحف، كلمات الله عز وجل عن قوم نسوا الله ونسوا ما ذكروا به ففتح الله عليهم البلاء. اقرأ ابتداء من الآية 42 من سورة الأنعام كيف يفتح الله على من نسي الله أبواب كل شيء، حتى إذا فرح بما حصله بذكائه المخذول أَبْلَسَ وقُطع دابِرُه.

الإبـلاس الحزنُ عـلى عِظَـم المصاب وفداحـة الكارثـة. الإبلاس الصمت اليائـس.

كيف ذاك ومع العقلاء المعاشيين المخترعين زينة الدنيا ومتاعها وثروتها وقوتها وسلطانها؟

من لا ينظر أبعد من أنْفه لا يزن آيات الله في الكون موازية لآياته تعالى في القرآن، تفسر هذه تلك وتفهم معناها لقوم يعقلون، وقوم يتفكرون، وقوم يتدبرون.

العقل المؤمن بالله، المتدبر المتفكر العاقل عقل القلب والرأس معا، لا تغره زهرة الدنيا في يد المستكبرين في الأرض. ذلك لأنه يضع أمام باصرته وبصيرته حركية الاختراعات في مساقِ سنة الله في التاريخ. فيبصر تردِّي الإنسان المترف المتواصل عبر الأقمار الصناعية الحاملة - وهي الأعجوبة العقلية - التفاهة والخسة والرداءة.

ويبصر بؤس الإنسانية الفقيرة المتخلفة المريضة المقهورة بما أساءت في الأرض واستكبرت وطغت وأفسدت الإنسانية المتقدمة الذكية المنفتحة إلخ...

حاملات تكنولوجية عبقرية أعجوبة. ومحمولات دوابية تافهة مرذولة. ذلك أن الرأس المعاشي المخترع المبتكر لا وازع له من قلب

هو وعاء الأخلاق والمروءات والإيمان. رأس جبار على كيان تافه. سفينة بلا وجهة ولا احتكام إلا اللذة والمتعة والأنانية الظالمة. ذلك هو إنسان التكنولوجية، يقوده ما صنعت يداه، وافْتكر رأسه إلى مستقبل يستفحل فيه فتح الله عز وجل على الناسين ما ذُكِّروا به أبواب كل شيء. ثم إبلاس وقطع دابرٍ.

في قرار فطريٍّ لا يزال ينتبِض عند بعض العقلاء من ذلك البَر صُبابة من حكمة لم تفتأ تتنبأ بسقوط الإمبراطوريات، عبرة بتاريخ الرومان والمسلمين والإنجليز بالأمس القريب والإمريكان وطريقتهم الأمريكية في الحياة غدا. لا تستثني سنة الله أحدا من ناموسها في التاريخ. الترف والتردي الخلقي مدخلان وخيما العواقب على النظام السياسي وعلى الوجود الحضاري.

رأينا مصير الأخلاق المتوقع من جراء الثورة التواصلية، ونرى أيّ ترفٍ تتيحه الصناعة الإعلامية بشطريها الحامل والمحمول.

تزاوجت التكنولوجية الرقمية مع الصناعة الفنية الهوليودية فولدتا أفلام الرعب وأفلام الخيال العلمي، وأبرزتا آخر مظهر للمولود: عالم الخيال الممكن، عالم يشارك فيه المستهلك، ويختار، ويصنع الصور، ويهرُب من عالم الواقع إلى عالم آخر. ذلك أن من كفروا بالله واختاروا الأطروحة الدروينية، والثورة النتشية على الله، والمادية الماركسية التاريخانية ما زالوا منذ قرون يصنعون جنة وهمية يفرون إليها، يسمونها فنا، ويتغالَوْن في الفن، ويعبدون الفن والفنانين، حتى ولو كان الفن خربشة ملونة وصفيرا ناشزا.

عالم «الفرتويل»، عالم الخيال الممكن أو لست أدري كيف يترجمون الكلمة، هو آخر صيحة، وآخر صرعة، وأُفُق الرأسمالية، وأمل الإنسان العائش برأس لا قلب له، وملاذه وجنته.

ثَمرات العقل المخترع

فماذا تفعل هذه المخترعات بالديمقراطية غدا؟ يحلم أنصار الإعلاميات الرقمية بعهد جديد للديمقراطية، تستعيد فيه شبابها لتشبه الديمقراطية المباشرة الأثينية الرائدة الخالدة. يشارك الكل في كل القرارات كما تتيح ذلك الاتصالات الهاتفية التي يميل ثمن كلفتها نحو الصفر نتيجة الأداء العجيب للشعيرات البصرية، وكما يتيح الكومبيوتر الشخصي المسترخَص الثمن بفعل المنافسات العملاقة.

لو وضعنا الديمقراطية في مساقها وفي منظور منطقها الأثيني المحلوم به الممكن تكنولوجيا لتصورنا كيف ينصرف «الأعلون» الديمقراطيون النخبة الصفوة الوسطاء ضحية التقدم العلومي ليدخل في الجوقة العامة و «الأكورا» السياسية كل مواطن يحسن تهجي الحروف وقراءة الأرقام ولمس الأزرار.

وتلك الديمقراطية في أجلى صورها. وتلك الديمقراطية شكلا ومضمونا. تحذف وساطة الأذكياء العقلاء الديمقراطيين لتتوسط صناعة الصور والألوان، وليصبح المرشح دمية في يد خبراء التجميل و«صنع الصورة»، ولتنتصر في ربوعنا «الدولة الفرجة» الدولة المنظر، بعد انهيار الدولة المسرح، الدولة النفاق، الدولة الشرك، وليتولى الأمر الدهماء لا العقلاء الفضلاء.

أخي العزيز محمد شفيق. ما سلكت بك في رسالتي هذه منعرجات تمر بالعقل على ساحات وساحات لألْهُوَ. لكن حاولت أن أقول معك في الديمقراطية قولا غير المبتذل من القول. وحاولت أن أرتفع إلى مستوى الباحث العاقل المتزن الذي هو أنت.

تكلمت عن التكنولوجية ثمرةِ العقل المخترع الصانع وعن تحكم منطقها الرأسمالي التجاري في أصول حياتها المتمثل في ملايين العلماء الباحثين، وآلاف المختبرات، وفي نتائج فعلها في الإنسان، وترف الإنسان، وتعويم الإنسان في ثقافة فنونية ذات أفنان تزيد الإنسان غَباءً وجنونا باللّذة العاهرة مناظرَ، الموبوءة بفروسات السيدا.

الموت بسيدا الفيروس الحسي نهاية شقية لحيوانية الإنسان، لكن الموت بالسيدا المعنوية نهاية أشقى لإنسانية الإنسان.

يعيش العاقل المخترع ذكيا في زعمه، لكنه يموت غبيا موتة غبية لأنه لم يعرف الله، ولم يؤمن بلقاء الله، ولم يستعد لحياة الآخرة.

هنا أقف عن الديمقراطية وقد طفت معك على بعض منابتها، وعلى مساقها ومنطقها. واصلاً طوافي بالعبرة التاريخية، والاعتبار من سنة الله، وبالأخلاق والصناعة الذكية، وبأثر الديمقراطية ومساقها وملابساتها ولباساتها، وموكب حضارتها، وقيم حضارتها، على الإنسان في الأرض. المستكبر من بني الإنسان والمستضعف.

الفصل الثاني

المدخل السياسي إلى القضية الأمازيغية

- ازدواجية الانتماء
- «الأبعاد الإنسانية»
- السياسة الثقافية
- الضرائر والحَكم
- الحَكَمُ والضرائر

ازدواجية الانتماء

أخي محمد شفيق! إن القلبَ والعقل لا يتسعان لأكثرَ من قضية كبرى. قلب المؤمن وغير المؤمن في ذلك سواء. لا يسكن في شِغاف القلب ولُبِّ العقل إلا هم واحدٌ يستغرق الليل والنهار ويشغل العمْر. قد تستكنُّ قضايا جانبية متعددة في ظل قضية العمر وتحت جناحها دون أن تزاحمها.

وأراك في رسالتك إليّ تخبر عن نفسك أنك «مسلم عجمي» وأن العربية لغتُك الأثيرة. الإسلام وعربية القرآن سابقان في خطابك، فالإسلام قضيةُ عمرك وعُمْرِ كل مسلم، والقرآن ولغته قضية تسبق في كلامك، وانتسابُك إلى القرآن يسبق انتسابَك إلى عجمتك ونسب أجدادك.

هذا فهمي لرسالَتك وخطابك في محاضراتك وكتاباتك، لا تفتأ تشهد بتمسُّكِك الأكيدِ بدينك. وهذا علمِي بك منذ عهد الشباب حين كنتَ تنكَبُّ على القرآن دراسة وتأملا. وهذا ما تشهد به خدمتُك للغة العربية التي أمضيت فيها زهرةَ حياتك المهنية التعليمية.

لكن دَعْني أناقِش مسألة ازدواج الانتماء بعمق، متخذا ما ورد في أعقاب رسالتك إلَيَّ مُتَّكأ، فإني أرجو أن يقرأ هذه الرسالة الحِواريّة غيرُك من الإخوان الأمازيغ وغيرهم من المسلمين، فيكونَ بذلك حوارنا خِصْباً لَه مَغْزىً يتجاوز مقاييس شخْصين قال أحدهما للآخَر فأجاب، وانطوت الصحفة، وخرِسَتْ المحاورة.

طلبتَ إلي في أعقاب رسالتك أن أقرأ بإمعان الفقرة الخاصة بالقضية الأمازيغية. وقد فعلتُ، وأعدت القراءة، وتفكرت فيما وراء الكلمات. وإني مُفضٍ إليك بما عَسَى يسبق إلى فهم قارئٍ لا يعرف عنك من الجدِّية في شؤون عقيدتك وطرائِق سلوكك ما أعرف. أمْ لعلّكَ تغيرتْ بِك صُروفُ الدهر منذ ربع قرن ونيِّفٍ؟

يهجُم على قارئ رسالتك حرصك الشديدُ الـمُلحُّ على إثباتِ إيمانك وإسلامك حِرصاً يلاحقُه - لا يفارقه - حرصُك الأشدّ على إثبات انتسابك لأجدادك وشعبِك الأمازيغي، بالمفهوم القرآني للشعب كما تكتب.

وقد يُخَيَّلُ للقارئ أن هذه الملاحقة السريعة المنقبضةَ المجادِلةَ مزاحمة في نفسك بين وَلاءيْن تخاف أن يَغْلبَ أحدهما في نفسك وعقلك الآخر. يُخيَّلُ للقارئ أن ثمتَ ازدواجية انتماء، وغيْرَةً من أحد طَرَفَيْ الولاءين أن يطغى على الآخر ويطمِسه أو يهوِّن من شأنه.

«مسلم عجمي»، ومن يلُومُ مسلما على نسَبه الطينيِّ إن كان نسبُه الديني راسخا؟ بل من يعذِر أحدا ينتسب إلى غير أهله أو يسكت عن نسبه ونسب أهله، وفي الحديث أَنْ لعنةُ الله على من انتسب إلى غير أهله؟

وتفتخر بما آزرَ أجدادُك الأمازيغُ -وأجدادي لا تنسها!- الإسلام، وبما جاهدوا في مشرقِ الأرضِ تحت أسوار القدس مع صلاح الدين الأيوبي الكُرديِّ، وتحت إمرة يوسُفَ بن تاشفين الأمازيغي الصنهاجي في مواقِع الأندلُس وملحمة الزلاقة.

نِعْمَ ما افتخرت به وأفتخر ونفتخر. كان للعرب المسلمين، بل للمسلمين العَربِ فضلُ السبْقِ وسابقة الفضل بما هاجروا مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم ونصروا، وبها خَرَجوا إلى الناسِ خيرَ أمَّةٍ يجاهدون الطاغوت حتى بلغونا رسالة الله وأخرجَ الله بهم عباده من فرس وكرد وأمازيغَ وترك وديلَم وتَتار وما شاء الله من شعوب من ظلمات الكفر والجاهلية إلى هداية الإسلام ونور الإيمان.

لكن السيوف الكردية والعزائم الأمازيغية وشجاعة الشعوب التي دخلت – كما دخل أجدادك أجدادي – في دين الله أفواجا، كانت هي قوة الإسلام وساعِدهُ و«قوتَه الضاربة».

نِعْمَ ما افتخرت وأفتخر ونفتخر! لكن افتخارنا بما فعله الأجداد إيمانا واحتسابا وغيرة على دين الله – نرجو الله أن يتقبل منهم – ينقلب علينا نحن، القابعين تحت كلكل زمان عسير، إن قلنا وهم فعلوا، وإن أخلصوا لله وتقبل منهم الله ورَدّنا نحن – نعوذ بالله – مع الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، وهم في كل وادٍ يهيمون.

نِعْمَ ما افتخرتَ إذا كانتْ قراءتُك لذات نفسك وذاتِ قضية عُمْركَ تستحضر قول الله تعالى عن الأعراب الذين قالوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

إنّهُ خِستةُ طبع أن يعْتَدَّ المرءُ بكسب غيره في شؤون الدنيا. وَهُوَ النفاق بعينه أن يمُنّ المرءُ على الله وعلى الناس بما فعله غيره.

ما إخالُك إلا تحفظ – وأنت الوَلوع كما أعهدك بروائع الشعر – أمثال قول الشاعر:

إن الفتى مـن يقول ها أنذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

(1) سورة الحجرات، 17.

وأروع من الأمثال الشعرية حديثُ الإمام الحسن اليوسيِّ رحمه الله عن النسب الطويل وفضل النسب القصير عليه في محاضراته. فارجع إليها إن شئت.

لا تأخذْ -أخي العزيز- كلمتي النفاق والخسة إلا مأخذَ المعلم الذي يلتمس لعرضِه وسائِلَ إيضاح. ما كان لي أن أتهم أحدا من المسلمين في نيته. لكنه مكتوبٌ يقرأه البادي والعادي، فأعوذ بالله أن أصير أنا وتصير أنت إلى الرموس ويقرأ الناسُ بعدنا المجاملاتِ المنافقة بما أوْدعناه في الطروس.

لا أذكر أني اتهمتُ أحدا بالعصبية إلا أن تكون عصبيتُه بَواحاً صَراحاً كما هي عصبية القوميين العرب الاشتراكيين الملحدين في الدين المتفرعنين المستكبرين في الأرض. ألتقي معَك في إنكار العصبيات التي تجافي الإسلام، وأعجَبُ من قولك أن أحد «مُريديَّ» حمل إلي بشرى إسلام ميشل عفلق، مقدمِ القومية البعثية الفاجرة!!!

كيف سبق إلى قلمك، وتطَرّق إلى ظنك مثلُ هذا الوهم! لَأنا -كنتُ ولا أزال- عديلُك في إنكار «نعيق الدعاية القومية العربية» على حد تعبيرك. ولعل انقطاع ما بيننا، وظروفَ المضايقة، وقلّة الوسائلِ، منعت من وصول كِتاباتي المتواصلة في الموضوع إليك.

إن كنتَ تأخذ على القومية العربية، وعلى النّعْراتِ العُروبية والدينية المحلية، ازدراءَها للناس، وطغيانها، وظلمها، وبخسَها أشياء الناس، فأنا آخذ عليها زيادة على ذلك استكبارها في الأرض وعتوها وإلحادها. ولعلَّ كتابي «حوار مع الفضلاء الديمقراطيين» في متناوَل يدك، فتصفّحْهُ لتجد كلمتي عن القومية العربية البعثية الصدامية التي أجافيها وأعاديها لفسوقها وكفرها.

نَعَمْ! القومية العربية – من طراز البعثية الصدامية العراقية والنصيرية الكافرة في سوريا – قد «جَدَّدت جاهليتها» كما عبرتَ.

ترتبطُ في اعتبارِ المسْلِمِ الحيثياتُ السياسيّةُ بالحيثياتِ الإيمانية في الحكم على القومية العربية الملحدة. فإن كانت قضيةُ عمْرِي، ووَلاءُ عقلي وقلبي، خالصين لله عز وجل وحده لا شَريك له، فنفاقُ صدام وأشباه صدام هو ما يكرِّهُه إلَيَّ أوَّلَ شيء، قبل ازدرائه لقومياتٍ ولُغاتٍ وأنسابٍ. ظلمه وسفكه لدماء المسلمين هو ما يكرهه إلي ويبَغِّضُه قبل نعْرةٍ عروبية قومية أو محلية، قد أتغاضى عنها إن صدرت من مسلِمٍ يحقد عليَّ، فأزدريه في نفسي كما يزدريني انتصاراً على ظلم بظلم مثله، أو أصبِرُ وأعرض عن الجاهلين تجَمُّلاً وتديُّناً.

تقدمتُ إليك في أوائِل رسالتي إليك بكلمة عن الرسالة النِّخاسِيَّة التي بعثَ بها هشام بن عبد الملك إلى عامله بإفريقية ليصْطفي له من بنات أمازيغ الناعمات بما وصَفَ من شياتٍ كما توصف الجياد للسمسار.

ما فعله في الإسلام الطلقاءُ وأبناءُ الطلقاء، خَرْمٌ في الإسلام أشرتَ إليه إشارة. وهي كارثة في تاريخ المسلمين لا تفيدُ في تجريم فاعليها ألْفُ ألْفِ عبارة وعبارة.

«الأبعاد الإنسانية»

كتب الأستاذ محمد شفيق في بعض ما كتب: «يجب الكفّ عن الرجوع إلى مقاييس المجموعة العرقية التي ننتمي إليها ونعانق أبعادا إنسانية أوسع وأشمل».

وتبرز المطالبُ الأمازيغية معبرة عن مشاريعَ إنسانية متفتحة ذات آفاق بعيدة كما قرأنا لشفيق، أو ذات مطامحَ محلية محصورة، طابَعها «إثبات الذات» على صعيد ما من الأصعدة العالمية أو المحلية، وهاجسها «تحقيق الانتماء» وتمييزه، ولازمتُها «تقرير المصير الثقافي» للشعب المغربي الأمازيغي.

يحلم شفيق – حسب تعبيره – أن يتعلم كل المغاربة ثلاث لغات، إحداها تصِله بجذوره التاريخية الأمازيغية، والعربية لغةُ دينهِ الإسلامِ، وثالثة ينفتح بها على آفاقٍ عالمية إنسانية.

نبدأ بـ «الأبعاد الإنسانية» التي لا يحب محمد شفيق أن يعترضَها وينقَلِب بها القهقَرَى «الرجوع إلى المجموعة العرقية». ونسأل هذه الأطروحةَ الواسعةَ الأفق كيف يكون «اعتناق» الأبعاد الإنسانية، وما هي الأبعاد الإنسانية الأوسع والأشمل، وما هي رسالة الثقافة الأمازيغية واللغةِ الأمازيغية إلى الإنسانية.

إنه سُمُوٌّ في الفكر، ونضْجٌ في العاطفة، وطرحٌ للسافِلِ من بواعث الإنسان وحوافزه في الحياة أن نُجافيَ العصبية العرقية. فهذا تعريف للمشروعِ الشفيقي بالسلب. وهو شيء جميل.

ونصل إلى الإيجابية الإنسانية الواسعة الشاملة لنتساءل عن «العناق» -الثقافيِّ لا شكّ- لما عند الإنسانية من كُلّ قيمة شريفة ترفعنا من حضيض العصبية العرقية التي تقعُد بنا – إن اتخذناها مرجعية ووَتَداً – عن التحليق في الأجواءِ العليا للفكر والفضَائل.

إنَّ مِمَّا تُقَيِّمُهُ الثقافة العالمية، وتمنحُ عليه جوائز نوبلٍ في الأدب العالمية، وجوائزَ الكنكور الفرنسية وأمثالُهما أن يساهم المثقَّفُ الكاتبُ

والشاعِرُ بنُكْهة محلية، ولونٍ محلِّيٍّ، وخصوصيةِ بلدٍ، ومِيزَةَ ذَوْقٍ قَومي، في التعبير عن خلَجاتِ العاطفة الإنسانية المشترَكَة بين بني الإنسان، وفي تصوير ما يَجِيشُ في الخواطر، وما يطيرُ بالأحلام، وما يُعَكِّر صفْوها، وينَغِّص العيش بآلامها، ويشكو حنينها إلى حُرِّية، وتأوُّهها من ظلم، ولذَّتَها أيضاً ومذاقَ «الحب» والعشق والجمال.

تكون هذه المساهمةُ الأخيرة سَدَى الرواية والقصيدة الشعرية، ويكون «الديكور» الفلكلوري، وبراعةُ السَّبْك، وتنميقُ العبارة، وحبْكُ القصة أو إرسالُها طليقةً بوهيمية هي الفنُّ وهيَ الإبداع.

سؤالي على «الأبعاد الإنسانية» هو: أئذا نبغ فينا مبدعٌ أمازيغيٌّ، وشاعر شلحيٌّ، وفنانٌ ريفي، فنالوا جوائز عالمية، وضربت على رؤوسِهم طبول الإعلامِ العالمي معلنةً للإنسان أنَّ فلانا وفلانا تُوِّجا بجائزةِ التفوّق الإبداعي، نكون قد «عانقنا» الأبعاد الإنسانية؟

أطرح هذا السؤال لأن الطابع الثقافي اللغوي الشعري الإبداعي هو أهمُّ ما يميّز المطالب الأمازيغية. لو أن همة الأذكياء النابغين من بني مازغ ويَعْرب سَمَتْ إلى نيل جائزات نوبل في العلوم والاختراع والتكنولوجيا والطب والبحث العلومي لكان الأذكياء النبغاء من مازغ ويَعْرُب مجاهدين الجهاد الكبير لإعزاز أمتهم، نالوا جوائز نوبل أو استحقوها وحَرمَهم منها استئثار الغرب بكل مكرمة، حسَدا عنصريا.

أمْ أن المثقّفَ الفاضل، والأخ العزيز شفيقاً يقصد بالمعانقة للواسع الشامل الإنساني تصدي النبغاءِ الأذكياءِ عباقرةِ الفكر من بني مازغٍ للمعضلة التاريخية التي تتخبط فيها أمتهم المسلمة، ويُعاني منها شعبهم الأمازيغي وشعبُهم المغربي فيُوَظّفُوا لفكِّهَا وصَرْفِ علائقِها وبوائقِها

الذكاء الأمازيغي المشهود به، وحِذْقَ الـمُدَبِّرِ الأمازيغي للاقتصاد، وحُنْكة المدبر الأمازيغي لعجلة الدولة، ودماغ الباحثِ الأمازيغي في مختبره، ودراية الطبيب الأمازيغي، والفلاح الأمازيغي، والمخترع الأمازيغي، والأستاذ الأمازيغي، وأب الأسرة الأمازيغي وأمها؟

معْضلةُ هذه الأمة -على صعيد معاشها ومطلَبِ شرفها بين الأمم- هي التخلفُ وما يسيرُ في ركابِه البَشِع من كرُوبٍ وويلات. معضلةٌ تتقدَّمُ ببعضنا وترتَدُّ. معضلةٌ لها مِثلَ بعض التِّنِّينات رأسان وبابان وقُفلان: إن قطعتَ رأسا، وظفِرتَ بمفتاح بابٍ وقُفلٍ، هدَّدك الرأس الآخر، وأغلق عليك القفلُ الآخرُ بابَ المستقبل.

المعضِلة المتقدمة المترددة هي: هل نتجنَّدُ ونناضِلُ، نحن المغاربَةَ، للدخول قصدا وعَمْداً وشدّاً ومدّاً في عالم الحداثة وحداثة العالَم؟ وإذاً فلا مكانَ للتَّلَكُّؤِ في خصوصياتنا اللغوية العرقية، ولا مكان ولا معنى لجَرِّ الموروثِ من ديننا كما يجُرّ الأسير قيودَه وأغلاله؟

أم أنَّ اللحاقَ بالركب الإنسانيِّ الحضاري، والخروجَ من دائرة الشعوب المتخلفَة ماديا وصناعيا وحضاريا يمكن أن يتحقق مع احتفاظنا بهُويتنا، وشخصيتنا، وشرَفِ تاريخ أمتنا، ومقوماتِ ذاتنا؟

مهما سلَكْنا فَجّاً من الفَجَّيْنِ فالمرجعية العرقية تزيدُ في طيننا بِلّة وفي قلوبنا وعقولنا عِلَّةً. وأنا أتفق مع الطرح الشفيقي السالِب.

وأتفق معه إن كان عناق الواسِع الشامل الإنساني يَنْحو إلى اكتسابِ حريَّة حكم، وعدالَةِ حكم، و«ديمقراطية» حكم، وينحو إلى الانفتاح الشجاعِ على مكتسبات العقل البشري في ميادين التنظيم الإداري، وتوطين العلوم والتكنولوجيا، وينحو

إلى توحيد جهود الأمة وكسر أغلالها، وخرق الحُدُود القطرية القَفَصيةِ التي قَزَّمَت الأمة وشلَّتْها وأوهنتها.

أتفق مع هذا العناقِ الذي يُتيحُ للأمة - ولأبناء الأمة الأمازيغ - أن نَشتَار العسَلَ من الخليَّة الإنسانية كما تعانق النحلة الزهرة الـمُرَّة فتصنع من رحيقها شراباً طهورا.

وهنا لا يزال ازدواج الانتماء، وثقافيَّة المطلَب الأمازيغي، وانكباب الإخوة الأمازيغيين على التُّراثِ الأمازيغي والتاريخ الأمازيغي الضارِب في أعماقِ الماضي، مشاغِلَ جانبية بالقياس إلى ما يجب على الأمة وأبناءِ الأمة من توجيه كل جهودها، وكل طاقاتها، وكل إمكانياتها المادية والبشرية لخوض معركة البقاء في عالَم تندثر فيه الكيانات المبعثرة، وتُعْزَل فيه الشعوب الضعيفة المفَتَّتَة في هوامش الفُلكلور الثقافي، الإبداعي الشعري الروائي الـمُسَاهِم في النادي الإنساني بنُكهة طعْمٍ، ومذاقِ مَزْجَةٍ، ولَوْنِ إحساس، وصُورَةِ مَشْهَدٍ.

أسْئلتنا الإسلاميّة على شروط «العناق»، ومضمونِ اللقاء، وغنيمةِ الإقبالِ، وجائزةِ الوِفادة على النادي الإنساني هو: من نحنُ في الإنسانية، وما رسالتنا إلى الإنسان، وما وظيفتنا في هذه الدنيا نحن الأمةَ الإسلامية بشعوبها العربية والفارسية والتركية والهندية والأمازيغية والصينية وسائِر شعوب الإسلام؟

كتب إليَّ الأستاذُ الأخ محمد شفيق أن المغْرورَ هو الذي يَحسب أنه وحدَه يدافع عن الإسلام. أتفق، ثم أتفق. فالقضية المصيرية، والمعضلة المتقدمة المرْتَدَّة المترددة، ما كان لَها أن تستغني عن جُهْدِ أحد من أبنائها، فأحرى عن جهود شعْبٍ قَوِيٍّ ذكِيٍّ حيٍّ من شعوب الأمة كالشعب الأمازيغي.

وما أكتبُ هذه السطور في رسالتي الحوارية هذه إلاَّ لنحدّدَ المفاهيم، ونصْقُل مدلولات اللغة، ونبسُط خلفيَّات العبارات. لا يقف قِطارُ الإسلام في مَحَطَّاتٍ لا رَقيبَ عليها، ولا يقبلُ صاحبُ القطارِ أن يُوقت له راكبٌ وركابٌ مواعيدَ انطلاقه، ولا يأتَمِنُ صاحبُ القطارِ على قطاره أياديَ لا تلتزم «بدفتَرِ تحملات».

أستغفر الله. فالقطارُ الإسلامي ما هو مِلك لزيد وعمرو من المسلمين، وما هو حكر على شعب دون شعب من المسلمين. لكن لَه عَقْدٌ وعَهْدٌ، لا يؤتَمَنُ على وِجهته إلا من يُوفي بشروط العقد، ويوفِي بحُرُمات العهد. العقدُ الكتاب والسنة، والعهد الاستجابة لله ورسوله.

السياسة الثقافية

وضعت في الفقرة السابقة كلمة «ديمقراطية» بين هلالين، إشارة متحفظة إلى البيْنونة الجوهرية بين نظام الحكم الإسلامي الذي يتدين به المسلمون وهو الشورى، وبين النظام الديمقراطي. تحفظت بالهلالين لأن في حواري مع الأستاذ محمد شفيق اتُّهِمْتُ بأنني أسخر من الديمقراطية في كتاب «حوار مع الفضلاء الديمقراطيين». ما هو وحدَه اتهمني بالتحامل على الديمقراطية والتنقيص منها. أُتِينَا جميعاً من سوءِ تفاهُمٍ سببُه قلة التدقيق فيما تدل عليه الألفاظ. الديمقراطية كلمة سحريةٌ في أُذْنِ المثقف المحروم من الديمقراطية: يُخَيِّلُ للطير المحبوس في صندوق الشر -الاستبداد- أن الديمقراطية هي الفضاءُ المفتوح، ومجال الأجنحة المكتَّفَة، ودنيا الحرية. يخيِّلُ له حرمانه وقلة

تدقيق المفاهيم والمضامين أنّ الديمقراطية هي الخير والنور، وهي الـمَخْرجُ الوحيدُ، والـمُخْرِجُ من صندوق الشر المظلم.

وقد وقفت طويلا في كتاب «الشورى والديمقراطية» عند المفاهيم الأساسية والمضامين للشورى وللديمقراطية، ما افترقَ منها وما ائتلف، يقرأه الأستاذ والفضلاء الديمقراطيّون إن شاء الله يومَ يُفْرَج عن طَيْرِه.

يغوصُ الأستاذ محمد شفيق في البعيد العميق من تاريخ الأمازيغ وتراثهم، وينفتح على آفاق إنسانيةٍ كلمتُها اليوْمَ الساحرة: الديمقراطية.

ويكتب حاملُ قَلَمِ أمازيغيٌّ مغربيٌّ شوقه إلى الديمقراطية، واهتِبالَهُ بها، وانتظارُه النصفَةَ للأمازيغ منها، يقول: «يجب تعديل الدستور المغربي ليُدرَج في ديباجته: المغرب دولة أمازيغية عربية لغتها الرسمية العربية، والأمازيغية لغة وطنية ثانية».

مسافة شفيق شاسعة: من أعماق التاريخ إلى انفتاح على آفاق إنسانية لا حدود لها. وصاحبنا مُعَدِّلُ الدستور ينظر من قريب إلى قريب، من ضَيِّقٍ إلى أضْيَقَ.

وها هما صنفان من المناضلين الأمازيغيين، أحدهُما قدَمه راسخة وكلمتُه ومؤلفاتُه مرجِعٌ لدى كافة المهتمين بالأمازيغية، والآخر مطلبه سياسي ناجز. إن كان كلاهما يُشيد بفضائل الديمقراطية، فسياسة الثقافة عند الباحث الغواص في العمق التاريخي والفِلُولوجي اللساني لا تلتقي مع ثقافة السياسة السطحية عند الآخر. فإن التقتا على صعيدِ محاضرةٍ هنا، ومقالِ مجلةٍ هناك، وحضورِ عرضٍ وحفْلَة تكريم، فالمذهَبُ غيرُ المذهب.

قَدْ لا تكونُ الثقافة السياسية الأمازيغية السطحية الآنية المناجزة المطالِبةُ إلا معارضة لثقافة مستعلية - بل لنخبة مثقفة مستعلية - على «اللهجات» الشفوية الدونية. قد لا تكون إلا ردَّة فِعْلٍ منكمشَةً على نفسها لمثقَّفٍ يكتشِف بعد جولاتٍ خارجَ ذاته أن له ذاتاً خالصة تميزه وتعطيه مكانا تحت الشمس، وكرامةَ سُمعة في المجتمع.

قد يكون واحِداً من الذين أرهقهم ظلامُ قفص الشر زماناً فنشِطوا وسَرّحوا الجناح في فضاء تنسموا فيه عبير الحرية والأصالة ممتزجين. قد يكون نكرةً لا تتَعَرَّف إلى نفسها، ولا تتعرف إلى الناس، إلا بالإِدْلاَءِ المتألِّم، والإلحاحِ الصادعِ بهُوَيَّةٍ أهينتْ وتجُوهلَتْ، فما مِن تعويضٍ عن ماضي الدياجي إلا الاعتراف الدستوري تحت شمس الديمقراطية.

ينتحِب قَلْبُ المظلوم في هوَيته وأصالته الثقافيتين، ويُغْمَى على عقله، ويحتج صوتُه في محكمة الديمقراطية. الآنَ، وفي الدستور، تُدْفَعُ دِيّة القتيل المنْبَعث، ويُؤَدَّى أرْشُ الجريحِ المتماثِلِ للصحة.

وقد لا يكون المثقف الأمازيغي القانِعُ بأن تكون لغتُه القومية العريقةُ في القِدَم، الشابَّةُ بآدابها وأهازيجِها ومناضليها النشطاءِ، إلا مُستبْدِلاً غُصن شجَرةٍ بغصن. قد لا يكون إلا رجلاً، أو امرأةً، علاَ شجَرَةَ اللاَّييكية الثورية اليسارية حتى تقصفت أغصانُها، فتراءت له شجرةُ أصالتِه وهُوَيتِه على ضوء الديمقراطية ودستور الديمقراطية، فهو هابط صاعد.

قد لا يكون إلا مستبدِلاً بالسراج اليساريِّ الفانوسَ السحريَّ الديمقراطي بعد أن انخسفت أقمارُ الحزب الوحيد وانطمست، وبعد أن لاحَ في الأفق السياسيِّ فَجْرُ ديمقراطية يرجو مع الراجين أن تَسطَع شمسُها في ضُحَى دستورٍ يعطي المرتبة الأولى للقوم «المغرب دولة أمازيغية»، ولا يبْخسُ لُغة القوم حقها بين

الحقـوق، فيُنزلُهـا بعـد اللغة العربيـة مكانتهـا المشرِّفـة: «والأمازيغية لغـة وطنية ثانيـة».

يلتقي الباحث الأكاديمي السابح في العمق التاريخي لشعب الأمازيغ مع المثقف السياسي في الاهتمام المعرِفي بتاريخ الشعب، وفي العاطفة الجيّاشة التي يُقوِّي تبادُل مشاعِرِها الانتماء. ثم يفترقان بُعْدَ نظرٍ، ومطمَحَ مستقبل.

ما هناك ثقافةٌ ثقافيةٌ محضة بريئة، ولا هنالك سياسَة ثقافية باحثةٌ لا تحتضن اليومَ أو غدا، في هذا الجيلِ المؤسس أو بَعْدَهُ، الآمال السياسية. ما ثَمَّ حُرٌّ لا يُعطِي كل ولائه للحق الذي يؤمن به. وظننا بالأمازيغيين أنهم أحرار مخلصون لمبادئهم التي يؤمنون بأنها حقٌّ لا باطل، وبأنها حقٌّ من حقوق المواطِن في بلدٍ ديمقراطي وفي دولة الحق والقانون. فالباحثُ الوسيعُ الأفقِ كالمثقف السياسي يقيمون الأفراح لَو نص الدستور سيدُ القوانين وأبوها على أن المغرب دولة أمازيغية ثم عربية، وعلى أن لغته الرسمية العربية ثم الأمازيغية.

أحرار مخلصون لمبادئهم هم الأمازيغ. أوَليس الاسم «الأمازيغ» يعني «الحر» في لغة الأطلس الكبير والصغير والمتوسط. ولستُ أدري كيف يقولون في الريف وبني يزناسن وبني وراين.

أحرارٌ هُمْ، ويعطون أنفُسهم بلا تحفظٍ لما يؤمنون بأنّه الحق. أحرارٌ هم وأوْعيَةٌ بَشَريةٌ صالحةٌ لاحتضان المبادئ الكبرى. ما خفض أجدادُهم الفُرسان جناح الذل لغَازٍ ومغزُوٍّ، ولن يخفِضَ الأحفادُ من رهبة وتخويف. إنما ينصاعون للحق بالإقناع والحجة البينة.

قاوم الأجداد الفرسانُ الإسلامَ عقودا من الزمن. لأنهم كانوا يدافعون عن كيان وهُوَيَّة وأصالة ولُغَةٍ ونمَط عيش ونخْوةٍ واعتزازٍ،

هي كانت في نظرهم واقتناعهم الحق الذي لا يشوبه باطل، والحق الذي لا تسمح أمازيغيتُهم الشجاعة بهضمه وإذلاله.

فلما انبلج صُبح الإسلام في عقولهم، وأشرقتْ بشاشة الإيمان بالله ورسوله في قلوبهم، عانقوا العقيدةَ الإسلاميَّةَ، ودافعوا عنها، ودفَعوا بها. لما انجلَى عن قلوبهم وعقولهم ظلامُ الجاهلية وتبدَّدَ كانتْ أعلامُهم الرمزيةُ راياتِ الإسلام، وكانت رموزُهم الحية أعلاما من الرجال مثلِ طارقٍ بنِ زيادٍ ويوسفَ بنِ تاشفينَ ومحمد بن تومَرت. كانت لهم، بعد أن أسلموا وتعبّأوا للجهاد، ثقة لا تتململ بهذا الدين، ومِقَةٌ ومحبة لمن أوصَلَ إليهم هذا الدين.

ما أَنِفوا أن يحكمَهم إدريسُ، بل هم سوَّدوهُ. ما دانوا لهُ لفضْل شجاعة ونخوة، بل لشرفِ محْتِدٍ، لنسب نبوي، وفضل علم بالدين.

وها هُوَ الغَبَش في الدين، والعَماء عن الدين، والزندقة في الدين، والجهلُ بالدين، يجرف طوفانُه الوَلاءَ للدين من القلوب، ويَغُمُّ طَمْيُهُ بأوحال الشك والريبة العقول.

وها هو كسيلَةُ الفارسُ الجاهلي الذي حارب المسلمين عن حق كان به مقتنعا يصبح هو الرايةَ والرمزَ لا طارقٌ الفاتح، وتُصبح الأمازيغية السياسية هي الكلمةَ لا الإسلام. ويُسمي الأمازيغي «المسلم» ابنه «كسيلة»، وابنته «الكاهنة».

الضرائر والحكم

تُرَى، رجل مسلم وامرأة مسلمة يعلمان أن رسالة ربهما إلَيْهما وإلى الثقلين نزلت باللغة العربية، هل يُقصِّران في تعلُّم لغة الكتاب المنزل؟ تُرَى، مسلم ومسلمة يعلمان أن صلاتهما لا تصح إلا بقراءة آيات من

كتاب الله، وأن تلاوة القرآنِ عبادة، وأن تدبُّرَه وفهمه عبادة، وأن كل حَرْفٍ يتلوانه بخشوع وتدبر وفهم بعشر حسنات، وأن الحسنةَ الواحدةَ الخالدَ ثوابُها ونورها في الدارِ الآخرةِ خير من الدنيا وما فيها، هل يكونُ شيءٌ في الدنيا أسبَق عنده وعندها من تعلم لغة القرآن ليتلُوَ وتتلُوَ، وليتدبّرَ وتَتَدبَّرَ، وليفهمَ وتفهمَ؟

تُرى، مؤمن ومؤمنة يسمعان إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادقِ المصدوقِ بأن مناديا ينادي يومَ القيامة قُرَّاءَ القرآن وحُفّاظه قائلا: اقرأْ وارقَ، أفيحبسه حابسٌ عن تعلُّم القرآن وحفظه وتلاوته ليحظى بالمكانة العليا عند الله؟

تُرى، هل تقوم للمسلمين قائمةٌ إن لم يكن الكتابُ المنَزّلُ عندهم محفوظا مدروسا مفهوما بنصِّهِ المنزَّلِ العربيِّ الـمُبينِ، معمولاً به لأن الناس مسلمون، معمولاً به على صوابٍ لأنه مفهوم على وَجْهِ دلالات اللغة العربية، على صوابٍ لأن المجتهدين الفقهاء العلماء أتقنوا اللغة العربية نحوا وبلاغة ولفظا ومعنى؟

تُرى، هل تكون تربيةُ أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية إن لم تُلَقَّحْ فِطرتُهم بلقاح معاني القرآن، ولم يهذّبْ لسانُهم بلفظ القرآنِ العربيِّ المبين منذ نعومة الأظفار وطراوة الاستعداد؟

تُرى، هل يتسعُ وقتُ المسلم الناشئِ والمسلمة، ووقت المجتهدِ العالمِ الفقيه، لتعلّمِ القرآنِ، وإتقان لغةِ الكتاب المنزَّل، إن دفعنا لغة منافسة للغةالقرآن في بيْتِ التعليم والتربية، وأقحمناها في وقت المعلم والمتعلم، وزاحَمْنا لغة القرآن بلغة ضرة، ولغاتٍ ضراتٍ، كلٌّ مِنها تنافِس وتقاتل على الفوز بالحظوة في النفوس، والمكانةِ الأولى في

تفكير العقول، والتأثيرِ الأبلغ في صبْغ الأخلاق، وتوجيه السلوك، وطَبْعِ حياة الأفراد والمجتَمع بطابعها؟

كان البربرُ الأمازيغُ، ولا يزالون وهم العجَمُ، يُسْلِمون أنجَبَ أولادهم لفقيه المسجد وحافظ القرية ليتعلم القرآن. كان «الطالب» حافظُ القرآن، مُتْقِن اللفْظ وإن كان المعنى بعيدا عنه لجهله بالعربية، يَحْظى بمكانة خاصة في المجتمع البربري، وباحترام. وتسمح ظروفُ الأسرة وقابليات الولَدِ - والبنتِ أيضا في بعض الجهاتِ - فيُبْعثُ الشاب «الطالب» الحافظُ لفظ القرآن إلى مدرسة القبيلة، ويَحضنُ «الطالبة» الفقيهاتُ في بلدتها، والفقهاءُ من أقاربها. ليتعلم «الطالب» «العلم» بلغة العلم وهي العربية لغة القرآن.

ويومُ الفخر والعزِّ هو ذلك اليومُ الذي يَنبَغُ فيه عالم وعالمة في بَني فلان، وقبيلة علان. ويُزَفُّ الفقيه العالم إلى مدرسةٍ من المدارس المحلية أو النائية. تتنافس القبائلُ أيها يأويه بحفاوة وتعظيم وتقدير. ويكون هو المرجعَ في الفُتْيا، وهو الحَكَمَ في الخصومات، وهو المستشار في المعضلات. ويكونُ علمه باللغة العربية لغةِ القرآنِ هو المفتاحَ الذي شَرَعَ أمامَهُ أبوابَ الرُّقِيِّ الاجتماعي في الدنيا، ويكون علمه وتقواه وممارسته لكتاب الله لفظا عربيا ومعانيَ مقدّسة وعبادةً خاشعة هي مفاتيح فوزه في الآخرة، وفوزِ من وعظهم فاتعظوا، ومن نصحهم فانتصحوا، ومن أفتاهم بشريعة الله فلَزِموا حدود الله.

كان المجتمع البربري الأمازيغي يعظم العلـمَ والعلماءَ، والفقيه والفقهاء، والقرآن وحامِلِي كتاب الله، لأن العلم والفقه والقرآن كانت القيمة العليا لَدَى قَوْمٍ قضيةُ حياتِهم، وهمُّ أوقاتِهم، ومطمَحُ آمالِهم، مصيرهم الأخروي. ولا علم ولا فقه ولا قرآن إلا بعربية،

ولغةِ عربية، وحَرْفِ عربية، ولَفْظ عربية، ونحو عربيّةٍ، وبلاغة عربية، ومدارس عربية، ومُدَرِّسي عربية.

كان تديُّن المسلمين العجَم، وحِرص المسلمين العجَم على إسلامهم، وحاجة المسلمن العجَم إلى عالَم يفتي، وقاضٍ يحكم، وفقيهٍ يعظ، و«طالب» مبارَكٍ يعلم القرآنَ ويؤُمُّ المصلين، هو ما أعطى القيمة والحُظوةَ للغة العربية وعلومها.

فلما رَقَّ دينُ بعضِ المسلمين العجَمِ -وبعضِ العربِ قبلَهم- وحل الحرص على الدنيا وقِيمها محل الحرصِ عل الآخرة وحسناتها وجنَّتها، واحتكَمَ رقيقُو الدين إلى شرعٍ غيرِ شرعِ الله، وانتصب «للاجتهاد» كل لَسِنٍ من بني مازغ ويَعْرُب، وهجر بعض الناسِ من عجم وعربٍ المساجد، وأصْغَوا إلى الأهازيج والأغاني وهُجْرِ الكلام ولم ينصتوا لخطيب الجمعة وواعظ المسجد، انقلبت الموازين، واعتكست القِيَمُ، وعكف المثقف السياسي الأمازيغي والسياسي المثقف الشلحي على لغة الأجداد، على لغات الأجداد، على لهجات الأجداد.

ضرَّةٌ وضرائرُ أَقْحِمتْ في بيتِ دين المسلمين العجَم. ونكَصَتْ الشياطينُ اللغوية على أعقابها من حضرة اللغة السيِّدَةِ لُغة القرآن، كما يَنكُص على عقِبيْه شيطان الجن عن سماع أذان الصلاة.

اصطدمت في ذهن بعض أبناء العجم والعرب وبناتهم ثقافَةٌ واردةٌ جاهليةُ المصدر جاءنا بها الاستعمار الاستحمار بثقافتنا العربية القرآنية، فزحْزَحَ الأقوى وسائِلَ ونفوذا سيطريا الأضعفَ. زحْزَحَتِ الثقافة الفرنسية العالمية لغة القرآن عن مكان الصدارَة، وتغلغلت في النفوس والعقولِ قيمُها ورموزها. حتى إذا تمكنَت الثقافةُ وانسحب المثّقفُ المستحمرُ حمل رايةَ التمرد على العربية وقرآنها وعلوها بعضُ

أبناءِ العرب وبناتِهم، ثُمَّ نَفَرَ لمساعدتهم في حربهم المقدسة ضد العربية بعض أبناء العجم وبناتهم.

مسجِدُ ضِرارٍ وكُفر هو معبد الإلحادِ العربيِّ اللسان والعجميِّ. وضرَّةٌ هي اللغةُ الغازيةُ. لَمْ ترض اللغة الغازِية بالحُظوة عند بعض أبناء المسلمين وبناتهم مِمّن ارتموا في أحضانِها ارتماءَ الهيْمان على الماء الزُّلال، فاستنفَرَتْ لنجدتِها ضرائرَ محلية لتكون شبكتها لاصطياد النفوس والعقول أوسع، وليحصُلَ في شباكِها آخِرَ العملية الإغرائية المحلية صيدٌ أوفَر وأكثر.

يكتب الأستاذ محمد شفيق صديق العربية ودارِسُ المصحف أن الأمازيغية كما يتصورُ ثقافتها وسياسة ثقافتها لا يريدها ضرَّة للغة القرآن. هو تَعلّم العربية وعلَّمَها بجُهد وشَغَفٍ، ففتحت له الفهم في كتاب الله، وهدى التأمُّلُ في كتاب الله إلى الإيمان بالله. مسلم لا نشك في إسلامه.

لكن ما بالُ اللغةِ الأمازيغية يُراد لها أن تُرَسَّم في الدستور لغة وطنية ثانية؟ ما بالُ الثقافة الأمازيغية تغارُ من العربية وتنازعُها على أوقات الإعلام الرسمي في الإذاعة والتلفزيون؟ أي إعلام؟ وأي تلفزيون؟

لو كانت اللغة الأمازيغية تُسَاهم في إنكار المنكَر في وسائل الإعلام، وتقَوّم المعوج، وتغضب على الفسوق والفجور المسموع المرئي، وتعلم الدين والفضيلة، لشفعت لها نيتها. لكن هذه الثقافةَ الأصيلةَ في المغرب العريقةَ الآباء والأجداد لا تقل ميوعةً من لغة الفجُور والفسوق العربية في إذاعتنا وتلفزيوننا.

هذه الثقافة المائعة المميعة ضرَّةٌ للغة القرآن الحاملةِ رِسالةَ القرآن. سواءٌ هي الأمازيغية الهازجة الراقصة واللغة العربية اللفظ الماجنةُ

المحمولِ في الضِّرار. ما هما إلا خادمتان للسُّدَّةِ العليةِ لُغَة الأسياد المثقفين المستحمرين.

من مكر اللغة الأجنبية الدخيلة فينا، القويَّة الغنيةِ الجميلة بجمال محمولِها العلومي التكنولوجي، أنّها تُفَسِّخُ اللغة العربية وتستعين على تفسيخها وتعجيزها وشلها بالضرائر المحلية. حتى إذا خُنِقت اللغة العربية، وأدت الخادمات الضراتُ وظيفتهن، وبان عجز العربية عن إقامة شؤون الدنيا وترسيخ قدم حضارة عربية مسلمة في الدنيا لجأ المسلمون عربا وعجما وتُركا وفُرساً إلى اللغة السيدة لغة المستقبل.

إنه غزوٌ منظّم يستهدف إقصاء العربية وشلها عن أداء وظيفتها الأخروية والدنيوية معا. في رِكابٍ واحدٍ الإلحاد في الدين والقزامةُ في الدنيا.

الحَكَمُ والضرائر

لا مناص لأمة تريد البقاء في هذه الأرض حية قويّةً من تبنِّي لغة حية قوية تحمِل المكاسِب العلومية التكنولوجية التي تجمعت – تراكمت كما يعبر المستعربون – بالجهود الإنسانية وعبقريات العقول الإنسانية وحصائل التجارب الإنسانية، لا مناص لها من تبني لغةٍ أجْنبية في انتظار تطوير لغتها لتُوعيَها علوم العصر وتُوطنها بها.

ولا وحدة لأمة الإسلام – والوحدةُ القوة في عصر الكيانات الكبيرة – إلا بوحدة دينها دين التوحيد، دين لا إله إلا الله محمد رسول الله. أهم روابِطِ الإسلام على الإطلاق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مفتاحهما الوحيد اللغة العربية. اللسان العربيُّ المبين. لغة شرفها الله

واصطفاها وجعلها وِعاءً لكلامه المقدس، وأداة تعبير وتبليغٍ للرسالةِ الخالدة التي تخبر الإنسان عن معنى وجوده في هذه الأرض، وعن مصيره بعد أن يُدَسَّ بعد الموت في هذه الأرض.

يتعلم العربيُّ آياتِ الله بلسانه السليقِيِّ الفصيح، أو تَتَفَصَّحُ لهجتُه الدارجة. ويتعلم العجمي من اللسان العربي ومن آيات الله ما يقيم به صلاته، وما يتلو به كتاب ربه. ويتقن اللسان العربيّ المجتهدُ المفتِي.

ذلِكَ أيامَ كانت العربية اللغة الوحيدةَ لأمة قوية في الدنيا، لغةً قويّة موحِّدَةً على مستوى العقيدة والشريعة، ناهضَةً بأعباءِ المعاشات الدنيوية وما يَلزَمها من علوم الإنسان وعبقريات الأجيال البشرية. أوعَتْ تلكَ العلومَ والتجاربَ في حَوْصلتِها الواسعة، ترجمت وطورت وأثْرَتْ وأغنت.

حتى إذا تقهقر المسلمون وضعُفوا، ضعُفَت لغتُهم عن استيعاب علوم الدنيا، وداخلتها في وَلاء أبنائها من عرب وعجم، أمازيغَ وتُرْكٍ وفُرْسٍ وغيرهم، ضَرّاتٌ من بنات أوربا. وها هي اللغةُ العربية جيَّشت عليها غريماتُها الأجنبيات، غريمتُها الفرنسية العصرية التقنية الحية بحياة الدنيا فيما يخص المغرب، لهجات محلية ليَتألَّبْن معها على اللغةِ العاجزةِ في الدنيا، المتخلفةِ القاصرة عن مسايَرةِ الموكب العلومي التكنولوجي العالمي.

تجييشٌ وتَألُّبٌ يفُتُّ في عَضُدِ الحسناءِ العربيةِ ويبعثِر وسائِل قوتها وزينتها، ويضطَرُّها لتحطَّ الرحالَ مُفْلِسَة منهوكة القوى على عتبات اللغةِ الحَكمِ.

ما هانت العربية ولا قَصَّرَتْ وما استطاع أن يتألب عليها من يتألَّبُ لولا انحِسارُ إيمان المسلمينَ بها. وما انحسر إيمانهم بها إلاَّ لِرِقَّةِ

دين بعض أبنائها وبناتِها ولِردة بعض أبنائها وبناتها المغَرَّبينَ الذين يُخرِّبون دينَ المسلمين فيُوهنون إيمان المسلمين بلغة قرآنهم.

لولا الوَهن في الدين ما هانت الحسناء العربية وما طَمِعَ طامع أن يُلْجِئَها إلى حط الرحال عند عتبات الهَبال. ها هم اليهود، وهم حَفنةٌ من الناس، اضطهدَتْ لغتَهم العبرِيَّةَ لغات الأمم قرونا طويلة، فلما بعثت فيهم العقيدة الصهيونية منذ قرن من الزمان الأمَلَ في حياة جديدة تلزمها لغةٌ قومية متجددة، خدم اليهود لغتهم، وطوروها، وألحقُوها باللغات الحية.

آمنوا بمسْتقبل يهودي فآمنوا بمقومات حضور في العالم يهودي، وبمقوّم المقومات: اللغة.

والعرب المسلمون -الأمناءُ مَعَ العجَم المسلمين على لغة القرآن- ما فتِئُوا منذ قرنين يُعالجونَ اللسانَ العربيّ ليُطاوِعَ التّعبيرَ العصريَّ عن الواقع العصريِّ. بلْ الذي عالج اللسان العربيَّ منذ قرنين النصارَى العربُ قبْلَ المسلمين من عرب وعجم. عالج الآباءُ اليسوعيون في لبنانَ، وَوَطنوا المطبعة والطباعة، وحَدَّثوا معجماتِ اللغة العربية، وأحدثوا معجماتٍ، وطبعوا كتب تُراثٍ، وتاريخَ عرب، وشعْرَ عربٍ.

كل ذلك مجرَّداً عن دين الإسلام، مُتَلبِّساً بلغة الإسلام، منشغلا في الظاهر بخدمة لغة الإسلام، مستبْطِنا الولاَءَ لحركة التنصير اليسوعية وغير اليسوعية، مستظهرا بالدعم التنصيري اليسوعي وغير اليسوعي.

وطوّرَ اليسوعيون العربُ لغة العرب فعلا، وتلقَّفَتْ مِشعَلَ التطوير طائفة من نصارى لبنانَ وفدوا على مصرَ، وأسسوا مطابع، وأسسوا جرائدَ ومجلاتٍ عربية كان لها منذ أزيد من قرن إشعاع على العالم العربي الإسلامي وعلى كل قارئ بالعربية من المسلمين.

طوروا العربية فعلا، لكن بقصد إعلامي، لا بقصدٍ غَيورٍ على الكنْز الـمُودَعِ في اللغة – كتابِ الله وسنة رسوله – ولا بقصد تقوية العربية على حمل أسباب القوة من علوم كونية وتجارب بشرية نافعة. وما تبع المجهودَ اليسوعيَّ النصرانيَّ في مجامِع اللغة العربية وأكاديميات اللغة العربية لَمْ يحد كثيرا ولا قليلا عن المقصد التنصيري.

وها هي بين أيدينا لغةٌ عربيةٌ عصرية لاييكيةٌ في صحف الإعلام والمجلاتِ المصورة والإذاعات والتلفزيونات. لغةٌ ركيكةُ المباني، مترجَمَةُ المعاني، فاسِدَةُ النحو، قعيدةُ الصرف، ما بينها وبين لغة القرآن الـمُبينَةِ من قرابة إلا صِلَةُ اللفظ والحرف. لغة عصريةٌ جِسْمٌ، تَسكنهُ روحٌ دخيلةٌ تَتَململُ لاييكيتُها وتتَخَبَّطُ المسكونَ، فلا تَسمعُ من هَمْسِ العربية إلاَّ أنينا وحنيناً إلى سالفِ عزها، يومَ كانت لُغةَ الدين والدنيا، لا ينفصِلُ الدين والدنيا شِقَّيْن وتعبيرين.

فإذا حاولَ مُعَرَّبٌ عَرَبيّ أو أعجَمِي بالعربية المهجنةِ الـمُدَجَّنة العصريّة أن يقرأ العربيَّةَ المشرَّفَة التي أنزل بها القرآن، خانَتْه لغتُه وفضَحهُ جهلُهُ. ألَم نسمَعْ سنواتٍ على شاشة التلفزيون رئيس برلمانٍ عربي ليْس منا ببعيد لا يحسن يَقْرأُ فاتحةَ الكتاب كلما قام البرلمانيون ليقرأوا الفاتحة على روحِ ميِّتٍ منهم؟ يقرأ رئيس القوم على ملإ من المسلمين المشاهدين فضيحة عربيته: «اهدنا الصراط المستقيم الصراط».

لا جرمَ تنحط العربيةُ عن مرتبة اللغات القادرة في الدنيا إن كان علية القوم الدكاترة لا يحسنون قراءة الفاتحة. لو قرأها نصراني ماروني من حفدة اليسوعيين الموسوعيّين لأجاد القراءة.

ويْحَ العرب المسلمين، ما فعلوا بلغتهم!

وويحَ الأمازيغ المسلمينَ ما يساهمون في فعله بلغة القرآن!

ويحنا! أنمضي في تعلُّم اللغات الأوربية - الضروريةِ ضرورةً قصوى - إلى غير أجل؟ أنعجزُ وتعْجزُ لغتنا إلى غير أجل واليهود حفنة في الدنيا أحيوا لغتهم بحياة العصر، والهولنديون حفنة، والسُّويديون، ومن لستُ أدري!

أنمضي في تعلم الفرنسية والتديُّنِ بالعقيدة اللاييكية الفرنسية، وهي في الدنيا تلهث عاجزةً عن مواكبة المستقبل. المستقبل الإنجليزية اليومَ، اليابانيةَ الطلاسمية غدا، الصينيةَ اللُّغزية بعد غد؟

أم نستأنف جُهْداً يُبشِّرُ بأمازيغية عتيدة، ونضع المعاجِمَ، ونطبَع الجرائد والمجلات، ونقضِم من الوقت المخصص في التلفزيون للتفاهات العربية لنبرز الأدبَ الأمازيغي الأصيلَ؟

أنفعل ذلكَ ونُساهم في الإجهاز على عربية أمرضها النصارَى العرب، ونقتلُهَا لتحيى العزة الأمازيغية؟ ولتكون لنا الأمازيغية المنقِذَ المنتَظرَ.

اللغة الأجنبية ضرورة ريثما... تقفز الأمازيغية قرون تخلفها وتتأهل بعملية سحرية تطوي لها الزمان لحمل علوم عصر الإلكترون، وحضارة الثورة المعلوماتية الإعلامية!

بل ريثما يقوى الإيمان بالله ورسوله في قلوبنا، وتشتد عزائم عقولنا وإرادتنا وثقتنا وإيماننا بلغتنا، فنخدُمها الخدمة الخالصة المخلصة.

إن لم نتُبْ إلى الله التوبَة الخالصة المخلصةَ فالاستعباد اللغوِيُّ، والاستعمارُ اللغويُّ قُيودٌ مُؤبَّدَة على أيدينا، وأغلال دائمة في أعناقنا.

كل ما يخدُم الدين، والتوبة، والصلاة، والعبادة، والرجوع إلى الله، يخدُم اللسان العربي الذي به أنزلت رسالة الدين والتوبة والصلاة والعبادة والرجوع إلى الله.

وكل ما يوهنه يوهنها. إيمانان متلازمان به وبها. أو كفْران متعانقان إلى خزي الدنيا والآخرة به وبها. نعوذ بالله من الكفر والكفْران.

عقَّ ربَّهُ من عق لُغَة رسالةِ ربه. عصاه من عصاها. كفر به من كفر بها.

الفصل الثالث

اللغة الهُوَيَّة

- «أنا أتكلم، فأنا موجود»
- تعميم وترسيم
- إفلاس وتحدٍّ
- اللغة أُمُّ المطالب والرغائب

«أنا أتكلم، فأنا موجود»

أستعير هذه الجملة / البرنامج من الأستاذ محمد شفيق، فما هي كلمة منمقة تحاكي مبدأ ديكارط. ولا هي شعار ثقافي ودعاية وتحريض. ما هي دعوة إلى مأْدُبَةٍ لغويَّة. هي فلسفة حياة، وبرنامج حياة. إذا كانت لغةُ قلبي وأحلامي هي الأمازيغية، وكانت مسرحَ خيالي ومُنتَهى آمالي، فكل ما يستفزني عنها أصنفهُ في خانة الضرائر العدوات. وإذا كانت العربيةُ باعتبارها لُغة القرآن هي لغةَ روحي، وكانت آيات الله التي أتلوها في صلاتي وفي مصحفي هي النغمة المتردِّدة في أعماقي، فإني لا أطيق النظر في وجه الضرائر المستَفِزّات.

أنا أتكلم، فأنا موجود. ونوع وجودي وطعمه ولونه من نوع لغة قلبي وروحي وطعمها ولونها وما تحمله من حقائق أومن بها وآمالٍ تراود شِغافَ القلب.

تماسُكُ وجودي رهين بقوة اللغة التي أتكلمها، فإذا تنازعتني لغاتٌ بعضها ينادي ذكرياتي إلى البكاء على أطلالِ الصبا، وبعضها يُناجيني بإلهامات المراهقة، وبعضها يُردِّد في أذنِ حساسيتي الاجتماعية السياسية عقلانية ثورية أو شِعاراتٍ قَلقَةً، فوجودي ممزَّق، وأنا تارةً ذاك الباكي على الأطلال، وتارةً ذَيَّاك الملهم الحالم، وطورا هذا الرافض المحتج على من يزدري لغة أجدادي، ولهجة قريتي، وأنشودةَ الجدة الحنون الشلحية أو الريفية أو الأمازيغية أو ما هنالك التي دغْدَغَتْ طفولتي المبكرة.

قد يكون من بين أصوات المناداةِ وهمَساتِ الـمُناجاةِ وترجيعاتِ القلق الثوري نبرةٌ قرآنية من آيات حُفِظتْ وصلاةٍ حُضِرتْ وموعظَةٍ

سُمِعَتْ في عهدٍ ما من عهود العمر. إن ألقت عليَّ تلك النّبْرةُ درساً عارضتها من مخزونات وجودي المتكلمِ فِيَّ دروس. أو تصورت في مخيلتي هَيأةُ صلاةٍ، ومجلِسُ واعظٍ وصفحةُ مصحفٍ، فالهواجِس الـمُلقياتُ المستفزاتُ الضرّاتُ تقذفُ بوحْيِها في مِرآةِ وجودي كما يَقذف العابثُ بالحَصَا، يقذف بها حصاةً حصاةً على وَجْه صفحة الماء الساكنِ، فإذا المنظَرُ المنعكس على صفحة الغدير غيرُ المنظر، وإذا أنا لست أنا.

«أنا موجود فأنا أتكلم». صيغة مقلوبةٌ للكلمة الشفيقية. لِي ذاتٌ مسلمةٌ، أنا قلبٌ مؤمن، أنا إيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، أنا اختيارٌ وجودي ثابتٌ، أنا عقيدة راسخة، أنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أنا صلاة في وقتها، ومسجدٌ وجماعة، أنا صومٌ ورمضان، أنا زكاة وحج، أنا في الطريق إلى لقاء الله تعالى، أنا لي رجاءٌ في رحمة الله وخوف من عذاب الله.

لي قضايا مؤلِمةٌ من قضايا الحياة الدنيا وهمومها تنغص صفْو أوقاتي، لكنها لا تستولي على وجودي، ولا يتكلـمُ بها قلبي إن تكلـمَت بها النفسُ الملُولُ والفكرُ المشغول. قضيةُ القلب ولغة القلبِ هي سيِّدَةُ وجودي.

تعترضني غَفَلاَتٌ نفسية، ويوسْوس لي شيطانٌ عابر، فاستغفر وأتوب. أرجعُ لا أتمادَى، صوتُ القَلبِ المطمئنِّ بالإيمانِ، القوي بالإيمان، لاَ تغطيه وسوسةٌ إبليسية أو همهمةٌ نفسية.

إيماني في قلبي، وإسلامي في عبادتي، عنهما أصْدُر وإليهما أرجع. إن تكلمتُ فأنا خصيمٌ محامٍ عن قضية إيماني وإسلامي ومصيري إلى الله.

أما إن لَمْ تُسفِرْ في وجودي معركة اللغاتِ المتشاكسة فِيَّ عن فوزِ لغة على لغة، وغَلَبَةِ كلام على كلام فأنا الشخص الممزّقُ تعريفاً وتحديداً.

وأنا الكائن الملَفَّقُ ترجيعا وترديداً. وأنا خصيمٌ محامٍ عن كل القضايا العارضةِ والوسوسات الراكضة.

إن كان لِي وجودٌ ثابت راسخ مطمئنّ يتكلم، وكانت قضية حياتي ومماتي إيماني بالله ورسوله واليوم الآخر، فلا يضير قضيتي الكبرى، ولا يخدِش في إيماني، أن تعلَقَ بذاكرتي لغةُ طفولة، وأهازيجُ جدة، ونكهةُ لهجة، وتركيبة حِكمةٍ صاغتها عبقرية جدودي الشلوح، وجدودي الأمازيغ، وجدودي الريفيين، وسائرِ ما هنالك. وصاغتها عبقرية لغة. لا تنازع فِيَّ قضيةُ ثقافةٍ شلحيةٍ أمازيغيةٍ ريفيةٍ قضيتي الكبرى إلا كما ينازعُ فرعُ الشجرة جذع الشجرة.

أما إذا كان جِذْعي لُغةَ الأجداد، بقطع النظر عن حُمولة لغة الأجداد التي تكلمت بالإيمان والإسلام قرونا ولا تزال تتكلم، وكان الفرعُ إسلامي وإيماني، فلا يُنتَظرُ مني أن أعطِيَ ولائي الكامِلَ إلا للجذع المغذِّي الممتدِّ الجذور في أعماقي.

أما إذا شَاقَّتْ الذكريات الشخصية والذاكرة التاريخية العريقة النابضة بالوفاء للأجداد ذكرَ الله، وشاقَّ حُبُّهَا حُبَّه، والولاَءُ لها الولاَءَ له، فقانون الأقوى يَجري عليَّ، وعلى لساني يجري ما في قلبي، وغيري يتكلم فِيَّ لا أنا.

وإنما المرءُ بأصغريْهِ: قلبِهِ ولسانه، كما قال العربي. وننظر إلى الكلمة من وجهها لا من قفاها فنُضيف: والمرء بأكبريه، قلبه ولسانِه.

كيف تصبِح قضيةُ لُغَةٍ ولهجاتٍ قضيةَ دين وحياة وممات؟ كيف تكون اللغة العربيةُ من عصاها عصى الله، ومن شاقَّها شاقّ الله، ومن كفر بها كفر بالله!

لَوْ انحصرتْ المقارنة بين اللسان العربي وألسنةِ الشعوب على مزايا هذه وبلاغة تلك، وليونة الأخرى ويبوستها وخِصبها وجَدْبها وثروتِها وفقرها ونحوها وصرفها وتراثها وشعرها ونثرها، لكان مجالٌ للغة تفاخِرُ العربية وتنازلها وتساميها.

لولا أن اللسان العربيَّ مصطفىً مختارٌ بين اللغات كما هم الرسُل عليهم السلام مصطفَيْن من الناس، ولولا أن القرآن كتابَ الله ورسالتَه إلى عباده من جن وإنْس أنزل بلسان عربيٍّ مبينٍ، لما كان من يَعْصِي العربيَّة منتصِراً للغة قومه، ولهجة أمّه إلا حُرّاً يأنَفُ من أن يُستذَلَّ وجودُه. ولما كان من يعكُف على لغة قومه ولهجة أمه وأهازيج جدته إلا مثقفا أصيلا ذا هوَيَّةٍ في التاريخ، ومجد في الدنيا. لا عليه أن يكفر بلغةٍ لا يستقيم بها لسانه، فإن استقام بها لسانُه فقلبه يتكلم بلغة أخرى.

إن الله عز وجل منَزِّلُ الكتابِ ومخاطِبُ أولي الألباب، هو المتكلم بالقرآن. القرآن كلامه، وكلامه صفته: مُقَدَّسٌ في مُقَدَّسٍ. هو سبحانه المتكلم بالقرآن، وِعاء كلامه القدسيِّ اللفظ العربي، والتركيب العربي، والبلاغة العربية. دخل اللفظ والبلاغة والتركيب في نطاق المقَدَّسِ ما دام اللفظ لفظ القرآن، والتركيب آيات القرآن، والبلاغة بيانَ القرآن.

فإذا كتبتُ أنّ من كفر باللسان العربي فقد كفر بالله، فإنما أعني لُغةَ القرآن وآيات القرآن. وبما أن خدمَةَ العربية بعلومها هي خدمةٌ للقرآن وفهم القرآن، كان التعميمُ حقيقا. وبما أن خذلان العربية واستفزازها بالضرائر وبُنيَّات الأقلام والمحابر خذلانٌ مباشر للقرآن واستفزاز له، كان خذلانها لخِذلانه شقيقا.

تكلم الله سبحانه، وأنا العبدُ شرّفنِي ربي بتلاوة كلامه. ما هي تلاوةٌ إلاَّ بكونها نطقا باللفظ المنزّلِ. ما هو قرآن إن ترجِمَتْ المعاني المنزلة – وأنّى لها أن تتسع لمعانيها لغة! – إلى أكثر اللغات حِذْقاً وفصاحة.

كلام الله عز وجل نور، وبركة، وتزكية، وغِذاء روح، وبلْسمُ روح، وسمُوٌّ روح، ورَوْحُ روحٍ. ثم هو علم بالشريعة المنجية، والعباداتِ المفروضة، والمعادِ المحتومِ المكتوب. والعربية همزة وصل لينة بين كلام الله وبيني أنا العبدُ المشَرّف.

إلا أن تقف همزة القطعِ الأنانيةُ الأصالية الأجدادية التاريخية تقول: أنا، أنا. وإلا أن تقف النفوسُ المملوءة بأنانيتها وَقْفَةً صِنْدِيديّة مع اقتناعِها الخاص تقول: أنا أتكلم بكلامي، ومالِي ولِكَلاَمِ غيري!

وجودٌ يمَثِّل على مسرح الحياة مأساة حياة من لا يكون كلام ربه ربيعَ قَلْبِهِ، وجَنَّةَ كيانه. ويُسْدَلُ ستار الموت على ممثلين في مسرحية هزلية. حاضرٌ غاب، موجود انعدم، نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر. هذا ما تتكلم به كل لغة انسلَّتْ من الدين، واعتنقَتْ وثنيةَ حب الدنيا وحب الذاكرة التاريخية والخصوصيات الأرضية.

تعميم وترسيم

نَطْفُو من غوصِ البحار إلى سطوحِ القِفارِ، وشَظَفِ الخُبْزِ السياسيِّ اليابِس القَفار.

كتب لينين معلم الثورَةِ: «كل ما يخدمُ الثورةَ فهو خُلُقِيٌّ». كافر بالله مؤمن بالتاريخ وجدلية التاريخ طلق الأخلاق والدين، فالدنيا عنده صراعٌ. وما يُشْعِرُنا أن الثورة الثقافية الأمازيغية، والسياسة الثقافية الأمازيغية، لن يطلّق بعضهم من خِلالها الخلق والدين، ولَنْ

تُفضي الثورة الثقافية الأمازيغية بالمسلمين المغاربة إلى صراع ونزاع، ولن يُصبحَ الخصام اللغويُّ والمطالبةُ اللغويةُ صراعا على البقاء والوجود، وحربا أهليَّةً يُريدُ مُسيِّسُو الثقافة الأمازيغية ومسيَّسوها أن يجندوا لمعاركها ومواقعها الأجيال بتعميم اللغة الأمازيغية وترسيمها في المدارس؟

ما يشعرنا أن بعض الأمازيغيين الشغوفين بلغتهم الملهوفين لن تقول لهم حماستهم السياسية الثقافية: «كل ما يخدم الثورة الثقافية الأمازيغية فهو خلُقٌ وإنصاف ولو كان في ذلك خنق العربية وعرقَلة تقدمها»؟

منذ أربعين سنة، منذ الاستقلال «الاحتقلال» كما سماه محمد بن عبد الكريم الخطابي بَطَلُ الريف ومَفْخَرةُ المغرب رحمه الله، والعربية مع غريمتها الفرنسية في مد وجزر. ما زالت الازدواجية العربية / الفرنسية المفروضة في المدارس تنشِئ أجيالاً منفَصمَة توجهاتُهم: قليل جدا منهم من نبغ في العربية، وقليل من نبغ في الفرنسية. والآن يعلن الحكام ويصرحون أن التعْليم في المغرب كارثة، وأن حصيلته هزيلة، وأنه لا يستجيب لمقتضيات العصر ومتطلَّباتِ الاقتصاد، وأنه... وأنه...

منذ فجر الاستقلال تبنى حزب الاستقلال، فيمن تبنّى، الشعار الثلاثي: تعميم التعليم -وتعريبه - ومجانيته. الآن يلمس الجميع أن التعليم لا هو عُمّم، ولا هو عُرِّب، ولا الإنفاق على التعميم والتعريب مما تطيقه خزانة الدولة المنهوبةُ في مشاغِلَ أخرى بأيْدِي المفسدين والمرتشين والمترفين والمستكبرين في الأرض.

الآن تأتي الثورة الثقافية السياسية الأمازيغية لتزيد في الطين بِلَّةً وفي رأس التعليم مرضا وعِلَّةً، وتريد للغة الأصيلة أن تعمَّمَ وتُرسَّمَ

ليقتعِدَ أقسامَ المدارسِ ومدرجاتِ الجامعة وقاعات المحاضراتِ ثلاثي متنافِسٌ: العربية اللغة الوطنية الأولى، واللغة الأمازيغية اللغةُ الوطنية الثانية يضمن وطنيتها وحقها الدستور، واللغة الفرنسية الضيفة المؤَقتة ريثما...

لم يكن في مستطاع المطالبَةِ الوطنية بالتعميم والتعريب والمجانية أن تُوتِيَ نتائجَ أحسن من التي تنادي على مَتاعنا التعليمي وبضاعَتِنَا الجامعية بالبوار والإفلاس. ذلك أنَّ الترَدُّدَ والتجاذُب بين فرنكوفونيين مغربين هم النخبة الماسكة بزمام الدولة وبين شطر من الطبقة السياسية المطالِبة بالتعريب والتعميم والمجانية كان حرب كَرٍّ وفَرٍّ دائمةً. لا تأتي حكومة من حكومات الاستقلال بمخطط إلا نسخته الحكومة التي تليها. ولا يستقر يَوما من له القرار السياسي النهائي على رأي في مشكلة التعليم إلا نقضَه غدا.

تردد وتجَاذب وسوء تدبير، تأتي المطالبة الأمازيغية لتُنْشِب أظفارَها في الضحية - وهم أجيالٌ من المغاربةِ لا هم متعلمون ولا هم أميون - وليضْحِيَ التجاذب والتنازع والتردد من ثلاث جهات بعد أن كان من جهتين. وليتِمَّ تمزيق شمل العقولِ والفهوم والولاءات والهوَيّات الثقافية.

وها هو الثلاثي المتنازع على أشلاء الضحية يتربع غداً إن فاز المطلَبُ الأمازيغي على كراسي الأستاذية في المدارس والجامعات والمعاهد. عَرَبُوفونية كما خدَمها النصارى اليسوعيون والمغرَّبون التراجمة لآداب الغرب وأساطير الغرب وفلسفات الغرب. وأمازيغوفونية لا يرضى لها أنصارُها إلا أن تَكون في حلَبَة اللغات نِدّاً وحدّاً.

ثم فرنكوفونية تساندها أمنا فرنسا بالمال، والأجهزة، والمحاضرين الزائرين، والمِنحِ، والجوائز الأدبية، والتدريباتِ الدُّوَلية، وبكل الوسائِل.

تساند فرنسا وتعاند وتدْعم لغتها وثقافتها من موقع المدافع عن «الخصوصية الثقافية» الفرنسية المغْزُوَّةِ في جملة اللغات والثقافات مِن قِبَلِ «الطريقة الأمريكية في الحياة»، ومن قِبَلِ الإنتاج الإعلامي الأمريكي الضخم المنافِسِ بكفاءَةٍ ضخمَةٍ في دنيا العمالقة الإعلاميين، ومن قِبَلِ هُوَيَّاتٍ أوربية ولغاتٍ أوربية يتضاءَلُ بَيْنَهَا الفرنكُ الفرنسي، واللغة الفرنسية، والمسرحُ الفرنسي، والإنتاج الثقافي الفرنسي الذي نحن به معجبون، مستهلكون، هائمون.

وتلْحَق اللغة الإنجليزية الأمريكية الـمُدافعين عن «خصوصيتهم الثقافية» مِن الديار الفرنسية إلى الديار الفرنكوفونية. التعْليم الأمريكي في ديار أمريكا يعاني أزمةً حادة، تعاني المدارسُ الأمريكية من العنف والمخدرات وقلة إقبال الأطفال والطلبة على التحصيل. تلاميذ مُسَلحون، والطلقات النارية تتفرقَع لتزعج الدارس والمدرسَ، وتلامذة يقتلون تلامذة، وطفل يقتل معلما، وطلابُ جامعةٍ تشغل المخدرات أربعين في المائة منهم، وتشغل الألعاب الإلكترونية والاتصالات على شبكة الأنْترْنِت الباقين.

التعليم الذي تغزونا ثقافته في بلادنا، وتشرئب إليه أعناق تعليمنا الـمُفلِسِ الكارِثةِ، ويهدد الفرنكوفونية بانسحاب، والعربوفونية بانحدار وانحطاط، تعليمٌ يحمِل جراثيمَ الأمراضِ ومُوصِلات العهارة. في متناوَلِ الطفل الأمريكيِّ حاسوبٌ شخصي المفروض فيه أن يُعَلِّمَ الرياضيات واللغة، وأن يحضر المعلوماتِ من شرق الأرض وغربها في لمح البصر. لكن الأطفال الأمريكان - كم النسبة المِائوِية

والسن؟ غير مهم – يستخدمون الحاسوب الشخصي لاستقدام صُوَرِ العهارةِ والدعارة عبر أم الشبكات التواصلية الحرة التي لا رقيبَ عليها ولا حسيب.

ذلك شأن الغازي والمغزوِّ.

وشأننا أن نلقي على الأمازيغية المتخلِّقة المتأصِّلة سؤالا، بل سؤالين، بل أسئلة. أتستطيع اللغة الأمازيغية – أو هي لهجات ثلاث أو أربع أو أكثر؟– أن تكونَ نِدّاً وحدّاً لتقفَ حاجزاً وسَدّاً أمام الغزو المميّع؟ أتستطيع أن تَحْمِلَ حَوْصَلَتُها مكتسبات العقل البشري وعلومَ أمريكا وخِبرات اللغة السيدةِ في الدنيا العلومية التكنولوجية: الإنجليزيةُ لا تزال؟

أبالأمازيغية نستطيع أن نستقل بعلوم، وأن نوطِّنَ صناعةً، وأن نطور تكنولوجيا؟

من حسن حظ المغْربِ أن نخبةً تقنوقراطية تكونَتْ منذ الاستقلال، لها الكفاءةُ والخبرة وجودَة الفكر التنظيمي. نوابغُ ونابغون من أمازيغ وعُربان ورجال ونسوان هم القوة الماسكة دواليبَ الدولة وإدارتَها ووزاراتها ومعاهدها ومستشفياتها ومعاملها وتجارتها وصناعتها.

ينصرفُ إلى التقاعُد شيئاً فشيئاً جيل تقنوقراطية سدَّ الثّغَرَات غداة الاستقلال. جيل فرنكوفوني أكلته، ولا تزال تأكله من أطرافه ومن أعاليه، الرشوة والمحسوبية وأمراض الرتابة المكتَّبيةِ وإهدارِ الكفاءات.

ويبرز جيلٌ ذكيّ موصولُ الفِكر والخبرة بالمدار العالمي للصناعة والتجارة والإدارة. جيل لغته الأولى الإنجليزية السيدة في دنيا المال والأعمال، ولغته الثانية المحلية الفرنسية التي هي لغةُ الدولةِ المغربية الحقيقيةُ رغم بهتان الدستور، ولغته الثالثة والرابعة عربوفونية فاشلة أو أمازيغية مفشلة.

جيل فرنكوفوني أنجلوفوني تعلم ونبغَ رَغْم تردد سياسات التعليم وتجاذبها وارتدادها من النقيض إلى النقيض. جيل نبغ في علوم الدنيا، فما الخبرُ الديني الذي تحمله إليه الأمازيغية لتكتمل شخصيته وتلتئِمَ؟

إفلاس وتحدٍّ

إذا أفلس مشروع تجاري صناعي تُعيّن المحكمة من يُصَفِّي مُخلَّفاتِ الإفلاس. وقد شهد الحكام والمحكومون والمعلمون والمتعلمون في المغرب أن التعليم المغربيّ كارثةُ إفلاس. فما العمل أيّها الفضلاء الديمقراطيون الأمازيغ الأعزّاء؟ من يصفّي المخلفات؟ ما يصفيها؟ وما مشروعُكم لمستقبل صِحيٍّ؟

أمام المغاربة والمسلمين من عُربٍ وعجم تحَدٍّ تاريخي مصيري. يَنقرضُ المغاربة والمسلمون من عُرب وعجَم ويُمْحَى اسمُهم ويُعَفَّى رسمهم من خارطة الإنسانية الناجحة في الدنيا إن لَم يتدارك العرب والعجم في المغرب وفي دنيا المسلمين بالإصلاح والثورة والهبَّة والقومة والانتفاضة -سمِّها ما شئت- مناط التحدي: ألا وهو التعلُّم والتعليم.

الأحياء من الأمم والشعوب في عالَم اليومِ وعالم الغَد تجري في عُروقهم دماءٌ حية تُسمَّى «التنمية». ويجري في عروق التنمية عنصر الحياة ويسمى تعليما ناجحا كُفئاً ملائما منافسا. ولتعليم ناجح لا بد من لغة صحيحة غيرِ سقيمة.

القوة في دنيا اليوم والغد تنمية واقتصاد، اقتصاد وتنمية، تعليم وأدمغة، تدريب ومهارة، إبداع ودراية، يقظةُ عقلٍ وفسيحُ حيلَةٍ.

لا يمكن أن نضع على السّكّة الصحيحة تعليما صحيحا بلغة مريضة. لا يَسير على السكة الصحيحة تعليم سياسته مترددة، ولغاته متنازعة متجاذبة. ومن ثَمَّ فلا تنمية تُرجَى إذْ لا عقولَ كُوِّنَتْ، ولا مهاراتٍ اكتُسبتْ، ولا درايات تُدُرِّبَ على إعمالها وإكمالها. ومن ثم فالركود والخمول والموت.

لا يمكن أن تُعِدَّ العُدَّةَ لُغةٌ لا ثقة لها بنفسها، بل لا ثقة للمتكلمين بها بمستقبلها، لكي تَخْلُفَ في غدٍ قريب أو بعيدٍ اللغةَ الأجنبيةَ العالمية الضرورية ريثما... فما بالك إذا كانتْ ثَمَّتَ لغاتٌ مُصابات بنفس العِلَلِ!

فمن طَلَبِ الـمُحال أن ننتظر من لغات متخاصماتٍ مقتسماتٍ الوقْتَ والمواردَ والجهودَ أن يتقدمْن بتعليم، وأن يُكَوِّنَّ أدمغة، وأن يُشْرِفْن على تنمية.

السياسة التعليمية هي روح السياسة لأنها مفتاح الازدهارِ الإنساني، ومفتاح الازدهار الاقتصادي، أي مفتاح حياة الأمة، وقوة الأمة، وعزة الأمة. السياسة التعليمية مفتاح المستقبل. ولغة التعليم تصح فيصح التعليم، وتسقُم فيسقُم.

كانت مطالبُ السياسة التعليمية تُسْمَعُ من خصميْن. أحدهُما وِجْهتُه الفرنكوفونية المنفتحة وحْدَها على العالم وعلى المستقبل. وثانيهما له طموحٌ قومي وعلى كاهله ميراثٌ وطنيٌّ ومسؤوليةٌ وطنية، فهو يتمناها منذ الاستقلال عربيةً تُعَمِّمُ التعليم، وتمحو الأمية، وتسلِّحُ العقولَ بالمعارف الضرورية العصرية. وهو يريدها مِنحةً من الدولة خالصةً مجانية.

هذا المطلَبُ الكَمِّيُّ الذي راود ولا يزال يُراودُ المحافِل الوطنية السياسية صَكَّتْ سَمْعَهُ إرادةٌ جديدة هذه الأيامَ برفضٍ حَازم حاسم.

إنها الفرنكوفونية والأنجلوفونية والجامعة الأمريكية في مدينة إفْران الأمازيغية! إنه في جامعات الدولة تعلم مُفْلِسٌ عربوفوني فرنكوفوني فاشل. والأملُ معقود على المدارس العليا الخاصة الفرنكوفونية التي ستكون أولاد الأغنياء الأثرياء وبناتهم.

والأمل معقود على الجامعة الأمريكية التي تفتَحُ ذراعيها لمن يُؤدّي بالدولار أو تُؤَدِّي عنه مِنَحٌ تُخَصَّص للأدمغة النادرة. أدمغةٍ تعبَّأ من هنا تعبئة منظمة لتُستثنى من المصير الأسود للجنود المجنَّدَة مِن أذكياء أبناء الأمة الذين طردهم من تراب وطنِهم الجهالَةُ بكفاءتهم، وانغلاق الأبواب أمام عبقريتهم. وليحتل الأبناء الـمُدلَّلون والبناتُ خرِّيجو إفران المناصب العليا في إدارة الدولة واقتصاد الدولة، مُشَبَّعين بثقافة أنجلو/ فرنكو/ عربوفونية تسخر من الهَوية الأمازيغية في عُقر دار الأمازيغ.

تعليمٌ بَلَديٌ مُفْلس يُعِدُّ جنودا من العاطلين الذين يَشُنُّونَ إضراب الجوع أمام الوِزارات. وتعليمٌ مترَفٌ خاصٌّ يُعبِّئُ حشودا مُمْتازةً تتعَامل بلغة الدولار، وتُلَقَّن الوَلاءَ لثقافة الدولار المتقدمة في العلوم، لتُسَرَّبَ نُخبتُها وزبدتها بنظامٍ وانتظامٍ إلى الاقتصاد الأمريكي المتلهِّفِ على الأدمغة الممتازة.

عندما تقضي محكمةٌ على شركة تجارية وصناعية بالإفلاس، وتعَيِّنُ خبراء وأمناء لتصفية الإفلاس، تسْمع أولاً شكوى المتضررين وشهادة المتضررين.

على إفلاسِ التعليم وسياسته بالمغرب إجماع من الشهود. بعض الشهود يلوذُ بأَبواب الوزارات، ويصرخ، ويحتج، ويكتب العرائض، ويُقاسي من الضّرّاء النوافل والفرائض، ويضربُ عن الطعام، ويُفطَمُ

من كل أمل مع مرور الليالي العاطلة والأيام. هذا شاهدٌ مَرْئيٌّ مسموع فصيح.

والشاهد الآخرُ على فشل السياسة التعليمية المغربية، وفشلِ الاقتصاد المغربي، وفشل المشروع الاجتماعي المغربي، هم اللاجئون مِن الإفلاس المغربي إلى بَرِّ أورُبا عبرَ البحر والبَرِّ على قَوارِبَ الموت، وهم أيضا اللاجئون إلى أوربا وكندا وأمريكا وكل فجٍّ عميق من النخبة الزبْدَة العالية المواهب.

لا يجد العاطل العادي الأمي أو المتَعلم في التعليم «البلدي» لقمة خبز فيخاطر بحياته في لُجَجِ البحر. ولا يجد الذكي المتفوق مكانا له في بلَدِهِ، فتحتضنه معاهد البَحث العلومي في أوربا وأمريكا وكل فج عميق، وتهَبُه الأمان والاستقرار، وتُغدِق عليه الرواتب العالية.

في فرنسا وحدها مآت من النبغاء المغاربة الرفيعي التخصص، ومآت من أبناء الأمة المسلمة يحملون إلى الشباب الفرنسي رسالة العلوم والفنون في الجامعات، ويُحرزون لفرنْسا مكاسِب ثمينَةً في ميادين البحث العلومي. وفي العالَم نزيف فظيع لأدمغة أبناء الأمة. نحوُ مليون «رأسٍ» مفكر مبدع مبتكر من كلّ شعب عُرْبان وعُجْمان، وأمازيغَ هم والعرب في المحنة والغربة سِيَان.

إفلاس وشهود على إفلاس. ثم تعليم نخبَويّ فرنكوفوني خاص، وأنجلوفوني ماهرٌ في الاصطفاء والامتصاص.

من حُسن حظ المغرب أن بقية من النزيف المفجع، من تقنوقراطيين ماهرين، لَم يغادروا المغرب. فهم ومعارفُهم وخبراتهم رَهن إشارة دولَةٍ محتاجةٍ لقيِّمين أكفاءٍ. هم عماد إدارتها، وهم محركو اقتصاد البلاد. إن كان الاقتصاد الحر في المغربِ يستغل كفاءاتهم ويُكافِئها، فالقابعون

منهم في مستودعات الإدارة الرسمية آلاَفٌ تتقاذفهم مَوْجات الفساد الإداري، وتُهْمِلُهم المكتبية المغْبَرَّة، وتتخطاهم المحسوبية، وتنهك إرادتَهم ونزاهةَ بعضهم الرشوة.

إنه نهبٌ مُنظَّم لثروة اليوم والغد، ثروة العقول المبدعة المتدربة. مارس الاستعمار القديم العتيق نهب الموارد المعدنية الفلاحية البرية البحرية ولا يزال ينهَبُ. ولعصر الإلكترون والثورة المعلوماتية الإعلامية مَرْمىً آخرُ، وهدفٌ آخرُ، وغنيمة أخرى.

ويتلخَّصُ الموقف آخِرَ المطاف، في شمال غني قوي هو الدوَل السبْعُ المترفة في الدنيا. وفي عالم متخلف مفلس التعليم فاشل الجهودِ يضع أبناؤه وبناته -وهم الثروة الأغلَى والأعلى- مواهبَهم وعُصارةَ أدمغتهم في خدمة غيرهم. يضعونها طَوْعاً وكرها.

يتلخصُ الموقف في أن المطالب الحيوية التي تجعلُ من أمة قوة في الدنيا ممتَنعاتٌ في مغرب المسلمين ومشرقهم. مطالب بعضها ينبني على بعض. مطالبُ من دون بلوغها تحديات داخلية في نفوسنا وعقولنا، وخارجية من فعل عُتاةِ الدنيا ومستكبريها.

مطالب هل تقوى الأمازيغية على تحقيقها؟ هل ننتظر في دهاليز التاريخ المظلمة ريثما تنبُت للأمازيغية أجنحة تطير بها إلى عالَم غيرِ العالَم الهابط الخابط الذي يتردى فيه تعليمنا، وتنسَدُّ فيه آفاق التنمية، ويتحول فيه حُلْم التنمية والازدهار كابوسا مزعجا، ويفِرُّ منه الأميون والمتعلمون «البلديون» والأذكياء العبقريون؟

مطالب وتحديات تضع على العربيّة والأمازيغية أسئلة مُحرجة. أسئلة ما هي من قبيل الخصوصيات الثقافية، بل هي من قاموس حياة الأمم، وموت الأمم، واندثارِ الأمم هباء منثورا في فضاء تاريخ مفلس.

اللغة أُمُّ المطالب والرغائب

إذا دفَنَّا رؤوسَنا فِي كَوْمة تِبْنٍ، وحصرنا طموحنا في أُفْحُوصَة قطاةٍ وعُش غرَابٍ، فلا جرم يتقلص نزاعنا بين عُربانٍ وعُجمان إلى نَقْنَقَةٍ مَحَلِّيَّة كما يأكل الدجاج بعضُه لَحْم بعضٍ إن شَحَّ عنه الحَبُّ. لا جرَم يعْمَى الرأسُ المدفون في قَش الخصام الداخلي عن حقائق الحرب العالمية بين مستكبري العالم ومستضعفيه. ما العربوفونية والأمزغوفونية والتركوفونية إلا أرَامل متواضعات مهزومات في الحرب العالمية الساخنة الباردة.

أرامِل مهزوماتٌ في مواقع حرب شاملة ووقائع نهْبٍ منظم. وضرائرُ في بَيت الفاقة والتخلف، يتنازعن على كِسْرَة خبزٍ قَفار، ومُزْعَةٍ مِن لَحْمِ البوار والدمار.

والمسلمون هم المستضعفون المستهدفون في الحرب الشاملة الناهبة السالبة. وهم هُمْ حاملو الرسالة الخالدة إلى الإنسان: رسالة الإيمان بالله وباليوم الآخر، رسالةِ العدل، رسالةِ العطاء والرحمة، رسالةِ التآزُر والتراحم بين بني الإنسان، رسالةِ سلامٍ لا رسالةِ حرب. ورسالةِ جِهاد إن كان للجهاد مقومات، وعلى الجهاد قدرة.

الجهاد المطلوب المرغوب فيه بذلُ جُهد كاملٍ لِصَدِّ عدوان شامل، وتحدٍّ فينا عامل آمل.

للجهاد الكامل المتكامل شروط ومقومات، وإلى القدرة عليه والقوة عليه طريق، لجمع شمل الأخ في الإسلام والشقيق. وسنجد أن بِناء القوة والقدرة صرحٌ من طبقات بعضها أساس لبعض: في قِمة البناء الوحْدَة الإسلامية، وفي أساس الصرح اللغة. متَى هانت اللغة

ومزّقت قدرتَها وقوتَها الرغائبُ القومية الضيقة، وقضمت أجنحتها سقطت اللغة، وخرَّ الصرح.

منذ جاء الإسلام تعَرَّبَتْ أقوامٌ مسلمة، وبقيت أخْرى على عُجْمَتِها ولغتها، إما لكثافة الشعوب وَعمق وجودها التاريخي، وإمَّا لارتكاز السلطة والنفوذ العسكري في أقوام عجم كارتكازها في الترك العجَمِ أمس وفرسِ الثورة الخمينية الإسلامية اليوم.

لم تتعرب من المسلمين شعوب فيما مضى، وإنَّ في تحديات العدوان الشامل المستكبر الحاضر، وفي آمالِ قوة وقدرة لا سبيل إليها إلا بوحدة، ما يدفع المسلمين العَجَمِ والعربِ لتبنّي لُغةِ القرآن التي جمعت قلوبهم على كلمة الإيمان والتقوى لتجمع عقولهم على جهادِ تحديث اللغة العربية وترويضها لتَحمل أسرارَ العلوم الكونية وخبرات التجارب البشرية، ولتصبح اللغة العالميةَ المنافِسةَ في كل الميادين، الجديرةَ بحمل روح رسالة الله إلى الإنسان الـمُودَعَة في اللسان العربي المبين، في كتاب نزل به الروح الأمين. لتحمل الرسالة الخالدة وهي تَرْفُلُ في حُلَلِ زينتِها الكونية.

تجاوبٌ وتقابُلٌ وتفاعل بين قمة صَرح القوة والقدرة وبين أساسه. وحدة كيان مجاهد بوحدة لغة جهاد، هي لغة القرآن.

وبين القمة والقاعدة طبقات وأعمدةٌ. الوحدة عمادها العدل، ومطلَبُها ومرغبها العدل. العدْلُ والانتصاف من مستكبري العالم، وهل ينتصِفُ من ظُلْمٍ وينتزع حقّاً مَهْضوما كيان مشتت ضعيف ممزق!

والعدل والإنصاف بين المسلمين شعبا إلى شعب. من المسلمينَ من نبع في ديارهم القومية نفط الدولار والعار، لا وحدةَ تُرجى بينهم وبين بَنغلاديش الفيضَان والجَوَعان بدون عدل، نصيبٍ من عدلٍ، حد أدنى من عدل.

ثم العدلُ بين طبقات الناس داخل كل شعبٍ، إذ لا وحدة تُمكن بين محرومين ملهوفين ومترفين في استكبارهم ملفوفين.

الوحدة عمادها العدل، والعدل بلا تنميةٍ حُلْمٌ. الفقْرُ الـمُتخلِّفُ المتغَلِّف في أسمائه كاد أن يكون كفرا، والكفر هو الظلم الأكبرُ، بين طياتِه الظلم الاجتماعي، ومن بناته الحرمان الاجتماعي.

وحدة وعدل وتنمية يَتَّكِئ بعضها على بعض، ويتوقف بعضها على بعض. ونحن إلى الأساس اللغوي سائرون.

قضية التنمية في عصرنا وفي مستقبل أمر العالم وأمرِنا قضية علوم وتكنولوجيا وخِبرة ودُربة وأدمغة. ولغة قوية أوّلَ شيء. وقد أفضنا الحديث في التعليم والأدمغة في فقرات سبقت من هذا الكتاب. والحمد لله الملك الوهاب.

ويتسلسل تساند الصرح طَبَقاً على طَبَقٍ من الأهم إلى المهم، من وحدة أم رغائبها اللغة إلى علوم وتكنولوجيا أم مطالبها اللغة.

التنمية والعلومية يحققهما أقوامٌ تحت أنظمة حُكْمٍ مستعارَةٍ، ثم يكون لهم في سوق العالم واجهة، وفي تجارة العالم رصيدٌ. كوريا الجنوبية وتايوان والقَزَمَةُ عَدَدا العملاقةُ مددا سنغافُورة. وغدا...

هذه الأقوام توحدها دولة قومية، ولغة قومية، وتنافس قَوْمي في معمعان الصناعة العالمية والتجارة العالمية. لا رسالةَ لها في العالم غيرُ ذلك. فإن تبنت نظام حكم صارمٍ حتى أقلع اقتصادها، وتدقرطَتْ بعد ذلك بنوعٍ من الديمقراطية بقوةٍ الأشياء وطبيعة تطور المجتمع فذلك لا يَقْدَح في أصالة من هو في العالم تاجرُ أمتِعةٍ وصانعُ بضائع.

أما المسلمون فلهم في الأرض رسالة يبلغونها، من صميمها نظام الحكم الذي أنزله الله في الكتاب العربي المبين. الشورى نظام

الحكم المطلوب المرغوب. وأحيلُ السائِلَ عَمَّا يجمع ويفرق الشوى والديمقراطية إلى كتاب «الشورى والديمقراطية»، فالنقاش في الموضوع طويل عريض.

في حِكمة الفِكر السياسي العالمي المعاصر يَتوازَى ويتآزَرُ مطْلَبا التنمية والديمقراطية. وهي حكمةٌ مَعْبَرُها إلينا ومعبرنا عليها وجواز سفرنا وسفرها مقالةُ أن وحدةَ المسلمين، والعدلَ بين المستضعفين في العالم والمستكبرين، والعدل بين شعوب المسلمين، وبين الطبقات الاجتماعية في بلاد المسلمين، لا تقوم إلا على تنمية، والتنمية لا تزدَهِر أشجارها وتَحِينُ ثِمارُها إلا على استقرارٍ شوري، كما تقول حكمتهم: لا تنمية إلا على استقرار ديمقراطي، ولا ديمقراطية بدون قاعدة مادية تَنْمَوية.

في عالم اليوم وأُفُقِ مستقبل الغَد لا بد للمسلمين من قوة ماسكَة تُكَوِّنُ منهم كتلةً واحدة قادرة على التنافس الصناعي التجاري المالي التنموي في جوّ محموم فتحت فيه الديمقراطية الاقتصادية - ديمقراطية معاهدات الكاط ومراودات التطبيع مع اليهود في الدار البيضاء وعَمّان، ومساوَماتِ التشارك في بَرشلونة بين الاتحاد الأورُبي والدول المتشاطِئةِ مع أوربا عَبْر البحر الأبيض المتوسط - أبواب الطوفان التجاري.

لا تثبُتُ أقدامنا على أرضِ التنمية بدون أن يَرسَخَ نظامُ حكمنا على أصل أصيل. على أصْلِ إيجابيةِ ذاتِنا. على أصلِ الحقِّ المنزّل من عند الله الذي هو حقيقة وجودنا.

يهيمُ المسلمون الرازحون تَحتَ نِيرِ الاستبداد ونيرانه بالديمقراطية وبها يَلْهجون. إن كانت الديمقراطية تنفي الاستبداد فهي سَلْبٌ لا إيجاب له، هي استنساخٌ لحكمة الآخَر تجعل منك صورةً باهتة

للآخر. لو كنا كوريا الجنوبية شعبا نشطا ودولة صانعة تاجرة بلا رسالة في الدين غير ذلك لكان نضالنا من أجل الديمقراطية نضالا شريفا. ولَكُنَّا معتزين متشرفين أن نكون أمثالا وأشباها وأتباعا للناس.

لكننا حمَلَةُ رسالةٍ، من إيجابيات الرسالَة وأعمدتها وأصالتها وقوتها قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[1]. نكون مَسْخا من المسخ إن لم نفعل.

نراجع بناء الصرح من أسفله إلى أعلاه، فنجد وحدة اللغة، وقوة اللغة، وقدرة اللغة على توحيدٍ، هي جذرُ الأساس، والجُلْمود الثابتُ إن تزعزع انهارَ البناءُ. ونجدُ نظام الحكْم ناطقا بلغة القرآن الموحِّد، قرآنِ التوحيد، وعقيدةِ توحيدِ الله تعالى، وطاعتِه اللازمةِ لكل مسلم ومسلمة.

بلغة القرآن يقول استقرارُنا: أنا شُورَى منزَّلٌ مبدَأُها، حُرٌّ شكلُها وتوزيعُها أن يكون ذكيا في الاقتباس من حكمة الأمم.

على مَتن الاستقرار السياسي، وفي حِضنه، تعليمٌ يعبئُ الجهود، ثم تنمية تغذيها الأدمغة المتعلمة وتديرها وتسبَحُ بها في بِحارِ المنافسة العالمية وأمواجها. وعلى متن التنمية المتعلمة عدل شامل، وعلى متن العدل وحدة. وقد تأملنا الصرح فوجدنا اللغة أمّ الرغائب والمطالب.

فإن جاءت فراشة لُغوية تُرْكوفونية أو أمازيغية تناطح العربية بقرونها الواهيةِ وتطير بأجنحة الأهازيج الشعرية والأمثالِ الشعبية السهلية الجبلية قلنا لها. لَسْتِ هناكِ! لست هناكِ!

(1) سورة الشورى، 38.

الفصل الرابع

لغة القرآن نسيج وحدتنا

- الشجرة الطيبة
- «لُوثَةُ الإفْرَنْجِ»
- التعليم الأُفُقي
- لغة القرآن نسيج وحدتنا
- محجورتان مقهورتان

الشجرة الطيبة

نقول: لستِ هناكِ! للغة ولهجة وفراشة لسانيةٍ لأنَّك تريدين الترفيه عن هوَيَّة محلية عرقية مكبوتة ونحن نريد الجد. تزعمينها ثقافة ثقافية بريئة ونحنُ قرأنا أن اللغة أُسُّ بناءٍ. ونقرأ في طبائع البشَرِ وطبائع الثقافات واللغات أنّهم وأنها يزحفون من حَلْقَةٍ إلى حَلْقةٍ، من دائرة إلى دائرة، من وثبة إلى وثبة، حتى يعود المطلب الثقافي اللهجَوِي الترفيهي مطلبا سياسيا، وحتى تدخل الضّرة البيت وتسكُبَ قطراتِ السُّمِّ في كأسِ الضرة، أو تخنُقَها خَنقاً، وتحرمها حرية وعتقا.

نقول لها: لست هناك! لأنك لا تقدرين على أداء أدنى الوظائفِ المطَوَّقَةِ بها العربيَّةُ فأحْرى أن تقدري على التعبير عن رسالة تحمِلها وحْدَها في الدنيا والآخرة لغةُ القرآن الكلمة الطيبةُ، لغةُ القرآن لغة لا إله إلا الله الواحدُ الأحدُ.

ضربنا في الفقرة السابقة مثلاً بالصرح وأسِّهِ وأعمدتِه وجلموده وقاعدته. والـمَثَل الذي ضربه الله تعالى في القرآن الكريم يخاطب خيالنا وعقلنا وروحنا مخاطبة أقوى وأجلى. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾[1].

مَثلٌ حيٌّ بحياةٍ نباتية لـمُمَثَّلٍ له حيٍّ بحياة الإيمان. مُمَثَّلٌ به قويٌّ ثابتُ الأصل شامخ الفروع مستَقِرُّ القرار لـمُمثَّلٍ له ثابتِ أصل

(1) سورة ابراهيم، 24–26.

الإيمان شامخ فروع الأعمال الصالحة مستَقِرِّ الجذور في عُمق أرض العبودية لله تعالى والطاعة له ولرسوله.

قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «الكلمة الطيبةُ»: شهادة أنْ لا إله إلا الله. و«الشجرة الطيبة»: المؤمن. «أصلها ثابت»: يقول لا إله إلا الله. و«فرعها في السماء»: يرفع عمله إلى السماء. وكذلك قال جهابذة المفسرين من التّابعين رضي الله عنهم أجمعين. وفسّروا أن المثَلَ القرآني عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح. وأن المؤمن كشجرة النخل لا يزال يُرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء.

ولهذا التفسير سنَدٌ في حديث نبوي شريف رواه الإمام البخاري عن سيدنا عبد الله بن عمر، يسأل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عن شجرة يشبهها المسلم في ثباتها ودوام خضرتها وحياتها. وذلك تعليم المعلِّمِ المعصوم صلى الله عليه وسلم.

هذا التمثيل النبوي الحي يُقرِّبنا من تصور البناء النفسي، العقلي، الاجتماعي، السياسي، الفردي والجماعي، في أمة الإسلام. الأفراد في البناء الاجتماعي عند أبناء الدنيا من شعوب الأرض ما هم إلا مادة بناءٍ، ما هم الناس إلا «موارد بشرية» يُعَدُّ لها حساب بين سائر «المواد». أدمغة الناس وذكاؤهم في الاقتصاد العصري ما هي إلا «مادة ومادية».

وفي البناء الإسلامي المثالي، الـمُمَثَّلِ لأفراده في القرآن والحديث، يكون المؤمن القوي والمؤمنة القويةُ معقِد القوة في البناء، وحياة الحياة، ومَجْنَى الثمار، ومقْتَطَف الأُكْل كل حين. يسعى المؤمن وتسعى المؤمنة ليقوَى إيمانهما لأن الله تعالى يحب المؤمن القوي الإيمان. فهذا هو

الباعث الأول. وتجني الأمة من قوتهما الخير. الرغبةُ في أن يحبني الله هي محرّك إرادتي ومعبئ جهودي للعمل الصالح. هذا أولا وأخيراً.

يُعطي المؤمن وتُعطي المؤمنة، ويبْنِي وتبني، لكنهما لا يستهلكان جائزة جهودهما في الدنيا، بل جهودهما وجهادهما أعمال صالحة تُكتب وتُرفع وتُحفظ لِيوم الجزاء في الآخرة.

هذه الشجرةُ الطيبةُ الناطقة بالكلمة الطيِّبة نبتة بدأَتْ في مشْتَلِ أسرةٍ مؤمنة، وغُذّيَتْ بِلِبَان أمٍّ مربية لقنت كلمة لا إله إلا الله في المهد، وسمعت آيات الله تتلى في البيت، ورأت الناس في البيت يتوضأون ويصلون، وشاهدت أخلاقاً إيمانية، وزحفت بأقدامها الطرية أوَّلَ عهدها بالعالم الخارجي إلى المسجد، وكانَ قُوتُ صباها وطفولتها بالقرآن، وشبَّتْ في طاعة الله، وأشرفَ القرآنُ والسنة على تربيتها، فهما لها مرجعية لا يُزاحمهما مزاحم.

مؤمن قوي ومؤمنة هما في حد ذاتهما شرط الشروط، وقوة القوة، ومَناطُ عزة الأمة. وهما بتماسكهما العضويِّ مع أمة الإسلام، وترابُطِهِمَا بها برباط الوَلاية بين المؤمنين، واعتصام الجميع بحبل الله وشريعة الله جزء حيٌّ من كلِّ حي.

ثم هما بعدَ ذلك، وقَد حَرَثا لآخِرتِهما حَرْث العمل الصالح، هدفُ الأهدافِ، وغاية الغايات. وحَّدا الله تعالى بالكلمة الطيبة نطقا واعتقادا، وأخلصا له وحده أعمالهما جهادا واجتهادا، فمصيرهما الأخروي، يوم يأتون الله أفرادا، هو سِرُّ وجودهما، ومحرك نشاطهما، وهاجسُ يومهما وليلتهما.

إن كان يبعَث الناسَ على نشاط وحركة وكسب وتعلُّم وتصنيع وتجارةٍ ضرورةُ المعاش الدنيوي، والانسياقُ في دَوْلاَبِ آلَةٍ اجتماعية،

والصراعُ على التفوق الاجتماعي، فالمؤمن والمؤمنة تحركهم أيْضا الضرورة الآنية، لكن تسمو بأعمالهما النية الصالحة إلى سماءٍ تَبْسُق فيها نخلتهما، وتوتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها.

كنا في مَثل الصرح والبناء في الفقرة السابقة مع هياكلَ وأشياء وتركيباتٍ خارجةٍ عن وجودي أنا المتكلم بالكلمة الطيبة لا إله إلا الله، وبلغة الكلمة الطيبة وشرحها وبيانها القرآنِ والسنة: وحدة، عدل، تنمية، شورى، علوم، تعليم، لغة.

هذه الهياكل والتراكيب والأشياء المبْنِية إن اتخذت أهميتها من ضرورة حياة الأمة، وأملَتْ ضرورتَها أهميةُ عزةِ الأمة ورخاءِ الأمة ووحدة الأمة وقدرة الأمة على تبليغ رسالتها للعالمين، فمعناها الغائيُّ، ووظيفتها النهائية خدمةُ القضية الكبرى في هم المؤمن والمؤمنة.

مصيري الأخويُّ أنا المؤمن المسلم، وأنا المؤمنة المسلمة، عَلِمْتُ وأيقنت أن صلاحَه لا ينفَكُّ عن صلاح مصير أمتي في الدنيا. إن فسدَت حالَة أمتي في الدنيا، وهانت، ووَهَنَتْ، وتمزَّقَتْ، وتظالمت، وحكمت بغير ما أنزل الله، فمِن تقصيري أنا، ومن مسؤوليتي أنا. وإن نهضْتُ لأجاهِد مع المجاهدين لبناء دولة القرآن فلِنَفْسِي بَغَيْتُ الخير. وإن بذلت مالي ونفسي وغايةَ جُهدي لتقْوَى أمتي، وتعِزَّ، وتظْهَرَ على الأمَم مبلغة رسالة الله إلى الإنسان، ففي حَبْلِ نفسي أفْتِلُ.

وهكذا تنتظر الأمةُ من جُهدي مددا، وأرجو أنا من ربي في الآخرة نجاحا ورَشَداً. وحدة الأمة أمر من الله، فأنا أجاهِد لتتوحد الأمة وتقوى ويَصلُحَ أمرُ دنياها. وفي صلاحها بالوحدة والقوة صلاح أمري.

إقامة العدل الاجتماعي في الأمةِ يؤمِّنُني من غوائل المستكبرين، وذلك لدنياي وآخرتي. ويحفظني من الانزلاق والانسِلاك في صف المستكبرين، وذلك لآخرتي أنا ودنيا أمتي.

التنمية والرخاء إن نَعِمت بهما أمتي، واستقْوَتْ على تَقريب مائدتهما بجهدي وجهادي، فذلك لي ولأمتي، لدنياي ودنياها، ولآخرتي خالصاً، لأنني ألقى الله وحدي، ما معي من مكاسب الأمة إلا مساهمتي في عمل صالح رفعها من تخلف، وأغناها من فقر، ووقاها شر الفقر/ الكفر.

وهكذا الجهاد العلومي، والتعليم، ودخول سوقِ التجارة العالمية بمهارة وخبرة، ما منها ميدانُ عَمَلٍ ساهمت فيه بصغيرة أو كبيرة من جهد وجهاد إلا وأحتسب عند الله، وأرجو ثواب الله، وجنة الله التي أُعِدَّت للمتقين.

وهكذا سَعْيي في سعي أمتي لنقيمَ الحكم الشوريَّ العادل، ومؤسسات الشورى المنصفة، وشريعةَ الشورَى الـمُطاعة. أخرجُ من وَعيد «من لم يحكم بما أنزل الله» وتخرج أمتي. هذه لا سبيلَ إليها بغير جهاد يخالِطُ الأحزابَ السياسية، وينازع الثقَافاتِ الفرعية التي تنقُرُ في أسِّ البناء كلِّه لتنقُضَهُ. تنقُر وتنقُض الأسَّ اللغويَّ، أسَّ الكلمة. وتنقر جذع الشجرة الطيبة وفروعها.

ما في اللغة الأمازيغية ما يُعابُ ما دام الناطقون بها متمسكين بكلمة التوحيد. ما داموا يدافعون عن لا إله إلا الله كما دافع عنها من أجدادهم مؤمنون فرسانُ حرب وفرسانُ منبر.

المؤمن الأمازيغي والمؤمنة إن تَغَنَّى لحظة بشِعرٍ أمازيغي جميل. فالأَشْبَهُ أن يختمهُ بالصلاة على النبي. والأشبهُ أن ينتقل من قصيدةٍ

جمالية إلى قصيدةٍ وعظية. والأشبهُ أن تكون على لسانه اللغة الأمازيغية، كما كانت على لسان أجداده المؤمنين وجداته، منشِدَةً في عُرْسِ الكلمةِ الطيبة وحاملةَ البَخُورِ، ومزيّنَةَ الطُّرَّةِ، لا الضَّرَّة المضرة.

لا قرار ولا استقرار في أرض المؤمنين الطيبين لنبتة السوء «الإلحاد»، الناطقَةِ بعربوفونية وأمازيغوفونية.

«لُوثَةُ الإفْرَنْجِ»

اللُّوثة –بضم اللام– الخَلْط والاختلاط والعجز عن إبانة المقصود. وقد وردت العبارة في قصيدة لشاعر العُروبةِ الكبير حافظ إبراهيم رحمه الله، نظمها وحبَّرها على لسان اللغة العربية تشكو مما أصابها من تلَوُّثِها بلغة الإفرنج حتى عجزت عن الإعراب والتعبير عن دقائق المعاني وجديدات المخترعات التقنية. نظمها رحمه الله منذ أكثر من تسعين عاما. ولو اطلع على ما آلت إليه العربوفونية من انحلال في المباني والمعاني لهالَه المشهد.

قال رحمه الله:

سَرَتْ لُوثة الإفْرنجِ فيَّ كما سَرَى لُعابُ الأفاعي في مَسيلِ فُراتِ
فجاءت كثَوب ضمَّ سبعين رقعة مُشَكَّلَةَ الألوان مُختَلِفاتِ

وتتحسر العربية لما تَرَى من ضعفها وعجزها وقدرة غيرها وقوته، فيقول:

أَرَى لرجال الغرب عزّاً ومَنْعَة وكم عزّ أقوام بعز لُغَات
أَتَوْا أهلهم بالمعجِزات تَفَنُّنا فيا لَيتكم تاتون بالكلمات!

وتجادل العربية عن نفسها من يتهمها بأن النقص فيها لا فيه، فتقول:

وسِعْتُ كتاب الله لفظاً وغايَة   وما ضقت عن آيٍ بِه وعظاتِ
فكيف أضيق اليومَ عن وصف آلة   وتَنْسيقِ أسماءٍ لمُخْتَرَعات!

استفحلت اللُّوثة والخلط على اللسان العربي وعلى كل لسان ينطق بالإسلام. بل هوجمت العربية وهوجمت لغات المسلمين، ومنها الأمازيغية، لتُقْطَعَ منها الأوداجُ وتُحزّ منها الأطراف وتقطع صِلاتها باللغة القرآنية. أمَرَ الطاغية مصطفى كمال أن تكتَب التركية بالحرف الإفرنجي، ففصلها عن لغة القرآن لتُنَشَّأ أجيالٌ لا تستطيعُ تقرأُ في المصحف. وطوَّر الفرنسيون في عصرنا نظام حروف إفرنجية لتعَلّم بها الأمازيغية في مدارس الجزائر لنفس الهدف الطاغوتي. ولَئن بعثنا من مَرْقدها حروف «تِفِناغْ» وكتبنا بها أمازيغية الثقافة السياسية بالمغرب فلن نَعْدُوَ أن نساهم في استئصال العروق التي تصل العربي والعجمي بالمصحف.

وبذلك يَضُمُّ الثوب اللغوي في بلاد المسلمين سبعين رقعة من ألوان واختلاف، كلها عاجزة، كلها مُلَوَثة، كلها عالة، كلها تحتكِم إلى اللغة السيدة.

عُجِّزَت اللغة العربيّةُ وخذلها أهلها. ما هي عَجَزَت وهي القوية على حمل رسالة الله، ولا هي ضاقت وهي الواسعة، ولا هي أجدَبتْ وهي الخصبة.

رَطَنَتْ الجرائد بلغة هجينة ملوثة منذ عهد شاعرنا حافظ رحمه الله. قال على لسان العربية:

أرى كلَّ يوم بالجرائِد مَزْلَقاً   من الموتِ يُدْنينِي بغير أناة

كانت للجرائد في عهد حافظ وسائِل بدائية لسفك دماء اللغة العربية. وللإعلام المحمُولِ على متن الكواكب الصناعية والتقنيات الرقمية في عصرنا وسائل فتكٍ تهدِّدُ حتى العربوفونية المهجّنة المدجّنة بانقراض وموت وفناء.

وذلك تعجيزٌ للغة العربية في ميادين الفصاحة، والبيان، وتبليغ أخبار الدنيا، والتعبير عن معاني الدنيا. والقرآن محفوظ، محفوظة فيه لغته.

أما التعجيز الأهمُّ فهو خذلان العربية، وإهمالُها، بهجر قرآنها ونبذ مصحفها، ثم بعرقلة مسيرتها إلى اقتناء العلوم، والتعبير عن العلوم.

في بلاد العربان معاهدُ بَحثٍ جَادّةٌ في تعريب المصطلح العلومي، بلغت في ذلك شَأْواً معتبَراً. عرَّبَت المعاهدُ المصطلَحَ العلومي ماتِحَةً من بحر المعاجم العربية تارةً لَآلِئَ وتارةً أصدافاً. لكنها عربَت. وليست المشكلةُ مشكلةَ بحثٍ نظري، فالـمُتْقنون للُّغة والجادون في خدمتها من الأساتذة الدكاترة كثْر والحمد لله. ويجب تشجيع جهودهم تَحَسُّبا لمستقبلٍ يُنسينا إن شاء الله مِحَنَنَا ومِحَن لغتنا بنا.

المشكل في التطبيق. التطبيق، وإدخالُ المصطلَح العربي في الميدان، تحول دونه القطرية الضيقة. لكل قطر معهدُهُ ومصطلحه. لاَ يرْضى مصطلَحُ قطر أن ينسِّق مع مصطلح قطر، ولا أن يتراضَى معهد مع معهد، لما عُرِفَ عن العُرْبان، والدوَلِ القومية للعربان، من تَطبُّعٍ على العصبيات الضيقة. وتذهب لغةُ العربان ضحية للتمزّق السياسي.

وهكذا نرى السياسة الممزِّقةَ تعض على اللغة الممَزَّقة كما يَعَضُّ الحَنَش على ذنَبِهِ في دائرة مُفْرَغَةٍ جَوْفاءَ جدْباءَ.

فلا الوحدةُ خدمت اللغة، ولا اللغةُ قربتْ الشقَّةَ على وحدة.

وتَعود صُدورُ كلامنا على أعْجازِهِ. الوحدة تريد عدلا، والعدل يريد تنمية، والتنمية تريد تعليما وعلوما، وتوطين كل ذلك يريد حكما شوريا، وأساس كل ذلك الوحدة اللغوية. وحدة لغة القرآن تتضمن وحدة الإيمان بالقرآن.

لو قلبنا النظامَ وقلنا: الوحدة أساس كل شيء، واللغة آخرُ السلسلة، لوقعنا في دوامة الشعارات التي استهلكت المسلمين العربان القوميين واستهلكوها.

الذي يُخرج أمة الإسلامِ من الدائرة المغلقة، ومن العُقْمِ والعجز في التطبيق، هي إرادة قوية لجَماعة مسلمين أقوياء. إرادة سياسية تخترق الحوافز، قِوامُها وروحُها تَربيةٌ ومسجد وصلاة وعبادات وطاعات. قوامها وروحها وجندها المؤمن والمؤمنة وقد نبتا مَنْبِتا حسنا في مشاتل الإيمان، وتابا إلى الله وعملا صالحا.

التعليم الأُفُقي

العِبْرَةُ والحِكمَة فيمَنْ ينطق باللغة لا في ذات اللغة: «أنا موجود فأنا أتكلم». المؤمن الشجرةُ الطيبة والمؤمنة يقولان: «أنا مخلوق عبد لله، فأنا أنطق بالكلمة الطيبة، وهي توحيدٌ وعقيدة توحيد، ولغة توحيد».

ما أُفْشِلَتْ جهود التعليم والتربية في مغرب الأمازيغ والعُربان إلاَّ لِأنَّ لغة التربية والتعليم كانت - ولا تزال - مترددة، لا ثقة لها بنفسها، إذ لا ثقَة لها بالله رب العالمين.

كانت النيةُ وطنيةً قطريةً تِلك التي نطقتْ بها الأحزاب الوطنية حين أسست مدارسَ عربيةً تحافظ بها على لسان المسلمين أيام

الاستعمار الفرنسي الإسباني. وكان مع النية الوطنية القطرية غَيْرةٌ إسلامية. ما لبثت الغيرةُ على الدين أن انسلخَتْ عنها الإرادة الوطنية القطرية التي تأَليَكتْ بعد الاستقلال «الاحتقلال» فأصبح المطلوب في أيامنا ديمقراطية لا محَلَّ في إعرابها للدين.

وامتسخ شعارُ: تعريب التعليم، وتعميمه، ومجانِيتُه، وانسلَخ، وانحطَّتْ أهدافه إلى الأرض مُتَّثاقِلَةً بهموم أرضية. وعجز التعريب، واستحال التمويل، وامْتنع التعميم.

فشِلَتْ الجهود التعليمية الأفقيةُ هذه، لتَرابُطِ الأسباب بالمسبَّباتِ، فلا مَجَّانية - أي لا عدلَ - لضعف الاقتصاد، ضعف الاقتصاد لضعف التنمية، ضعُفتْ التنمية لضعف التعليم، ضعف التعليم لتردد السياسة، ضعُفت السياسة لفساد الأخلاق، ضُعفت الأخلاق لأن التربية لا تتكلم بالكلمة الطيبة. ولأن الحكْمَ استبداد وكِسروية.

وتستَديرُ الأسباب والمسبباتُ في حَلْقتها الـمُفْرَغةِ عوداً على بدءٍ.

وأمام أبناء المغرب والمشرق المسلمين من عربان وعجمان تحدِّي المستقْبلِ الكالِحِ وجْهُهُ، المخسوفةِ شمْسُهُ، عَمَّن لا تتسع لغتُهُ لتعليم أفقي مُعرّبٍ، معمَّم، مجانيّ وعَمَّن لاَ تتعمَّق لغتُه لتَحمِلَ الحصائل التكنولوجية العلومية، وعمَّنْ لا تتأصل لغتُهُ في أرض ذاتِه لتَبْسُق في سماء الإحسان شجرةً طيبة ثابتة الجذع مورقة الأفنان مثمرةَ الأغصان.

المطلب الأفقي للتعليم حاجة مُلحَّة. محو الأمية الحرفية الأبَجدية يكسب المسلمين والمسلمات وعْيا بحقائق دنياهم. محو الأمية عندنا يبدأ من قراءَة آيات الله، يبدأ من التعرُّف على كتاب الله. ثم يفتح الأعين والعقول على حقائق الدنيا، ينظر إليها بمنظار الإسلام. وبذلك

تَلْحَقُ التوعيةُ بأمور الدنْيَا التوعية بالمصير الأخروي. لا تتنازع الدنيا والآخرة في العقول والقلوب ولا تتنافيان.

تعليم أفُقيّ له جذور في عمق الإيمان بالله وباليوم الآخر.

وتَرويضٌ للغة المصطلح ومناهج التعليم والتدريب والتكوين وإعادة التكوين واستمرارية التكوين لمسايَرة ضرورات المستقبل الدنيوي دون التخلي عن ضرورات المستقبل الأخروي.

قاموس المستقبل يُقْرأ منه: أولا: تعليمٌ له جدوى، له خطة، له أهداف تسيِّـرُه عقلانية ضابطة. ثانيا: تعليم له مردودية اقتصادية، له خِبرة بإدارة المال والأعمال. ثالثا: تعليم مَرِنٌ يتكيف ويتطوَّر ويبتكر ويبحث وينفق على ابتكار وبحث.

ومن قاموس المصير الأخروي نَقرأ: أولا: تعليم وتربية تصل العبدَ بربه، وتخبره الخبر اليقين عن النبإ العظيم، نبإِ الآخرة. ثانيا: تربية وتعليم ترفع إرادةَ المسلم والمسلمة وأخلاقهما إلى مطامح يُبذلُ في سبيلها الجهد والمال. ثالثا: تربية وتعليم لتنشئة أحرار يمتنع أن يهينهم طغيانُ طاغ، يحكمون بما أنزل الله. أمرهم شورى بينهم. لا يعبدون أحدا إلا اللهَّ.

لغة القرآن نسيج وحدتنا

يحار المرء إذا تأمل المسرح السياسي المغربي، أيهم أشدُّ تمزقا وإسراعا إلى تمزق: العربان الحزبيون أم الحزبيون الأمازيغ. كانت الحركة الشعبية أوّلَ نشأتها انتفاضة ضد التوجه إلى تفرّد الحزب الوحيد، والتقت فيها عقليات وشخصيات تصادمت فانشقت، ثم انشقت،

ولا تزال في انشقاقات. انشق حزب الاستقلال بُعَيْد الاستقلال لعوامل أهمُّها المسألة الاجتماعية. يسارٌ نأى عن القيادة الاستقلالية التي حافظت على الجمهرة الاستقلالية، فيها المتمولون والفقراء الشعبيون. وانشق اليسار، ثم انشق ولا يزال في انشقاق تِلو انشقاق، كلما ظن اليساريون أنهم كسبوا قاعدة نقابية في صفوف المستضعفين نبعت يسارات أخرى بعضها يَحقِن تمرُّدَهُ في القواعد من أباريق الكراهية الثورية «للفيوضالية»، وبعضها «نخبة» مثقفة تدمِنُ على المهارشات الإديولوجية.

كان يُظن أن الحركة الشعبية، الأمازيغية أساسا، ستكون لها اللغة دَرَقَةً تحتَجِن خلفها من عوادي الفرقة، لكن اللغة لم تجمع الأمازيغ كما لم تجمع الأحزاب الوطنية الأخرى العربية التي كانت اللغة العربية، والدفاع عنها، وبناءُ المدارسِ الوطنية الحرة، سلاحَ قتال حمله الوطنيون المؤسسون رحمهم الله في وجه الفرنسية والتلويث الإفرنجي. كانت هذه المدارس الحرة الوطنية تعلم القرآن، وتتكلم بلغة القرآن. لا بعربية عربوفونية مجردةٍ من الدين، بريئة من الدين. وكانتْ قوة، وكانت عُدّة، وكانت مشاتِل ربّتْ مؤمنين ومؤمنات، وشجرات طيبات.

وتبخَّرت الروح القرآنية من مدارس دولة الاستقلال، وتلوث التعليم في مدارس دولة الاستقلال. وفشِلَ الطموحُ الوطني إلى تعميم وتعريب ومجانية. واكتظت المدارس والجامعاتُ بشباب انطفأت فيه الشعلة الحماسية التي شبّتْ في النفوس غداة الاستقلال، وألهبت العواطف، وأظْمأت العقول إلى التعلُّم في مدارس محو الأمية التي كان الرجل والمرأة، والشاب والشيخ، يتسابقون إليها كما تتسابَق الهِيمُ إلى الـمَنْهل العذب.

لا بد من الاعتبار بما حدَث قَبْل شُبوب الشعلة الثقافية الأمازيغية الحاضرة لنتَوَسَّمَ مستقبل الثقافة الأمازيغية. ما جمعت الأمازيغَ اللهجاتُ الأمازيغية التي كانت – ولا تزال – شِعارَ الحركة الشعبية الفخورة بأصولها الأطلسية. أفَإِنْ زِدْنا في الطُّنْبورِ نغمَةً، وصعَّدْنا الحماسَ الأمازيغيَّ في المحافل الأمازيغية والمنشورات الأمازيغية يمكن أن نجمع شملاً، ونوحِّدَ على جِذْع التاريخ فروعا؟ أمْ ستكون الكلمةُ الأمازيغية كما كانت المدارس الحرة المؤمنة جَذْوةً وتنطَفِئ، وصيحةً في واد، ونفخة في رماد؟

هل توحِّدُ يوما الأمازيغية وسياستها الثقافية وثقافتها السياسية المتفاقِمَ غَيْرَ المتناغِم من أوشاب الناسِ وطبقاتهم الاجتماعية؟ هل تُساهم في رَبْط الشعب ربطا عضويّاً وهي أساسا ثقافَة فئة من المغاربة، بل هي لهجات فئات من المغاربة؟ هل تُساهم في تنغيم الانسجام الثّقافي المطلوبِ المرغوبِ الغائبِ الممتنِع، وهي نغمة خاصَّةٌ، بل نغَمات؟ هل تنجح الأمازيغية الثقافية حيث فَشِلت الشعبية السياسية الوطنية البربرية، وتوحِّد وتجمَع بالنضال اللغوي ما لم تجمعه السياسة بالنضال السياسي؟

محجورتان مقهورتان

إن للغة ارتباطا عضويا بالفكر، والشعور، ومظاهر الحياة المادية، وبواطن الحياة الروحية، وبالسلوك، والأخلاق، وبالعلوم، وبالعدل، والتنمية، ونظام الحكم. والأمازيغية الثقافية ضعيفة البُنية، قليلة الكفاءة، قاصرةٌ عن الربط، وتقويم الخُلُق، والنهوض بأعباء التنمية وترويض العلوم. وما لَعِبُها، ولعبُ العربوفونية القومية اللادينية،

في ساحة المحجورين الـمُهَمشين عن ميدان الفعل والتصرُّف إلا تسلية وسُلوان.

واللغة السيدة بالفعل هي اللغة الإفرنجية المسيرة للإدارة والاقتصاد ودواوين الدولة.

تختصم المحجورتان، العربيةُ والأمازيغية، وتلعبان في الساحات الصغيرة وللكبار عنهما عُزوف، ومنهما اشمئزاز، ولهما ازدراء. وكأننا شعب بدائي، وكأن أحزابنا السياسية، الوطنية منها الشعبية، والديمقراطية، والتقدمية اليسارية، واليمينية اللبرالية، رُقَعٌ مُلوَّنة لُفِّقَتْ على ثوبٍ ممزق. كأن نسيجنا الاجتماعي اتسعت خروقه على الراقع، فجلس الناس يزيدونه تمزيقا على تمزيق.

كأننا شعب بدائي لا سبيل له إلى العالمية الإنسانية الوسيعة إلا بتبنّي اللهجات، وعرض الفلكلورات على السائح والجائح! نتبنى القضايا الصغيرة، ونعرضُ على الناس، كاذبين على أنفسنا، خصوصياتِنا المحلية لنوهِم الناس ونوهِم أنفسنا أننا في قِمَّة الرُّقيِّ الثقافي، وعلى رأس القافلة في التجمعات الفرنكوفونية، نتميز عن الناطقين بها بعبقرية لها مذاق ألف ليلة وليلة، وعبيرُ النسمات الأطلسية.

ما هذا الأمر لَعِبٌ، بل هو جد. ما هي القضية هُوَيةً ثقافية نستعيد بها الثقة بأنفسنا، بل هي قضية مستقبلٍ في العالم، نكون فيه أمة عزيزة، أو صفرا على الشِّمال، وهملا، وأشباهَ رجالٍ ونساء، ولا رجال ولا نساءَ.

إن الازدواجية اللغوية الضرورية ريثما... بين لغة الأمة وبين لغةٍ من لُغات العلوم والصناعة، لا تحتَمل أن تناهضها ازدواجيات محلية. نَعلَم يوماً ما، حين يكتمل وعينا بما نحن في العالم وما رسالتنا،

أن اللغة الأجنبية الضرورية ريثما... هي عندنا عاريةٌ وعَصاً يتوكأ عليها الأعرج. فذلك من ضرورات المعاش أن يتوكأ الأعرج ريثما تصح رجلاه.

أما أن تتقاتل فيما بيننا، نحن المسلمين، وتزدوج، وتتثلث، وتتربع، لغات ولهجات فذلك التمزيقُ المميتُ. تُفضي الازدواجيات المتقاتلة إلى ازدواجية في الوَلاء، ويُفضي ازدواجُ الوَلاء عاجلا أو آجلا إلى خصام كالذي نشاهدهُ في بلجيكا وكندا حيث تتصارع لغتان وثقافتان، وحيث يطلب الفلامانيونَ البلجيك الانفصال الكليَّ عن الفرنكوفونيين الوَالُّون البلجيك، وحيث يَحتكم الكنديون في كيبيك إلى صناديق الاستفتاء ليستقِلّوا استقلالا كاملا ونهائيا عن الدولة الكندية المزدوجةِ اللغةِ مبدئيا، الأنجلوفونية عمليا وسياديا.

الازدواجيات المتصارعة في الساحات الثقافية، لا تلبث أن تُشعل حريقا سياسيا في البيت، وأن تُحْرِق الأخضَرَ باليابس لتلتقط أسلاب السيادة. فتُهدَرُ جهود وطاقات، ويتسلسل الانفكاك والتفكك، ويُسحبُ الشعب الواحد إلى الحرب الأهلية التي لا تبقي ولا تذر.

في بلد المسلمين الجزائر حرب أهلية بين المسلمين، لَهْفَ نفسي على الجزائر!

وفي أفغانستان حرب أهلية بين المسلمين، لَهْفَ نفسي على أفغانستان المجاهدين!

قبائل في أفغانستان ولغات ولهجات. غلبت العصبية القبلية القديمة وحدةَ الدين، وغلبت الصراعية اللغوية رابطةَ الدين. ووجدت القوة العالمية المستكبرة في أمريكا ثغرة وثغرات بين قبائل المجاهدين الذين طردوا الاتحاد السوفياتي بأسلحة الولايات المتحدة

الدولة القويَّة. حتى إذا وضعت الحرب الباردة أوزارها احتطبَتْ الولايات المتحدة الماكرة الغاوية المستكبرة وَقودا من عصبيات القبائل وصراعيات الانتماءات الثقافية لتحيط ثورة إيران بسياج من نارِ أمنها.

ما جمع الإسلام شتات أفغانستان لأن التربية الناطقة بكلمة التقوى الكلمةِ الطيبةِ غلبتها على النفوس والعقولِ التربيةُ القبلية فلم تزدهر شجرات طيباتٌ، ولم يُمْكن عدل يجمع، ولا تنمية تغَذّي عدلا، ولا نظام حكمٍ أصيلٍ متجاوِبٍ مع العقيدة، ولا وحدةٌ على كلمة التوحيد.

وفي الجزائر فعل التمَزّق، بل التمزيق، اللاديني ما فعلته القبلية في أفغانستان. خَرَّ للأذقانِ النظام الشيوعي الملحد الذي لعبَ به الاتحاد السوفيتي لعبة النار مع أمريكا. وها هي اللادينية في الجزائر تطعن في خاصرة الوحدة الإسلامية بخناجِرَ حديدُ شُفْرَتِها قبائليون ملحدون، ومضاءُ نَصْلِها مناضلون في حرب لغوية تقاتل فيها الأمازيغية لغة القرآن.

ما كان يجدُ عدوُّنا من خارج فرصةً ليستغِلّنا ويمزقنا لولا أن منا أعداءً لأنفسنا، هم أشدُّ نكايَة فينا، وأبلَغُ أثراً، وأقدرُ على استئصالِ الروح من الجسد، واعتصار أسباب القوة من منابع القوة.

الجزء الثاني من الحوار

تعليقات الأستاذ محمد شفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي عبد السلام،

إليك تعليقاتي على بعض ما جاء في جوابك على رسالتي:

1 . أوافقك على أن «ثقة العامة بالنخب المتعلمة إنما هي حُلْمٌ»، لكن، أضيف أنَّ ثِقَةَ العامّة بـ«النُّخَبِ» الجاهلة طوال قرون وقرون هي أَصْلُ الدَّاءِ. وَلَيْسَ جَهَلَةُ اليَوْمِ خَيْراً مِنْ جَهَلَة أمسِ فما هو العلم الذي ينبغي أنْ يُعتمد؟ أَلِّف كِتَاباً في الموضوع، وتوسَّع في التحليل، رَحِمَك اللهُ.

2 . تقول: «مَا فِيهِ النَّاسْ اليومَ جناية ارتُكِبت بِاسم الإسْلاَم... » ما إخالُك غَافِلاً عَنْ كَوْنِ تاريخ المسلمين مَلِيئاً بِالجنايات التي ارتكبت باسْمِ الإسلام، فِي كل قرن مِن القرون الأربعة عشر الخالية. أتَزعُمُ أَنَّك ستغيِّرُ مجرى الأمور لأَنَّك، أنت، تتكلَّم، عن حسن نيةٍ، بِاسم الإسلام؟ لَقَدْ كَانَ الدِّينُ ذَرِيعَةً للساسة منذ القِدم، يتذرّعون بِهَا لأَنَّهَا أَحْجَبُ الذرائع للنَّوَايَا السيئة وللأطماع. كفاك فخراً أنت أن يُشهَد لك بحسن النِّية؛ وَاحْذَرْ أن تقِيس على نَفْسِك، وتظنَّ أنَّ كلَّ «غيور» على الإسلام حَسَنُ الطَّوِيَّة.

3 . تدعو الديمقراطيين لِلحوار... حَسَناً! فما الحوار، وما شروطه؟ من شروطه الأولى حرِّيَّة التعبير. فَمَا دَامَ أحدُ طَرَفَي الحوار يَدَّعِي أنَّ مسلّماته هُوَ هي القاعدة وَالأساس، وَأنَّ النتائج كُلَّها موجودة بِالقُوَّةِ فِي المقدِّمات التي يفرضها هُوَ، فلا حِوار ممكن ؛ المنطق الديني شيء، والمنطق الجدليّ شيء آخَرُ. وَالمعروف أن الـمُحَاوِر فِي نطاق المنطق

الديني ميَّال إلَى الاعتقاد أنَّ فَهْمَهُ وَحْدَهُ للدِّين هو الصحيح. وَالدين، بل الإيمان، يتنافى وَالمنطق الجدلي. فَمَا الحَلُّ؟ الحلّ، في نظري المتواضع هُوَ أنْ لاَ يُمَارِسَ الإنْسَانُ المؤمن الوثيق الإيمان السياسةَ في مُسْتَوَى الحُكْم وَالتدبير العامِّ ؛ وَإنَّمَا يمارسُها بطريقة غير مباشرة، بأنْ يكون قُدْوَةً لَلنَّاس أوَّلاً، وَأن يَقومَ بِالوَعْظ وَالإرشاد في غَيْرِ رياءٍ وَغَيْرِ تَزكِيَةٍ للنفس. هَا قد كنتَ ولا تزال وَعّاظاً شُجَاعاً مُخْلِصاً، جزاك الله. ألست تقنع بذلك؟ أم هل أَرَاكَ رَاغباً في ممارسة الحُكم... بِاسم الإسلام؟

4. تقول: «أنا لاَ أمانع أن يُلحد الملحدون. ليجهر بإلحاده منهم الشُّجَاعُ الجريء». عهدي بك، أخي، تجادِل بالَّتي هي أحسن ولا تُرْهِبُ. فلماذا تُعِدُّ من تنكيل بـ«الملحد الجريء»؟ ألست تعلم أن الملايين من المسلمين المؤمنين يعيشون في دِيَار الكفر وَالإلحادِ دُونَ أن يتوعَّدهم الملحدون؟ أم تريدها حُجَّةً على الإسلام؟ أين نحن من قول الله عزّ وجلَّ ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ وَمِن قوله تعالَى ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾. أرَى، وَاللهُ أعْلَمُ، أنَّ الشِّرْك وحده هُوَ الَّذِي لا يجدُر بالـمُسْلِم أن يُجادل في شَأنِهِ لأنه مرفوض بِالذَّوْقِ والحَدْسِ والعَقْلِ والـمَنْطِق. أمّا جُموحُ العَقْلِ فَلَهُ كَوَابِحُ في العَقْلِ نَفْسِه. لَيسَتْ براهيُن الملحدِ العقليةُ أقوى من براهين المؤمن العقلية فللمؤَمن دِينُه، وللملحد دَيْدَنُهُ رَيْثَمَا يُرْشِدُهُ عَقْلُهُ بِتَرْشِيدٍ مِنْ رَبِّه ﴿ **مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ**﴾.

5. تقول: «كَانَ الرِّقُّ نِظاماً شَرْعِيّاً...». فما موقف الإسلام اليومَ مِنَ الرِّقّ؟ إنَّ بِشأنه لاخْتِلاَفاً كبيراً بين «العلماء»، حَسَبَ ما أعلَم. وكان منهم فِي القَدِيم مَن اعتبر الرَّقِيقَ حَيَواناً مِنَ الحيوانات، عَمَلاً بالقَوْلَةِ المعروفة: «إذا اشتريتُمُ الرَّقِيقَ أو غَيْرَهُ مِنَ الحَيَوان، فَلاَ تُغَالُوا فِي الثَّمَنِ!». مَا رأْيُك أنت؟

6. في ما يتعلّق بنص رسالة هشام بن عبد الملك لعامله على إفريقيا، بخصوص الجواري البربريات، انظُر أطروحة الأستاذ محمد الطالبي التي عُنوَانها «الدولة الأغلبية»، نشر «دار الغرب الإسلامي» الطبعة الأولى، 1985م، الصفحتين 38 و39 بتعاليقهما.

7. فِي أكثر من مكان في جوابك تهاجم «اللائيكية» وَ«التَّلْيِيك». فما اللائيكية؟ هِي أن لا يكون الإنسان راهباً. تَنَبَّه، أخي العزيز، إلى أنّ الإسلام يتنافى والرهبانية، أوَّلاً، وَإلَى أنَّ الإسلامَ لا ينبغي لَهُ أنْ يُسلِّط على المؤمنِينَ «إكليروساً» يتصرّف في ضمائرهم ؛ الإسلامُ، أخي، هُوَ الَّذي ابتكر «اللائيكيّة» دونَ أن يُسَمِّيَها. اللائيكية هِي مَبْدَأ أولاً ﴿لاَ إكْرَاهَ في الدِّينِ﴾، وممارسة ثَانِياً، ممارسة الحوار والجدال ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فَلاَ قَهْرَ وَلاَ إرهَابَ. و«اللائيكية» بعد هذا مجالٌ للاجتهاد غيرِ المحدود المكانِ وَلا الزمانِ. أمَّا أن يُقالَ -كما يقول بعض «علمائنا الكبار»- أنَّ بابَ الاجتهاد قد أغلق، فذلك تعسّف عن جادة الفِكْرِ الإسلاميّ، مِنْ ورائه تشبّث بما يُعتَبَرُ «حُقوقاً اجتماعية مكتسبة». وَاللائيكية هِيَ أن لاَ يُوجَدَ بَيْنَ المؤمنين من يُنَصِّبُ نَفْسَه مُفَتِّشاً للضمائر باسم الأمر بالمعروف وَالنهي عَن المنكر، معروفه هو وَمُنْكَرُه هُوَ. لَوْ لَمْ يكن عَبْدُ العزيز بْنُ سعودٍ مَلِكاً إذْ اسْتَعْمَلَ التيلفون لأوّل مَرَّةٍ لأُعْدِمَ لأَنَّهُ، في نظرِ علماء الجزيرة، يكون قد أَتَى منكراً «من عَمَلِ الشَّيْطَانِ». أَلَمْ يَحِن الوَقْتُ لتحديد مفهوم العِلْم؟ ابْدَأ مِنْ هذا، أَخي، وجَادِلْ فيه «العلماء» الرسميِّين وَغير الرسميّين. ما هِيَ نوعيّة «العِلْمِ» التي بإمكانها أنْ تُسَاعِدَ المسلمين في نفض الغبار عن فكرهم وزرع بذور الرحمة في قلوبهم؟ أَكْثَرُ ما أخشاه هُوَ أنْ يظَلَّ الجهلُ عِنْدَنَا يتقمّص قميص العِلْمِ بِدَعْوَى أنّه هُوَ وَحْدَهُ يحمي المِلَّةَ والدّين.

8. تَتّهمُ الديمقراطيات الغربيّة، وَالصهيونيّة... ، وتجعلها مسؤولة عما أصابنا وَيُصِيبُنا مِنَ الشرور. فَمَنِ المسؤول الأوّلُ عن أوضاعنا المزرية؟ أَلَيْسَ علماؤنا وفُقهاؤنا وَسَاسَتُنَا هم المسؤولين، منذ أن جَاءَ بِهَا ساستنا «هِرَقلية قُوقِيَّةً» أوْ «كِسْرَوِيَّةً فِرْعَوْنِيَّةً» وَمُنْذُ أن صَارَ «علماؤنا» يعتبرون «كُلَّ» بدعة ضلالة ويحتكرون قدرة الفهم لِلْبِدْعَةِ مَا هِيَ. ادْعُ المسلمين، رَحِمَك اللهُ، لاَ للكراهيّة الخانقة المضنِية، لَكن لمراجعة النفس وَمُحاسَبَتِهَا بِرِفْقٍ وفي طُمَأْنِينَةٍ ؛ وَسَيَقْتَنِعُ الخَصْمُ وَيعلـمُ العَدُوُّ آنَذَاكَ أنَّ للمسلمين شَأْناً صَارُوا يَتَفَقَّدُونَهُ بِجِدٍّ.

9. لا لتهميش الدِّين. ولا لاتِّخاذِهِ ذَرِيعَةً للتَّجْهِيلِ. الـمُشْكِلُ المطروح إذن هُوَ: مَا الَّذي يُؤهِّلُ للحَديثِ باسْم الدِّين؟ العِلْمُ بِالكِتَابِ وَالسنّة؟ لقد كان الحجّاج بن يوسف عالِماً بالكتاب والسُّنَّة، وقَدْ كان عبد الحيّ الكتّاني عَالِماً بِالكتاب والسُّنَّة. الحَلُّ في رأيي المتواضع هُوَ أن يُسمح بالحِوَار الحُرِّ الَّذي لَيْسَ فيه سِبَاب ولا قَذْفٌ بالبهتان ولاَ مُغَالاَة، ولاَ إرْهَابَ ولاَ تَأْلِيبَ للجَهَلَةِ علَى الـمُخَاطَبِ بدعوى أنه «كافر».

10. تقول: «لاَ أزال أنتظر من يُقنعني نظريّاً وبالمثال الواحد الحيّ أنَّ الديمقراطية واللاّييكية تفترقان وَيبقى للديمقراطية مدلول كامل». فهل تستطيع أنت أنْ تُبَرْهِن على أنّ الحُكْمَ بِاسم الدين عادل بِطَبِيعَتِه وطبعه؟ بل قد دلّت تجارب الأربعة عشر قَرْناً الماضية أنْ لاَ دِينَ سالِمَ وَلا عَدْلَ قائم، في أغلب الحالات، كُلَّما ادَّعى الحُكام أنهم هُمْ وَحْدَهُم الساهرون على صِحَّةِ العقيدة. وقَدْ برهنت الديمقراطية على أنها لا تضطهد مُتَدَيِّناً ولا تمنعه من دعوةٍ لدينه ولاَ وَعْظٍ لِمَنْ اتَّـبَعَ مِلَّته عَنْ طِيبِ خاطر ؛ وهي باذلة جُهْدَهَا من أجلِ إقامة العَدْلِ في نطاق المجالِ الذي لها فيه نفوذ. وهي حديثة النشأة كما تعلم، يُعاديها

رجال الدين كما يعاديها رجال المال، وتعاديها كلُّ «خاصةٍ» مُرَشَّحةٍ لاستغلال «العامّة». فَإِنْ كانت الدعوة الإسلامية مُوَجَّهَةً للناس كافَّةً، فإنَّ تاريخَ المسلمين حَافِل بالأخبار الَّتي يُسْتَقْرَأُ منها أنَّ فِي كلِّ قُطر إسلاميّ، وفي كل عَصْرٍ من العصور التاريخيّة، تَكوَّنت «خاصة»، إن باسم «العلم» و«التقوى»، وإن باسم «النَّسَبِ»، فاستدرجت «العامة» للانقياد لها في مرحلة أولى، ثم أخضعتها وَطوَّعَتها بالقُوَّة والمراوغة والدّسيسة واستغلّتها أبشع استغلال، مُوهِمةً إيَّاها أنها صارت تحكُمها بمقتضى مشروعيّة تاريخيّة. ولا غَرْو أن تكون كلُّ «خاصّةٍ» تُرشِّح نفسَها للاسْتحواذ على الأمور، لاَبِسَةً زيّ الصلاح والرشاد، وقَدْ يكون مُؤَسِّسُها الأوَّلُ، أو بَعْضُ مؤسّسِيها الأُولِ، على جانب كبيرٍ من الزُّهْدِ في زخرف الدنيا، بالفعل والـمُمارسة ؛ لكن سُرعان ما يَتحوّل الوضع من حال إلى ضِدِّه... فَلِمَا لاَ نستنبط أحْكَاماً جديدةً من مفهوم الشورى في الإسلام، في ضَوْءِ التجارب الديمقراطية التي مَرَّ بها غَيْرُنَا من الأُمم؟ أم تُرَاكَ، أَنْتَ أَيْضاً، تعْتَبِرُ الشورى وَقْفاً موقوفاً على «أهل الحل والعقد»، أي على أصْحَابِ المصالح والامتِيازات المادّية والاجتماعيّة، أي على «الخاصّة»؟ وَلاَ تَحسَبَنَّ أنَّ أهْلَ «العلم وَالصلاح» راغبون عن المنافع العاجلة. لا يُحْصَى منهم عَبْرَ التاريخ، عدد الذين بَدَّلوا الصّكوك الأُخرويّة بالصكوك الدنيوية ملتمسين لتصرّفِهم الأعذار، محتجّين بآية قرآنية أو حديث. ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ**﴾.

11. أنت أيضا تُسَمِّي «ظهير 16 ماي 1930» بـ«الظهير البربري»! هنا تظهر عصبيتك للعروبة بصفتك «شريفا إدريسيّا». بأيّ مبرِّر يُنسَبُ ذلك الظهير إلى «البربر»؟ هل حرّروه وكتبوه؟ هل استصدروه؟ هل قبِلُوا فحواه وَمضمونه؟ لقد كانَ أكثرُ رجالهم إذ

صدر ذلك الظهير إمّا في خنادق الجهاد، وإمَّا في غيابات السجون الاستعماريّة، وإمّا في أقصى المنافي، بينما كان مُرشَّحُو الوطنية الكلاميّة أو آباؤهم يشاركون المستعمر حفلاته عند انتصاره على «الشلوح» ويهنِّئُونَه بالخُطَب والقصائد الشعرية. لقد جاء الوقت لنُحصِيَ عدد الذين استُشهِدوا دِفاعاً عن الوطن والدين بين 1912 و1956، ونعلـمَ من كانَ منهم «بربريّاً» ومن كان منهم غيرَ «شلح». عهدي بك أخي عبد السلام، بحّاثة تستقصي الأمور؛ فكيف بك لم تَتَلَقَّ إلاَّ خَبَرَ «الظهير البربري» الذي لم يُرَدْ من ترويجِه الـمُكثَّفِ، في «عهد الاستقلال»، إلاّ إدانةُ الأمازيغ وإقصاؤهم من دوائر المسؤوليات وميادين النفوذ السياسي ومجالات الانتفاع الاقتصادي. فَلِمَ لم يَأتِك خَبَرُ ذلك الوَطَنِيِّ الغيور الذي لا يزال يُشاد بذكره ويُتَمثَّلُ بـ«بطولاته» رغم أنه جَعَلَ الـمَغْرِبَ أخاً من الرضاع لفرنسا، مُستشهِداً في ذلك بـ... بالبيت الآتي، لأبِي الأسود الدُّؤَلِيِّ:

فـإنْ لَمْ يَكُنْهَـا أوْ تَكُنْـهُ، فإنَّـهُ أخُوهَـا غَذَتْـهُ أمُّها بِلِبَانِهـا

فهَلْ تعلَم، أخي، ما الذي اضْطَرَّ ذلك «الوطنيَّ الغيور» إلى مؤاخاة فرنسا برضاعِ لِبان أمّها؟ لاَ، لأنَّك تكتفِي من الأخبار الوطنية بما يأتيك ملفوفاً في مناشير الدعايات السياسيّة المغرضة. لقد آخى ذلك «الوَطَنِي الغَيورُ» فرنسا في خُطْبَةٍ (منشورة!)، سنة 1924، إذ كَانَ «برابرة» أيت واراين، وأيت حديدّو، وأيت مرغاض، وأيت عطّا، وأيت خبّاش، وأيت... ، وأيت... ، إذ كان أولئك «البرابرة» يُكبِّدون الجيوش الاستعمارية الهزائم، رغْمَ ضعف عتادهم وقِلَّةِ عُدَّتِهم، ورَغْمَ خذلان «الحاضرة المتحضِّرة» من المغاربة. وَفَاهَ ذلك «الوطني الغيور» بخطبته الشنيعة تلك إذ كان برابرة أيت ورياغل، وأيت توزين، وإكزنّاين، وأيت...، وأيت... على وشك طَرْدِ الفرنسيس

بالقوّة من فاس ومن المغرب كُلِّه. ولقد كان عبدُ رَبِّه، صديقُك الوفيُّ، لا يَرَى سَبَباً لمؤاخاة فرنسا من قِبَلِ رَجُلٍ صَارَ «وَطَنِيّاً» ؛ فإذا به يَرَى السَّبَبَ يَوْماً من آيَّام 1958 إذ سَمِعَ بأمِّ أذْنِه قطباً من أقطاب الوطنية الكلامية الاتِّجارية يقول: «يْحكمونا لِيهودْ وما يْحكموناش الشّلوحْ!». لَمْ يُنْشَرِ «الظهير الفرنسيّ العربيّ» حَتّى تَبيَّنَ أن «البربر» انهزمُوا حَرْبِياً وأنَّ «وَطَنِيِّينَ لِطَافاً» سَيَخلُفونَهُمْ.

هذا، ثُمَّ ماذا تَعلَمُ، أخي، عِلْمَ يَقِينٍ، عن «سياسات التعليم البربريّ في المغرب»؟ عَبْدُ رَبِّهِ خِرِّيجُ ذلك التعليم، وهو يَشهَدُ أمام الله أنَّ ما قيل بِشأنه من الأكاذيب أكثرُ بكثير مِمَّا قِيل من الحقائق. الحقيقة الأولى الثابتة هي أنَّه كان للفرنسيّين نوايا خبيثة فَضَحُوهَا هُم بأنفُسِهم. وَالحقيقتان الأخريان، الثابتتان أيْضاً هما أنَّ المستعمر لم يَكَدْ يُنَفِّذُ من سِياسته شيئاً يُذكر، وأنَّ رَدَّ الفِعْل ما لَبِثَ أنْ صَدَرَ عن «البربر». أوَدُّ لَوْ يُحْصَى عَدَدُ تلاميذ الثانويَّات الذين حُكِمَ عليهم بالأشغال الشَّاقَّة سَنَةَ 1944. ألَمْ يُقَلْ لك قطُّ إنَّ أوَّل من أمضى وثيقة المطالبة بالاستقلال، في تلك السنة بالذات، هو عبد الحميد الزمّوري، بصفته رئيساً لقدماء ثانويّة أزرو؟ أمْضَاهَا وَنَابَ في إمْضَائها عَنْ زَمِيلَيْن له في الدراسة لم يتمكنا من الحضور، فَصَدَّقَا على إمضائه نِيَابَةً عنهما، وسُجِنَا وعُذِّبَا أكثَرَ مِمَّا عُذِّبَ غَيرُهما «نظراً لِصَلاَبَتِهِمَا» كما قيل لَهُمَا. واسمَح لي، بهذا الصَّدَد، أن أتساءل: هل التعليم التقليديُّ «الأصِيلُ» يحمي خِرِّيجيه من الزلل وَيُجنّبهم الخِيَانة؟ أنْجَحُ «وطَنِيِّي الكلام» حسب ما أعْلَمُ خُرِّجوا في المدارس الفرنسية، فأبْلَوْا البَلاَءَ الحَسَن في جِدَالِهِ.

أمّا «الشُّعوبيّة» التي تُدينُهَا بِدُونِ مُحاكمة، فَلَمْ تَكُنْ إلاَّ رَدَّ فِعْلٍ ضِدّ العنصرية العربية. حُجَّتِي في ذلك، وهي كافية عن غَيْرِها، أنَّ العربَ لا يزالون حَتَّى يَوْمِنا هذا يُعرّفون الشعوبيَّة بِأنَّهُمْ «قَوْمٌ...

لاَ يُفضِّلُونَهُمْ [أيِ العَرَبَ] على العَجَمِ». فإذا كنْت تَرَى للعرب فضلاً على العَجَمِ فاعتَبِرْنِي شُعُوبِيّاً.

12. فكَأَنَّ الأُمِّيَّةَ في نظرك فضيلة. أَتَنْسَى، عزيزي، أَنَّ الأُمِّيَّةَ، ما عدا أمّية محمد عليه الصلاة والسلام، هِيَ مَعْدِنُ الجَهْلِ، ومَطِيَّةُ الفِكر الخُرَافِيِّ، والـمَرْتَعُ الخصب لكلّ شعوذة؛ الإيمانُ الفِطْرِيُّ لا يتناقض والمعرفةَ الحَقَّ، تلك التي تُنِير السَّبِيلَ لَصَاحِبِها دُونَ أن تمنعه من التوكّلِ على الله والتفويضِ لَهُ في كلِّ آنٍ وحِينٍ. أعْلَمُكَ عَدُوّاً للْعَقْلِ المتحجِّر لاَ للْعَقْلِ المستنِيرِ بِنُورِ الخالقِ الذي لاَ يُدرِكُ كُنْهَ وجودِهِ فِكر وَلاَ نظر؛ أنْ يُسَلِّمَ بوجوده وَجبروته وَعظمته شيءٌ، وأن يُرغَبَ في الأُمِّيَّةِ، أوْ يُنَوَّهَ بِهَا، بِدَعْوَى أَنَّهَا مُلاَزِمةٌ لـ«إيمان العجائز» فهذا شيء آخر، ومنطقٌ ذُو حدَّين، قَدْ يعتمِدُه الإنسان الصَّالِحُ المصلح، مِنْ أمثالك عَنْ حُسْنِ نية، رأْفَةً بِالأمّيِّين؛ وقد يعتمدهُ المشعوذ النصَّابُ الـمُرَائِي ويَتَّخذه أدَاةً فَعَّالةً لاستغلال... «العامّة». أتُريد أن أصِفَ لَكَ مَشَاهِدَ شَاهَدْتُها وَأَقُصَّ عَلَيْك قِصَصاً سَمِعتُها في الموضوع، وهي بِالمائات؟...

13. تَخافُ من العُقُولِ المتحجّرةِ مِثْلَما أخَافُ. كيفَ اتّقاءُ شُرورِهَا؟

14. «النية الحسنة قد تكون مَدْرَجَةً للعنف الفظيع والظُّلْم الأفظع». لاَ فُضّ فُوكَ ولاَ جَفَّ قَلَمُكَ! فَلْنَقُلْ جميعاً: يا أهْلَ السياسةَ -كنتُم مَنْ كُنْتُمْ- تَعَالَوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم، ألاّ نتَّخِذَ العُنْفَ ولاَ القَهْرَ وَسِيلَةً للإقناعِ.

15. هل تعتبر الاختِراع، كُلَّ اختراع، بِدعة؟ وَضِّح مَوقِفَك منه، ومن التكنولوجية. أنا مَعَكَ في إدَانَةِ الدَّوَابِّية وَالحيوانية أمَّا أنْ يُسَخِّرَ اللهُ للإنسانِ ما كانَ لاَ يَعْلَمُ، فنِعْمَةٌ من الخالقِ أنعمَها على من جَعَلَهُ خليفةً له في الأرض.

16. اشرح لي، رحمك الله، ما تعنيه بالديموقراطية الـمُباشرة الأثِينِيّة الخالدة، بَعْدَئِذْ نَفَيْتَ عن الدِّيموقراطية كُلَّ صِفَةٍ إيجَابيّة.

17. حلال وَمستحسن أنْ يَكتُبَ العَرَبُ آلافَ الكتبِ عن مفاخر أجدادِهم وأن يتمدّحوا بِهَا صَباحَ مساءَ ؛ حَرَام أنْ يفعل مثلَهم الأمازيغ وَلَوْ بِصُورَةٍ عابرة، ولو مرّةً واحدة. أَلَيْسَ كذلك؟

18. بعد «خَرْقِ الحدود القُطْرِيَّة القَفَصِيَّة» الذي ترجوه، وأرجوه مَعَكَ بِجَوَارِحِي كُلِّها، ما هو مشروعك في التعامل مع الفارسية، والتركية، والأردية... وَالأمازيغية؟ لقد خَرَقَ صَدَّام حَدُودَ فَارِسَ سنة 1980 وَعَدَّ خَرَاقَــتَهُ «قَادِسِيَّةً ثَانِيةً». والنتيجة مَعْرُوفَة.

19. تَقُولُ، بِاختصار، إنَّك لاَ تريد لُغَةً ضَرَّةً للعربيَّة في دَارِ الإسلام. تُرِيدُ تَعريبَ العالمِ الإسلاميِّ كُلِّه، غافِلاً عنِ كَوْن 10/ 9 المسلمين عَجَم ؛ لَهُم فَضْلُ الإيمان بالله ورسوله رغم قِلَّة معرفتهم للعربية ؛ فَلَوْ كانَ الإيمانُ مَشروطاً بِإتقان العربيّة والاطِّلاع على دقائقها لما كان عَدَدُ المسلمين يتعدّى بضعة ملايين من الناس ؛ ولاَ يخفى عليك أنَّ إتقان العربيّة ليس ضَامِناً للإيمان برسالة محمد. أَلَيْسَ فَطاحِلُ اللغويّين العرب المعاصرين أمثال أنسطاز ماري الكرمليّ وجميل صليبة والبستاني، و... و... ، أَلَيْسُوا عَرَباً نصارى مسيحيّين يَستشهدون، لُغَوِياً، بالآيات القرآنيّة، ولاَ يُؤمنون بنزولها؟ لوكان ميشال عفلق حيّاً وقرأ ما كتبتَ إليَّ في هَذِه الصفحة لتظاهر لَكَ بالإسلام لأنَّ مشروعَك أوسع وأعرض من مشروعه، إذْ كانَ هُوَ لا يُرِيدُ إلاَّ تعريب الأكراد وَالبربر، «نِكَايَةً» لروح صلاح الدين وَلِرُوحِ يُوسف بن تاشفين، بَيْنَمَا تُخطِّطُ أنت لتعريب مليارٍ من المسلمين. إذ كانت الدعوة قائمة بحق وَبِحُسْنِ تَدبِيرٍ، قالَ الإمَامُ عليّ كرّم الله وجهه: «تعلّموا الألسن، فإنَّ كلَّ لِسَانٍ بِإِنسانٍ» وكان الجاحظ مُعْجَباً بِمُفَسِّرٍ للقرآن كان «يقرأ الآية

مِن كِتَابِ الله ويُفَسِّرها للعرب بالعربية، ثم يُحَوِّل وجهه إلى الفرس فيُفَسّرُها لهم بالفارسيّة. فَلاَ يُدْرَى بأيِّ لِسَانٍ هُوَ أَبْيَنُ».

20. تَقُولُ «كان المجتمع البربريّ الأمازيغيّ يُعظّم العِلـمَ وَالعلماءَ، والفِقْهَ والفقهاء». وَعَبْدُ ربِّه يتساءل: ولماذا أزرى الدَّهْرُ بِالمجتمع الأمازيغي رغم تعظيمه العِلـمَ والعلماءَ؟

21. لَنْ أُعَلِّقَ على ما تبقّى مِن جوابك على رسالتي، لأني شَعَرْتُ أنَّ موازين حِوارِنا غيرُ مضبوطة. فبينما تَنطلق أنتَ من «المطلق» لا أنطلق أنا إلاّ مِنَ «النِّسْبِيِّ» القابِلِ للنقاش. ولا يَمنعني هذا من التعبير عن الارتسام العامّ الذي ارتسم في نفسي أثناء قراءتي لجوابكم.

أخي عبدَ السَّلام، أريد أن أكون أوَّلَ شاهدٍ يَشهَدُ أمام الله أنَّكَ إنسان طاهر الـمَظْهَرِ وَالمخبَر. إنَّ قلبَك لـمُفعم بالإيمان القويِّ الجيَّاش ؛ وفي الوقت نفسِه يُراوِدُ ذِهنَك حُلم جميل، أتمنّى، بِصِدْقٍ، أن يتحقّق. لكن الواقعُ لا يرتفع. والواقع هُو أنَّ الإنسان ضعيف، وَقَدْ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ. والواقعُ أن العَالَمَ الإسلاميّ لاَ مفَرَّ له مِنَ التعامل (الحَذِرِ الـمُحتاطِ) مع محيطه البشريّ. والواقعُ أن المسلمين عَرَبٌ وَعَجَمٌ. «وَلاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ على عَجَمِيّ ولا لِعَجَمِيّ على عَرَبِيّ إلا بالتقوى».

محمد شفيق

الرباط، في 15 ربيع الثاني 1417، 31 غشت 1996.

جواب الأستاذ عبد السلام ياسين
على تعليقات الأستاذ محمد شفيق

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه.

أخي محمد شفيق،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

كلمة أو كلمتان أرتب فيهما مقاصد تتمة الحوار بيننا في هذه الصفحات لعل فيها إجابة عن بعض أسئلة تعقيبك.

فإنه لا بد من وضع نظام في الكلام يتيح للعقلاني المَنهج أن يتفاهم على الحد الأدنى من التفاهم مع واعظ له منهاج غيرُ ما يألفه ويعتاده ويطمئن إليه المثقف المتفتح على العالم المتسامح الواسع الأفق الطويل الاطلاع العريض الباع.

كتبت في آخر تعقيبك أن موازين الحوار بيننا غير مضبوطة. وأن انطلاقي من المطلق لا يلتقي بمنطلقك من النسبي. ثم علّقت الحوار اقتناعا بأن الاستمرار فيه من منطلقين اثنين لا يلتقيان غايته «ارتسام عام» فتعبير عاطفي يضع نقطة النهاية، وتمَنٍّ وتعاطف.

وتسألني فيما تسألني أن أحدد فهمي ما هو العلم.

فأرتب مقاصدي في هذا المكتوب في ثلاثة فصول وخاتمة كما يلي إن شاء الله:

1. ما هو العلم؟ ما هو الإسلام؟
2. هوية وتاريخ.
3. تمزيغ المغرب وتمزيقه.
4. خاتمة.

الفصل الأول

ما هو العلم؟ ما هو الإسلام؟

- ما هو العلم؟
- ما هو الإسلام؟
- «الآلام الباطنية والحل الموقت»
- الصلاة أولا!
- عُبِّيَّةُ الجاهلية
- فرغنا من الملحدين والمنافقين

ما هو العلم؟

كنت كتبت كتابا في محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى. تناولت فيه من منطلَقِي المطلِقِي القضية المحورية الشاغِلة أذهان المثقَّفِ المجادِلِ عن عقلانيته والواعظَ الداعيَ إلى فتح أذْن القلب لسماع رسالة الوحي. فلا حاجة لتلخيص ما كنت بسطته.

ثم تعرضت من زاوية إيماني بالله وبرسوله، من موقفي عبدا خاضعا لله تعالى، لموضوع العقلانية في كتابي «حوار الماضي والمستقبل».

وكفيتني أنتَ، أيها الأخ الوفيُّ، مَؤونة استطلاع رأي المثقف العقلاني في الواعظ المؤمن بما جاء من عند الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. إذ خاطبتَ في صديقك القديم الواعظ الطيب القلب ذا النية الحسنة والحلم الجميل.

عواطف رفيقة شفيقة.

غيرُك من المثقفين اللاييكيين أو الملحدين الجاحدين، ممن لا سابقَ مَعرفة لهم بالواعظ وتاريخه وإبستمولوجية معرفته وما كتب وما قال، كان ينطق حُكمَه بصرامة «علمية» منهجية. ينطق حكمه على الواعظ فينعته بالتحجر الفكري والتخلف العقلي، وعلى «الطيب القلب» بالسذاجة والبلادة، وعلى ذي النية الحسنة بالنفاق السياسي، وعلى صاحب الحلم الجميل بالجنون أو اللجوء العاجز إلى اليوتوبيا.

هل هناك جامع مشترك، وأرض للحوار بين عقليتين ومرجعيتين وفهمين لما هو العلم وما هو الإسلام؟

لعلي أرجع إلى بعض الجواب في باقي هذه الصفحات.

ما هو الإسلام؟

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتِيَ الزكاة، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلا.

هكذا علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعرابيَّ وأخبر الصحابة أن الأعرابيَّ أفلح إن صدق.

ومع الصدق نقف.

فشهادة أن لا إله إلا الله عقيدة في القلب وتعبير باللسان وطاعة لله فيما أمر ونهى. فإن كان شاهد باللسان يُكذِّبُه سلوكه عند الأمر والنهي، إن كان منافق كاذبا على نفسه وعلى الناس بادعاء الإسلام وعقيدته هواء وسلوكه معصية فذاك أعرابي ما أفلح.

ما أفلح لأنه ما صدق. ما أطاع الله لأنه ما صدَّق. فشهادته زور وادعاؤه بهتان.

شهادة أن لا إله إلا الله يقولها أعرابي أمِّيٌّ بريءٌ من كل مؤهِّلٍ فكري، أو مذهب عقلاني، قريب إلى الفطرة، متأمِّل ببساطته في نفسه وفي عظمة الخلق حولَه من شمس وقمر وسماء ونجوم، غيْر منشغل عن التأمل البسيط الفطري بمشاغل الفكر وضجيج الحضارة المزهُوَّة المارِدة المارقة.

صدقه في الشهادة ينم عن مروءةٍ أو خوف أو اندهاش أو مجرد تصديق لـمُخْبِر بليغ الكلام ظاهِر على العقول والنفوس بعِلمٍ وأخلاق ونورانية يخص الله بها الرسل عليهم السلام، فتنقاد لهم الأفئدة ويهتدي بهم الخلق.

صدق الأعرابي الساذج الفطريٍّ أنجاه.

ونفاقه إن نافق وارتد والتوى يُرديه وحدهُ.

ونعْرض حال المثقف الشاهد لله عز وجل بالوحدانية نطقا.

إن زعم أنه مسلم وهو يضمرها لا أدرية أو كفرا أو زندقة مفلسفة فهو منافق.

زاعم زعم أنه يوحد الله وهو يشرك به في نسبية تؤلهُ العقل، وتؤله الكون العجيب والفضاء الرحيب، وتقدس الجمال، وتتزيَّن للجمهور، وتعبد التاريخ، وتعتقد أن الحق حقوق متساوية: حقيقة أن لا إله إلا الله تعادل «حقيقة» أن لا خالق ولا مخلوق، و«حقيقة» أننا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر، و«حقيقة» أن الإنسان زبدة الحياة تمخض عنها تطوُّر بدأ منذ أربعة ملايين سنة من خلية حية إلى خليات منقسمة على نفسها متوالدة، إلى بكتريا، إلى سمكة في البحر، إلى زاحفة، إلى ثديية، إلى سلسلة من القردة استقامت واقفة على رجلين على مر الأجيال وارتقاء العوامل الوراثية.

كُل ذلك يتساكن في ذهن الزاعم ويتراكب ويتعايش. كل ذلك دليل على أن شهادته أن لا إله إلا الله إنما هي زور يلهي به نفسه ويكذب عليها، أو عادة ما استطاع أن يتنصَّل منها.

ونفاقه إن نافق وارتد وألحد وتزندق ونفث عقيدته في الناس إنما هو هلَكة عليه وعلى الناس.

وشهادة أن محمدا رسول الله شريعة. العقيدة ضمير في القلب وكلمة على اللسان يُصدقها الإذعان للشريعة أو يكذبها. في حياة المسلم حقَّ الإسلام لا تفترق لا إله إلا الله عن محمد رسول الله. لا تنفصل العقيدة عن الشريعة. لا يُعد مسلما حق الإسلام من يشهد

لسانه لله تعالى بالوحدانية والإلهية ثم لا يطيع الله فيما أمر ونهى. أي لا يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخبر عن الله عز وجل أن طاعة الرسول من طاعة الله. وأن للإسلام أركانا خمسة تُـؤَسَس. لا إله إلا الله محمد رسول الله أرضية البناء، ويَتأسس على الأرضية إسلام المسلم، فإن لَمْ يُقِم المسلم على أرضية لا إله إلا الله محمد رسول الله بناءً من أربعة أركان فقد خدع نفسه وترك أرض إسلامه صحراء قاحلة.

أركان البناء على أرض التوحيد وتصديق الرسول والرسالة هي الصلاة والزكاة والصوم والحج. لا إسلام لمن لم يُقم على أرضية الشهادتين بناء دينه، بل أركانَ البناء التي هي قوام الدين، يستكمل دين المرء بسائر شعب الإيمان، ويشيد صرح العبودية لله عز وجل بهمة الإحسان وجهاد الإحسان والتقرب الإحساني إلى الله عز وجل.

هذا هو الإسلام في كلمة موجزة، وفي اعتقاد قلب المسلم، وفي برنامج يومه وليلته، وفي أساسيات دينه، وفي اقتناع عقله.

من الناس من يبقى إسلامه «ذاكرة» موروثة، وهُوَيَّةً واسما معه أو ليس معه اعتناء، أو اهتبال، أو التفات، أو اكتراث بدينه.

أولئك الذين لا يهتمون ولا يعتبرون، ولا يلتفتون، ولا يعنيهم البحث عن تعلّمِ دينهم وتعميق الدراية به قصد العمل بما ينفعهم في دينهم، قوم لا يفكرون في مصيرهم بعد الموت إلى الله، ولا يتأهبون للقاء رب شهدوا له نُطْقَ لسانٍ بالوحدانية، لكنهم لم يصدقوا رسالته التي جاء بها الرسول، المخبرة عن النبإ العظيم، نبإ المصير الأخروي بعد الموت، ونبإ البعث والقيامة، والجزاء والعقاب في جنة الخلد أو نار جهنم خالدين فيها أبدا.

«مسلمون» بهذا الوصف قوم عقيدتهم مبعثرة، تتساكن فيها أصوات متنافرة متضاربة متشاكسة متقاتلة. صوت الوراثة من أبوين مسلمين في قاع الذاكرة. وأصوات أخرى طرأت بالتربية التي تلقاها المثقف -أمازيغيا كان أو عربيا أو فارسيا أو تركستانيا- وبالرفقة في مراحل الحياة، وبالكتب التي قرئت، والجرائد التي استُهلكت، وسائر المؤثرات الثقافية.

تتزاحم هذه الأصوات وتتفاعل وتضغط على القاع الوراثي، ثم تنسجم منها نغمة مسايرة لسمفونية الثقافة العالمية السائدة، لا يَجْرُؤ «المسلم» المثقف ثقافة عالمية أن يلْحَن في نحو الثقافة العالمية، أو يُلْحِد في فقهها، أو يَشُدَّ نوطةً عن المقام الموسيقيِّ العالمي السائد ثقافيا وسياسيا واقتصاديا وحضاريا.

فإن قال المحمول الوراثي أنا مسلم، أو قال حب التميُّزِ هويتي الإسلام، أو استيقظت في العقل والنفس رغبة في البحث العميق لعل هناك بعد الموت شيئا، نطق الصوت السائد المستعلي على القاع الضاغطُ عليه وقال: «اسكت! بل أنت مثقفٌ قبل كل شيء ووطن عقلك الثقافة الإنسانية العريقة المتنوعة الممتدة جذورها إلى ما قبل التاريخ، وهوَيتك عِرق أجدادك الترك والأمازيغ والفرس والزنوج. اسكت فالمثقف لا يُعلن أن هناك شيئا بعد الموت فتسخر منه العقلانية العلمية. اسكت!».

فإن كان «المسلم» المثقف الذي يهتبل قليلا فيزجُره الصوت الناطق رجلا صلباً ذا إرادة وشخصية قوية غضب على الصوت الزاجر وقال: «بل أنت اسكت! أنا مسلم وتركي، بل أنا تركي ومسلم، بل أنا تركي ثم مسلم! أنا مسلم على كل حال. اسكت أنت فلا حاجة لي برأيك، ولا ثقة لي بحكمك، ولا اعتراف عندي بتقييمك!»

يقول غاضبا: «أنا مسلم! أقولها مقتنعا، ولا أسمع كلمة الواعظ الذي يزعم أنه يعلمني ما هو الإسلام واستكمال الدين، كما لا أسمع الزاجر الذي يخيف صوتُه أنصافَ المثقفين فيجبُنون عن إعلان هويتهم الإسلامية. هُوَية إسلامية مائة بالمائة، أو خمسين أو عشرين. هذا شأني وحدي!»

ويقول مجادلا: «أنا مسلم وعقيدتي في قلبي، وقبيح بمفتش الضمائر الواعظ المتطرف أن يسألني عن حقيقة إسلامي، أو يتجسس علي ليعرف هل أغشى المسجد أو لا أعرف مكانه، هل أصلي أو لا أصلي.

«هل نحن كاثوليك وكنيسة وإكليروس!

«الدين لله. الدين بيني وبين الله. والفضولي الذي يحب أن يعرف حقيقة إسلامي لا يقل وَقاحة عن الواعظ الذي يُخَيَّلُ إليه أني محتاج من يعلمني الإسلام.

يصلي المرء ليتزكى. وأنا لا أظلم أحدا، ولا آكل مال أحد، ولا أسيء إلى أحد. فالمطلوب حاصل. والصلاة أو ترك الصلاة شأني وحدي».

من الناس من أسلم وحسن إسلامه، منهم من استيقظ لإسلامه ثم نام عنه، ومنهم من منعته كبرياؤه عن التوبة الصادقة إلى الله ليتعامل مع الله، ومنهم من لا يؤمن بالآخرة فالإسلام عنده كلام وشارة ولون وثوب يلبس وينزع ويستبدل كما تستبدل الشعارات والأردية.

الإسلام اختيار حياة واختيار موتة واختيار مصير.

الإسلام المكتمل التزام بحدود الله عز وجل في الحلال والحرام، وقيام بالواجب الذي فرضه الله عز وجل، وبالسنة التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصرف المرء وضبط أعمال سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه.

إن كان إسلام المرء إسلاماً أعرابيا، ظاهرا بلا باطن، نطقا باللسان وجهلا أو جحودا بالجَنان والنية والعقل، فلا عليه بعدها أن ينتسب لأمازيغية أو شلحية أو تركية أو صينية. فهو أعرابي بالمفهوم القرآني.

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

«الآلام الباطنية والحل الموقت»

أخي محمد شفيق،

نشَرَتْ لك سنة 1972 في فرنسا مجموعة «الفكر العالمي» كتابا بعنوان «أفكار مقتضبة» ترجمت العنوان هكذا، ويمكن ترجمته بخلاف هذا فالتركيب الفرنسي فيه لعب بالألفاظ. يمكن ترجمة العنوان هكذا: «أفكار متخلفة». ليت هذا الكتاب الصغير الحجم العميق المغزى يعاد نشره ليرى الناس وجه المعجمي الأمازيغي في مرآة تاريخ فكره منذ ربع قرن.

كتبت في تقديم الكتاب: «إنه لمن العسير أن يُصيب المرءُ طريقة إن برز فجأة من حيِّز ظليلٍ يطيب فيه أن لا يمَيِّزَ الإنسان إلا هيْئات الأشياء والناس. إن برز فجأةً إلى عالَمٍ تُنيره الأضواء الصناعية بحيث يتحوّل الجمال أحيانا كثيرة إلى بشاعةٍ، وتلعب الحقيقة لعبة الظهور والخفاء مع العقل. عالَمٍ تجمّد فيه منذ زمن بعيد ضحك «الجُلاَّس» على صورة تكشيرة الجثث. عالَمٍ يتقاطر فيه من كل جهة سُم السَّأَم القاتِلُ. عالَمٍ تتسارع فيه حركة البوصلة مشيرة إلى أن الشَّمال أصبح منذ اليوم في أسفل الخارطة».

(1) سورة الحجرات، آية 14.

وتُنهِي تقديمك مؤكدا أن الكاتب «يريد أن يكون عدوا لدودا لكل أنواع الاسترواح الـمُرَفّه، ولكل الأوهام التي تصاحب الاسترواح».

وفي متن الكتاب تحاجج منكري الآخرة بعقلانية الفيلسوف واستدلاله المنطقي. وتحاججهم بآية ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾[1].

تحاجج بعقلانية الفيلسوف ومنطقه وبآيات القرآن ومعانيه بعد أن سَخِرْتَ من «الدعاوِي الفكرية العاجزة، دعاوي الأنظمة الفلسفية التي تشبه ولا شك تهافت الفراش في الفضاء اللانهائي للزمان والمكان».

تحاجج بعد أن عرضت عجز العلوم البشرية عن معرفة الله. وبعد أن ذكرت عذاب الله الشديد لمن لم يُسلم، ولمن لم يعط البرهان على إسلامه. أعْرِضُ إن شاء الله في خاتمة هذا الكتاب لمؤلفك الثاني «ماذا يقول المؤذن». وأقف معك هنا على بعض مطارحاتنا منذ ربع قرن: أحثك على الصلاة وتتمنع وتسوف. آن لك، أخي محمد شفيق، وأنا وإياك ظلان زائلان عن قريب، أن تَسمع وتُسمع وعظ صاحبك «الصوفي». إنه الله! إنه البعث! إنها الآخرة! إنه عذاب الله الشديد لمن لم يطع الله، ولم يعط البرهان العملي على أنه مسلم.

فبين يدي وقفتي معك على مطارحاتنا القديمة كما سجلتَها في أفكارك المقتضبة، أُهِيبُ بك وبكل قارئ من المسلمين في فقرة «الصلاة أولا!» التي ستقرأها بعد حين أن تُراجع نفسك ويُراجعَ العُصاةُ مثلي ربهم عز وجل، وأن نَتوب إلى الله جميعا توبة برهانُها الأول الصلاة والمسجد.

(1) سورة الأنبياء، آية 104.

الصلاة في مطارحاتنا منذ ربع قرن. الصلاة أولا اليوم. الصلاة أول ما يُسْأَل عنه العبد يوم القيامة وتُسأل الأمة. الصلاة التي أضاعها الخلْفُ السيءُ الذين قال الله تعالى عنهم بعد أن مَنّ على عباده الصالحين المصلين الخاشعين الباكين سُجّداً لله رب العالمين. قال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً**﴾[2].

لماذا يجتَـرُّ المرءُ آلامه الباطنية ويُسوِّفُ العمل الصالح –ومقدمته التوبة والصلاة– ويختان نفسه ويخدعها بالحلول الموقتة؟

آلام باطنية وحل مؤقت عبرت عنها في كتاب أفكارك المقتضبة التي دافعت فيها عن الإسلام وحاججت فيها عن الإيمان بالبعث. ثم تلكَّأتَ عن نصائح صديقك أمسِ واليومَ.

قلت في الصفحة العاشرة تحت عنوان «برهان الإيمان» ما يلي: «لأنني كُنتُ أجد أن عدد الصلوات الإسلامية الواجبة على المسلم كل يوم مُبالَغٌ فيه. ولأنني كنتُ أجد أن الحركات التي تصحب الصلاة مُضحكة إلى حد لا بأس به، عارضني صديقي الصوفي بلطف، شارحا لي بإطناب أن الصلاة برهان الإيمان. قال لي: إن الله يثق بالناس إن آمنوا، بصفتهم ناسا لا غير. لذلك يقتضي منهم برهانا على إيمانهم كما يثق بعضهم ببعض اعتمادا على نظام عقود قانونية، وعلى شهادات دراسية، وعلى شتّى أنواع الصكوك. (أنت كتبت كلمة «اعتمادا» بحروف بارزة قصدت بإبراز الكلمة معنى. هذا المعنى هو أن الصلاة عِماد الدين كما هي العقود بين الناس عماد الثقة).

(2) سورة مريم، 59–60.

وتمضي كاتبا: «اتفقت على ذلك مع صديقي الصوفي، وبينت له بدوري أنني بصفتي تائقا إلى القرب من الله. أنوي أن أوفر جُهدي موقتا (كلمة أخرى أبرزتها لمعنًى، ما هو؟) مستغنيا عن البرهان، سائراً سيري الطويل على الطريق الشاق الصاعد، طريق الألم الباطني».

هكذا كان يفكر الكاتب الفيلسوف المسلم التارك صلاتَه موقتا منذ ربع قرن. فما يقول المعجمي الأمازيغي اليوم وقد انغمر في الأوهام المصاحبة للاسترواح المرَفّه؟

لا يقبل الله لتارك الصلاة عذرا. فإما مسلم حقَّ الإسلام، وإما يسوف المرء ويوقت إلى ساعة تُختَم فيها الصحف وتُطوَى، ويحفِر الحفار قبرَ ناصيةٍ كانت في الدنيا تملأ الدنيا ضجيجا لا تسمع معه نداء المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح.

وتسألني، أخي محمد شفيق عن رَأيي في التكنولوجية!

الصلاة أولا وما يجمعنا نحن المسلمين. ثم نفرُغ لسائر ما يرتهن به مستقبل المسلمين من نظام حكم، ومن تكنولوجيا، ومن، ومن...

الصلاة أولا! لا جرَم نتشبثُ بالأوهام المسمومة للدعوة القبلية إن تَلاشت فينا النيات الحسنة والمقاصد الحميدة!

أتلاشت النيات الحسنة والقصد الحميد الذي عبرت عنه في رسائلك إليَّ التي تقرأ صورتها بخط يدك في خاتمة هذا الكتاب، قصدك الحميد السديد أن تساهم بكتابات في بناء «مجتمع إنساني مسلم مؤمن يقيم شعائر الدين الحنيف، ويَخشى الله في السر والعلانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في علاقاته بربه وفي عاملات أفراده بعضِهم لبعض»؟

إن تلاشى القصدُ الحميد وسوَّفنا ووقتنا ووفرنا الجهد على أنفسنا وتركنا الصلاة ونحن على حافة القبر رافلين في خِلَعِ الراحة والرفاهية فماذا يبْقى؟

الصلاة أولا يا أخي.

مطارحتك مع صديقك الصوفي الواعظ كادت تُـثْمر. فما أجهض المخاض وأصار الزرعَ هشيما تذروه الرياح؟

الصلاة! الصلاة! مرة أخرى. منها نبدأ لنعرف من نحن وإلى أين نحن سائرون أفرادا وأمة.

الصلاة أولا!

المسلم الحق يصلي، ويؤديها في المسجد مع جماعة المسلمين أينما حل وارتحل. فهو مسلم في مسجد الصين ولو كان زنجيا. إخوانه هم المسلمون الصينيون الذين معه في صف الصلاة، لا الزنوج الملحدون أو الوثنيون أو اللا أدريون.

المسلمون الذين يواليهم الأمازيغي -إن كان مسلما حقا- هم المصلون معه في المسجد عربا أو عجما. إن كان الأمازيغي الملحد والمتزندق أحب إليه من العربي المسلم المصلي المؤمن بالله وبرسله وباليوم الآخر فليراجع إسلامه، وليبْك إن كانت فيه بقية إيمان وراثية على ضيعة عمره أن توج عمره بتوَلِّي الناس على عصبية أعراق، وقوميةٍ لغوية، وهُوَيَّة قبلية!

الصلاة أولا. ثم نتابع الحوار مع أمازيغيين يصلون. أو نعلم من ينكر أن الصلاة من الإسلام فنحاوره أيضا لكن من منطلق آخر.

أو يسوِّفَ أمازيغي ويقول: الله يهدينا. أو يَحْرَنَ أمازيغي ويقول: ما دَخْل الصلاة في الحوار بين الناس؟ أو يُدارِيَ ويُماري أمازيغي منافق في الدين فنحمِلَ جعجعته واحتجاجه على أنه مسلم من قبيل الشعارات السياسية الكئيبة.

مثلت بالأمازيغي لأننا بصدد الحوار مع الأمازيغيين. وللعربي الأعرابي القومي العُروبي المنكر والجاحد المسَوِّفِ المنافق أقول أشد من هذا وأفصح. فما إنكار الدين، والشك في الدين، والنفاق في الدين حُكْر على عنصر قومي دون عنصر. خَلا أنَّ الأمازيغيين –في المغرب على الأقل– صانهم عن إنكار الصلاة، وعن المروق من الإسلام، وعن النفاق في الدين قلة حظهم من الثقافة العالمية الـمُزِيغة عن الدين بالنسبة إلى حظ غيرهم من العربان. ولو استعرضنا ما كتبه وسجله وجهر به من الكفريات أمازيغ المغرب وأعاربه لوجدنا الملحد العربي أقوى شكيمة وأكثر عددا.

ذلك أن ببوادي الشلوح في المغرب مدارس قامت بالحفاظ على دين الأجداد. واضمحلت أو كادت تضمحل في بوادي العربان وحواضرهم أثَاراتُ التربية الدينية خاصة بفعل معاول التلحيد في مدارس الاستعمار أمس، وبفعل التَّعليم الوثَني بعد الاستقلال.

أقول «وثني»، وأسكت. فللمغرب «مقدسات» وأصنام تعبد من دون الله في مدارس التعليم، ومنابر المساجد، وإدارات الحكم، ومؤسسات الدولة.

اسكت، فالإسلام «رلجيون»! اسكت لا تدخل السياسة في الدين! اسكت أيها الواعظ الحالم الطيب القلب الساذج المتهور!

الصلاة أولا! ثم نحاوركم، معشر الأمازيغ، في نضالكم الدستوري. تطلبون أن يشهد لكم الدستور بأنكم مغاربة لكم من الحقوق ما لسائر المغاربة، في مقدمة الحقوق حقكم اللغوي، وحقكم أن لا تحتقَر لغتكم، وأن لا يُقصى عِرقُكم (المجيدُ حقا) من الساحة العامة، وأن تحظى جمعياتكم الثقافية (الاثنتان والعشرون وقت كتابته - ربيع الثاني 1417) بالاعتراف الكامل كما هو معترَف بأحزابكم السياسية المنشَقِّ بعضها عن بعض.

الصلاة أولا! وقد تحدثنا في صفحات طويلة من حوار هذا الكتاب عن السياسة واللغة والثقافة وحق العُرْب والعجم.

الصلاة أولا! الصلاة عماد الدين. ونحن الإسلاميين لا نعرف بداية للحوار غير هذه. ولا تنشأ وتتولد إبستمولوجيتنا من المرجعيات النسبية التي تضع على طاوُلة الحوار أول ما تضع أن يُطرح المطلق خارج الميدان، وأن يُترك لكلٍّ الحريَّة التامة في اعتقاد ما يطيب له وتطمئن به نفسُه ويحلو عيشه.

من وجهة نظر المرجعيات النسبية البشرية «المهذَّبَة» في معالجة الخلاف بالتسامح والتوافق والتراضي يبدو ذكر الصلاة والإلحاح على الصلاة تزمتا، وتفتيشا لا يحتمل للضمائر، وإغلاقا للحوار، وعلامة على تخلف الإسلامي الواعظ وعجزه عن استيعاب ثقافات الأمم، وعجزه عن فهم العصر ومشتبكاتِ معطياته، وانكماشه في الدوائر المغلقة مثل «الصلاة، الصلاة» لا يقرأ تاريخ التطور العلمي، فلا يفقه في السياسة والاقتصاد والإستراتيجيا ما به يعوض أثناء الحوار هلوسته: «الصلاة، الصلاة».

أخي محمد شفيق،

مأساة المغَرَّبين الـمُبعدين عن دين آبائهم من أبناء هذه الأمة هي أنهم لَقِمُوا ما لَقَّمَتْهم التربية المفتوحة على آراء الكافرين، وما لَقَّمهم التعليم الـمُعَقَّم في كل حقيقة لا تثبُت أمام الفحْص المِجهري، ولا تستجيب للشروط المخبرية العلمية، ولا تتأصل على قاعدة ثابتة تجريبية لا تتخلف نتائجها.

فلكلٍّ حقيقته الذاتية في العقيدة ما دامت العقيدة ومَقولاتها خارجة عن نطاق المعقول والملموس العلمي التجريبي. وهكذا فالإسلام وصلاته وأركانه يتساوى مع عقيدة البوذي والنصراني واليهودي. كما تتساوى صلاة ذاك وهؤلاء. وربما كانت يوكَا البرهماني أجمل شكلا، وعقيدته التناسخية أكثر شاعِرية، وسلوكه مخافة أن تنسَخ روحه في جسم قرد أو حماراً في الدور التالي من أدوار حياته أدعى أن يتخلق بأخلاق جميلة.

مأساةُ الـمُجَرَّدين عن دين آبائهم أنهم ابتلعوا ثم هضموا ما قُدِّم إليهم على أطباق الـمُثاقفة والتفتح على المبادئ العليا للثقافة العالمية، أهمها أن العقل البشري وما يقبَله ويتّفق عليه العلماء المجرِّبون والفلاسفة الغواصون هو المرجعية الخليقة أن يتبناها المثقف. عقلانية ثمرتها في التفكير العام النسبية، وفي السياسة الديمقراطية اللاييكية أصلا وفصلا، وفي الأخلاق وأهداف الحياة اللذاتية الإباحية المنفعية، وفي فلسفة الحياة مُسَلَّمة أنها حياتنا، نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدّهر.

فإذا جلس هذا العقلاني النسبي النفعي الديمقراطي وحَشْوُ عقله ونفسه مُسلَّماتٌ لا مكان فيها ولا مدخل لمسلمات المؤمن بالله واليوم الآخر، ولا بصيصَ نور في حُجرته ينفذ من عالم الوحي والقرآن،

كان حقيقا أن يغلق أحدهما يائساً من استمرار الحوار باب الحوار. ولا إِخالك، أخي محمد شفيق، من هذا الصنف من المثقفين.

أحدهما يقول: «نبدأ بمبادئ للتلاقي، نبدأ بالاتفاق على أن النسبية وما في ركابها من الديمقراطية اللاييكية طبعا وقطعا، الديمقراطية لُبُّ العقلانية في السياسة، هي وحدها أرضية اللقاء».

ويقول الآخر «الواعظ المتزمت المتطرف الإرهابي»: «بل نبدأ بالكلمة السواءِ على الأرضية الإسلامية التي سمعتك تلهج بكونك من نبات تربتها، وتغضب لو ناداك أحد يا يهودي، أو يا ملحد».

مسلم أنا ومسلم أنت: فالصلاة أولا.

مسلم أنا ومسلم أنت. فالمسجد وصف الصلاة يجمعنا، لا الحانة اللذاتية، ولا مسرح الفن الخلاعي، ولا نادي الإلحاد الثقافي، ولا ميدان الصراع على الهوَيّات والعصبيات: أنا شلح وأنت عربي قبل كل شيء. فرقنا العرق والتاريخ والمظالم التي اجترمها العرب الغزاة، والعرب السلاطين، والعرب المتحزبون، والعربُ المحتقرون شلحية دمي، ومجد شلحيتي، وتاريخ مجدي، وحاضر تاريخي الذي أجدني فيه وأنا وقومي ثلاثة أرباع السكان، وصفوة الذكاء المهمَّش، ونخبة الأصالة، ومِلْحَ الوطن الأمازيغي، وقوته، ومستقبله.

فأنَّى يجمعنا إسلام هو واجهة مشتركة بين الواعظ الطيب القلب والحاكم المنافق بالإسلام! وأنى يجمعنا مسجد أممه الحاكم المنافق واتخذه معبداً لترتيل المديح لشخصه في ترانيم وقُدّاسات! وأنى تجمعنا صلاة إذ لا حق لأحد على أحد أن يتجسس على مخبَّآت الضمير وخصوصيات الناس».

ويغلق المثقف الأمازيغي باب الحوار لعدم انضباط موازين الحوار. ويتكل الواعظ على الله في التذكير بِمُسَلّمات المسلمين وحقيقتهم، فيلْفِت النظر إلى أن الحوار في الشؤون المصيرية للأمة ما هو كالنجوى بين شخصين، ما هو هذَرٌ طليق. بل كلماتنا مواقِف مسؤولة أمام الله عز وجل، تشهدها ملائكة الله، ويُسجل الرقيب العتيد كل ما يلفِظ به الشلحي المثقف والواعظ الحالم لتحضر السجلات يومَ الحساب.

ويومَ الحساب يُسأل المسلمون شلحيين ووعاظا عما فعلوا في الدنيا وقالوا. فإذا كان فعل الأمازيغي وقضيته وقضية الواعظ الطيب القلب أمرا من الأمور العامة التي يُصيبُ أثرُها القارئ والمجادل في جيل وأجيال أضحت المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة والحساب والجزاء في الجنة والعقاب في النار أعظم وأضخم.

إن كان المثقف يناجي في فعله وقوله التاريخ وينصِب قامته ليعرف الناس في عصره أنه هنا فالواعظ يناجي الله تعالى ويخافه ويرجو رحمته.

لذلك فهو يقول: الصلاة أولا! وإلا كنا كبعض الأطفال الجاهلين أو الخجولين عن تسمية الأشياء بأسمائها.

الصلاة هي المظهر الأول للإسلام. وهل لتارك الصلاة دين؟ بعدها ننظر كيف تدخل أركان الإسلام من زكاة وصوم وحج، وكيف تندرج فروع الشريعة في مشروع الأمازيغيين أو لا تندرج. وهل تُصَدِّقُ أعمالُه عقيدتَه أو تكذبها.

الصلاة أولا! وإلا فتركُها استهانةً وقِلّةَ يقين بيوم الحساب تكذيب صارخ لعقيدة مُعلَنَةٍ.

الصلاة أولا! وإلا فتركها جحوداً لفرضيتها كفر صريح وخروج من الملة.

الصلاة أولا! ولْيُغَنِّ المستهين والجاحد أُنشودته العاجزة أن الإسلاميين إرهابيون حين يدعون الملاحدة إلى إظهار ما يُخفونه بجرأة وشجاعة.

لماذا يسبق إلى بعض الأذهان أن الواعظ الصريحَ في وعظه إرهابي بالفعل، أو إرهابي مُحتَمَل، أو إرهابي يتحين الفرص ويبيت نيات الفَتك بمن خالفه عقيدة وشريعة أو شريعة ورأيا.

إن داءنا الوبيلَ يُسَمّى إلحادا. ونريد أن يهلِك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة. نريد الوضوح، نريد الصراحة، نريد الشفافية.

تُرشح نفسك لاعتلاء رقاب المسلمين والتمكن من السلطة لفرض رأيك عليهم ولا تقبل أن يعلم المسلمون من أنت وما حقيقة إسلامك.

عندما نقترح على الملحد أن يعلن عقيدته بجرأة وشجاعة نُعقِبُ الاقتراح بالريبة والشك في أن أحدا من محترفي السياسة، ومن المناضلين الوطنيين أيضا إن وُجِد فيهم ملاحدة، يختار الانتحار السياسي.

هذا ما أعنيه حين أريد الملحد على إعلان رأيه بشجاعة وجرأة. هو يكفيني إن فعل شر نفسه. فإن امتنع فأقصى ما أكِنُّ لَه من الكيد أن أكشِف رِقّةَ دينه أو ظلمة كفره. وذلك قضاء على مستقبله السياسي يخْشاه فيسابق إلى الدفاع عن نفسه بشعار أننا كلنا مسلمون، وأن الصلاة شأن خاص. وأن إقحام الدين في السياسة هَرطقة سياسية في دين الديمقراطية اللاييكية طبعا ونبعا. الزم مسجدك أيها الواعظ! لا تحشر أنفك في السياسة!

الصلاة أولا!

قال المثقف الأمازيغي، وقبله قال المثقف العروبي، مقالةً تقدمية عصرية: «كن عصريا يا واعظ غيره. تنظر وراءَ وتحتَ ولا ينهض بك

جناحا العقلانية والديمقراطية لتحلق إلى مستوى العصر. الصلاة! الصلاة! هذا ما تحسنون الحديث عنه أيها الإرهابيون حتى ولو كنتم وُعاظا سُذّجا طيبي القلب».

وفي نية الواعظ هدفٌ أبعدُ مَدىً وأعلى مطمحاً. ما على أرضية السياسة والسباق إلى كسب ثقة الشعب أخاطبك. ما على مستوى التحايل السياسي على جلب نفوس الجماهير وخَلب عقولهم أجادلك. الصلاة أولا! شعار بين يدي كلمة تنبيه عسى أن يستيقظ نائم ويتحرك جامد، ويتوبَ عاص، ويدخلَ في دين الله زنديق.

حي على الصلاة! نداء من على منارة الدعوة، من على صومعة المسجد. والصلاة أولا! صَدى ذلك الأذان الشرعي الإسلامي لأحاور بالتي هي أحسن قارئ الحوار بين شلح وأمازيغي، بين أخوين صديقين رفيقين في المهنة عقودا من الزمن.

الصلاة أولا! يا قارئ الحوار الذي لا يُنهضه من مجلسه مسرعا إلى المسجد ملبيا داعي الله مؤذن المسجد. كلمة شفيق عليك رفيق ناصِح. هل أنت ثمرة في شجرة التطور تنتهي في حفرة القبر؟ أم أنت شخصٌ وحيدُ المثال في الوجود خلقك خالق سيتوفاك يوما ثم يبعثك في نشأة أخرى ويحاسبك؟

ما هو الحساب الصافي لحياتك؟ ما هي قيمتك في ميزان الإسلام، وأنت مسلم تزعم، إن كنت في كشف حسابك لا تضع الضِّلع الأول للصلاة عماد الدين؟

مسلم لا يصلي! مسلم يستعد للقاء الله أو لا يستعد.

«**أول ما يحاسب به العبد الصلاة**» جملة في حديث نبوي رواه النسائي بسند حسن.

مسلم لا يأبه بحساب! إذا لا يؤمن بيوم الحساب! إذا لا يصدق القرآن! إذا لا يثق بالرسول الذي بلغ عن الله! إذا لا يؤمن بالله!.

حاسب نفسك يا قارئ الحوار. ما أنا عليك بوكيل.

الصلاة أولا! لأعلم من يحاورني وعلى أية أرضية يمشي من يقرأ حواري مع محمد شفيق ثم يلْقي إليّ أطروحات السياسة، ومقولات أدب الخلاف، والدعوة بالتي هي أحسن، وفضائل التعددية والتسامح الديمقراطي الذي لاَ يقبل خنق الحريات وشنق المخالف على عمود «الصلاة أولا».

تقبل أيها الواعظ شروطي للحوار ومعاييري فيه أو ترفضه فتموت! قارئ حواري انقلع من تربته، من يعيد غرسه؟

جذور يبست، وجذوع جفت، وأوراق تَسَّاقط، مَن يحيي الخشب اليابس؟

جدار انهد وسقط، من يؤسِّس له في بنيان الأمة أساسا إن لم يكن المسجد يُتَعَهَّدُ، وأذان حي على الصلاة يُلَبَّى، وحجة الصلاة أولا! تُقْبَل أرضية مشتركة للحوار، من صُلب موضوع الحوار، من أصل الحوار لا من فروعه.

الصلاة أولا! ليتعظ متعظ: كلمة الله ورسوله نجتمع عليها أو نفترق. قل من أنت وأدْلِ بحجتكَ إن كنت ملحدا. ولا علينا بعدها أن تتسوّق أصوات الناخبين وتنافسنا في مجال ديمقراطي نظيف. فقد نفضل، بل قد كتبنا تفضيلنا بما لا يقاس، ديمقراطية نظيفة على استبداد وسِخ.

كلمة الله ورسوله ليتعظ متعظ وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة. ليصلي مسلم وليبوء تارك الصلاة بما بوّأه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

روى مسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة**». في رواية الترمذي: «**بين الكفر والإيمان ترك الصلاة**». واتفق أبو داود والترمذي على لفظ «**بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة**».

وروى النسائي والإمام أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن بُرَيْدَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ؛ فمن تركها فقد كفر**».

هنالك «هم» و«نحن». من ترك الصلاة انفصم العهد الذي بينه وبين المسلمين.

لهذا يحرص الفضلاء الديمقراطيون من أمازيغ وعربان أن يكون الجامعُ بين الناس «مجتمعا مدنيا» ديمقراطيا لاييكيا طبعا ونبعا. ويشمئزون أن نتميز عنهم في المصطلح فندعُوَ إلى ميثاق إسلامي تُبنى على قواعده وشريعة الإسلام جماعة المسلمين المصلين في المسجد، يربطهم العهد الذي لا يصح شرعا أن يضم تاركي الصلاة، فأحرى جاحديها، فأحرى المستهينين بها وبالشهادتين، فأحرى الجاهرين بالكفر كِفاحاً لاَ يُكْنون ولا عن زندقتهم يتجمجمون.

ما يجمعنا وما يفرقنا يا مواطنينا من شلوح وعربان؟ شلح مسلم وعربي مسلم في المسجد يصليان: هذان أخوان في دين الإسلام يربط

بينهما عهد أوثقه الله ورسوله. فإن انفصم العهد ووهنت الرابطة الإسلامية بين الناس، وكره العربي الأمازيغي واحتقره، وغضب الأمازيغي ورمى العربي خارج دائرة وَلائِه الشرعي، فتلك فتنة تنتشر من أفراد واهية رابطتهم الإسلامية، ومظهرها الصلاة والمسجد، إلى المجتمع قاطبة. وذلك انحلال الأمة. وذلك كفر فردي جَرَّ كفر المجتمع.

الصلاة وعهدها ورابطتها تكوِّن الدائرة التي من تخطاها خرجَ في شرع الإسلام عن دين الإسلام.

فما «مسلم» شلحي أو عروبي قومي أو ملحد جاهر أو منافق مُكابر يقود بجرأة وشجاعة طابور السياسيين الذين يعرفون وحدهم ما يصلح للمسلمين وما لا يصلح، وأي نظام سياسي ينبغي أن يُؤَسَّس أوْ يُؤَبَّدَ، وأية سياسة يجب أن تُتَّبَع في ميادين الاجتماع والعدل الاجتماعي، وقِسمة الأرزاق، وإدارة الاقتصاد، وعلاقات المسلمين بغيرهم إلخ؟

ما «مسلم» لا يصلي ولا يُرى أبداً في المسجد؟ ما «مسلم» انفصم العهد الذي بيننا وبينه بتركه الصلاة فهو ينسُج خيوطا عنكبوتية يريد أن يربط بها بين المسلمين بَدَلَ عهد الله الذي لا ريْب فيه؟

ليس منا ولسنا منه!

لكن لَوْ اكتملت شجاعته السياسية وجُرأته الفلسفية، وعقلانيته العتيدة وأعلن أنه خرج عن الملة وارتدَّ لكانت معاملتنا له معاملة أخرى. نرحب به في المضمار الديمقراطي ترحيبا حارا، ليقوم في المحافل السياسية الجماهيرية ويعلن كفره صراحة، ويطلب من عامة المسلمين أن يصوتوا عليه ليصلح البلاد وشؤون العباد.

لا يفعل ذلك أبدا لما يعلم ونعلم أنه انتحار سياسي نهائي. لا يفعل ذلك مثقف إلا في خفاء جُلسائه من أبناء سِربه، أو في مقاصف لهوه وشُربه.

لا يفعل ذلك أبدا، فلذلك يكذب على الناس فيزعم أنه مسلم مسلم مسلم. ويحتج ويثور إن أشار أحد بالطعن في إسلاميته.

ويلك! مسلم لا يصلي!

كما يحرص الفضلاء الديمقراطيون بربرا وعربا وتركا وفرسا على اللف والدوران في قاموس المصطلح السياسي، نحرص نحن على توضيح المبهَم من الدين لنعلم ما المسلم، وما العلم الذي به نكشف عن وجه الناس لنعلم من هو المسلم، ومن هو منا، ومن هو من غيرنا.

نعرف هل هو مسلم أو غير مسلم. كيف نشهد لأحدهم بالإسلام ونزكيه فنصوّت له ونرفعه إلى سُدَّة الحكم وهو لا يُرى أبدا في المسجد! تصرفنا بجهل إن فعلنا. خُنّا العهد المسجدي.

إنما نشهد لمن هو منا، ونزكي المسلمين المؤمنين.

علم الإسلام يقول: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد [في رواية يتعاهد المسجد] فاشهدوا له بالإيمان**». **فإن الله عز وجل يقول:** ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ الآية من سورة التوبة: 17. حديث شريف رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سؤالي عن إسلام المتداعين إلى قصعة السياسة هو نفس سؤالي عن مصير المغرب ومصير العالم الإسلامي. يقُودنا فننقاد قوم ليسوا منا إلا بالاسم والسِّحْنة ولغة أمازيغية أو عربية، أمازيغوفونية أو عربوفونية،

لهم امتدادات وجذور ومشارب ومطاعم من خارج دائرة الوَلاية بين المؤمنين المسلمين المصلين في المسجد يعتادونه ويتعاهدونه!

يقودنا فننقاد ونستسلم ونزكي قوما ليسوا منا بشهادة علم الإسلام، لهم في النظر إلى المستقبل مشروع غير مشروعنا، ونظام حكم يقترحونه لا يدخل في سياق شورانا، وأخلاق مبنية على أساس «المسلمة الدوابية» الإباحية، وفِكر مرجعيته نسبية تعترف أن لا حقيقة هنالك مُطلقة: فلا تقل الله والقرآن والرسل واليوم الآخر والصلاة والمسجد والعهد الذي بيننا وبينهم.

مسلمين نكون عربا وبربرا وتركا وفرسا وسودا وبيضا توحدنا شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله والصلاة والزكاة والحج والصوم والقرآن والحديث وفقه الشريعة، أم طلقاءَ متحررين من كل دين نكذب على المسلمين ونندس بينهم لِنَنْهَبَ في القصعة السياسية.

نكون مسلمين صدقاً وعدلا وشورى ووحدة بين هنود وعرب وسود وبيض وترك وفرس أو لا نكون.

نكون يربطنا العهد الذي يميزنا عن غيرنا أمة واحدة هي خيرُ أمة على وجه الأرض نحمل رسالة الإسلام للإنسان، أو لا نكون في عالم تكتسح أخلاقه الإباحية، واقتصاده السيطرة العملاقية للرأسمالية الأخطبوطية، وتكنولوجيا الأقوام البيض والصُّفْر، وشعوبَهُ المفقَّرَةَ كابوسُ الظلم والتخلف والجهل والمرض.

صلاة زيد وعمرو من أمازيغ الناس وأعرابهم لا تهمني منها هامَّة لو كان عمرو وزيد من غِمار الناس وعامتهم. من لا يُؤْبه به في الناس، لا يضر الأمة أن صلى أو لم يُصل.

لكن أن يرفع راية التفرقة بين المسلمين نبهاء من الناس من أعراب عُروبيين قوميين، أو شلوح أمازيغيين يدعو كل فريق منهم

بدعوى الجاهلية، فهذا مُروق عن الدين وإحْداث في الدين. وهذه واضحة الإسلام.

لا وزن ولا قيمة عند بعض الناس لما قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم. القائل منهم أن له مرجعية غير القرآن والحديث يحكم على نفسه أنه في واد غير وادي المسلمين.

يعبر المثقفون اللاييكيون بكلمات «المطلق» و«النسبي» وما شابه ليُعَمُّوا على أنفسهم وعلى الناس أنهم يكذِّبون بالدين. لهم مرجعية يرجعون إليها، ولنا مَرَدٌّ هو الله، نرد إليه سبحانه وإلى رسوله أمرنا.

﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾[1].

ذلك دَيْدَنُ المكذبين بالدين كما جاء في صدر السورة. والدين البعث والحساب والآخرة. «مسلم» لكنه لا يؤمن بالدين، ولا يصلي. يسهو عن الصلاة تاركا لها غير آبه بالوعيد الذي تقدم به رسول الله صلى الله عليه وسلم. غير عابئٍ بالويل الذي تُنذِر به الآية الساهين عن الصلاة.

له مرجعيته النسبية وحقيقته النسبية التي بمقتضاها يُحتمل أن يكون ثَمَّة بعث أو لا يكون، ويمكن أو لا يمكن أن يحيي الله الموتى، ويجهل هل بعد الموت والرحيل من دار الدنيا دار أخرى جنّةٌ للمؤمنين ونار للكافرين. بل يُحتَمَلُ أن ثَمَّتَ ربّاً خالقاً ويُحتمل أنما هي الطبيعة والتطور.

ساهون عن صلاتهم بالتَّرك والانقطاع. أو مُراءون منافقون يتظاهرون بالإسلام ويلبسون لباسه. نسبية يَحتمِل ويحتمل. ونسبية استواءالكفر والإيمان.

(1) سورة الماعون، الآيات 4-7.

عُبِّيَّةُ الجاهلية

نرد نحن أمرنا إلى الله ورسوله موقنين بحمد الله أننا إليه راجعون، طامعين في عفوه، راجين رضاه وجنته، حاكمين أن هذا حق وهذا باطل بمعيار ما قال الله تعالى وشرع، وما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغ.

في الفقرة السابقة قرأنا ما قال الله وبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن الصلاة وعهدها الرابط بين المسلمين وحكم تاركها. وذلك حكم عامٌّ يدخل تحته العربي والعجمي. عرضنا هذا الحكم أثناء حوارنا مع الأمازيغ الأحرار لأن منهم من تحرر من الدين إطلاقاً أو نسبيا فانجر معه مصلون مسلمون. فلعل التذكير بما هو الإسلام وما هو حكم الصلاة وسائر أركان الإسلام يوقظ أمازيغ مسلمين ربطوا ووصلوا ما أمرالله عز وجل ورسوله أن يُقْطع، وقطعوا ما أمر الله ورسوله أن يوصل. إذا كانت مرجعيتي النسبيةَ العقلانيةَ العمِيَّة عن الوحي الكافرةَ به، فالمليح والقبيح، والحق والباطل، والصواب والخطأ لا أعرفه إلا بمعيارها. بمعيارها أَصِلُ وأقطع، لا بمعيار قال الله وقال رسول الله.

قال الله تعالى في شأن واصلي ما أمر الله به أن يوصل: **﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ ينقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

تذكير منا لأولي الألباب بما ذكَّر الله. ردٌّ إلى كتاب الله عَلَّ أمازيغيا مسلما حق الإسلام وأمازيغية يراجعون مَكامن النفوس ومَغابِنَ النوايا ومنافقاتِ الطّوايا في أنفسهم وفي من هم سائرون في سربه ليَصلوا ويقطعوا بمعيارِ أمر الله ورسوله لا بالنعرات القومية مع قوم فصموا العهد الذي بينهم وبين المسلمين، ونقضوا عهد الله وميثاقه الرابط بين المسلمين، واعتنقوا دين النسبية «المتسامحة» التي تقبل في صفها الكافر والمسلم والمنافق على حَدٍّ سواء: لكل حقيقة اعتقاده، وحرية عبادته لله أو لبوذا أو للعجل. الكل أمازيغي أصيل نبيل. الكل موصول برباط اللغة والدم والتاريخ والوطن. الكل يطمح إلى عُقْبَى الدارِ السياسية في الدنيا.

وعقبى دار الآخرة أنت عنها ساه يا أخي يا أمازيغي يا مسلم يا مصلي. يا شلحةُ يا مسلمة يا مصلية!

تحشر مع من أحببت في الدنيا، ومع من ناصرت في الدنيا. تحاسَب يومَ القيامة وأنتَ مسلم تصلي وتنهاك صلاتك عن الفحشاء والمنكر مع من وصلتَهم بغير ما وصل الله، ومع من أفسدوا في الأرض فشاركتهم في إفسادهم.

تخشى الله كما يخشاه المسلمون وتتعرض للعنة الله ولسوء الدار!

اقرأ قول الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾**[2].

(1) سورة الرعد، 19–24.
(2) سورة الرعد، 25.

قطعت يا أخي الأمازيغي المسلم بهواك، ووصلت بهواك. ما إسلامك وصلاتك إلا سُخْرية بالإسلام إن كنت لا تحفظ عهد الله وميثاقه.

لعلك اغتررت بالمطلب اللغوي، وهزتك عواطف، وهَبَّ عليك حنينٌ لنبرة الأم الحنون تدَهدهُك في المهد والصبا بأنشودة شلحية رقيقة نبتتْ على نغماتها ذاكرتك وحساسيتك ونبض الحياة في شخصيتك العميقة. لعل صدى اللغة في أرجاء نفسك وصُوَراً أوحت إليك بها اللغة والموطن بقيت مستوطنة فيك متساكنة مع إسلام رضعته طفلا، وصلاة نشأت ترى الأب والعم والخال ينهضون إليها خمس مرات في اليوم.

لعل كل ذلك والاحتقارَ الذي ترى الناطقين بلغتك يعانون منه ثقافيا واجتماعيا وسياسيا ورزقيا استفَزّك فانخرطت في سلك واصِلٍ بين حبات آدمية شلحية أمازيغية ريفية بعضها يصلي كما يصلي المسلمون، وبعضها ملحد جاهر، وبعضها منافق عاهر.

لا عليك يا نفسُ فالتكتل قوة. ونحن مسلمون أمازيغيون لا نحتاج لواعظ يَفُلُّ من حدِّنا ويوهي قوتنا.

لا عليك يا نفس فنحن مسلمون ولو قطعنا ما أمر الله به أن يوصل ووصلنا ما أمر الله به ورسوله أن يقطع.

ثم إن الأمر لا يعدوالمطلب اللغوي الثقافي السياسي الحقوقي الأرزاقي. لا يعدو الأمر مطالب إعادة الشرف والاعتبار.

ويحك يا أخي يا مسلم يا أمازيغي! ويحك يا أختي المسلمة الريفية والشلحية!

إنه المصير إلى الله عز وجل. وإن المطالب العاطفية الشرفية الحقوقية الدستورية بعدها شقٌّ لصفوف الأمة التي وحدها الإسلام

قرونا ويروم أبناء كُسَيلَة وأنصار «الشهيدة» الكاهنة أن يُزيغوها من إسلام لجاهلية.

وستجد نفسك إن انخرطت إمَّعةً ساذجاً في ركب القوميين المترابطين بعصبية جاهلية محشورا يوم القيامة مع أهل العصبية الذين تصف حالَهم الأحاديث النبوية التي أذكرك بها هنا شفيقا بك واعظا حريصا على أن تستيقظ.

هذه مرجعيتك من القرآن الكريم والسنة المطهرة. فما إسلامك؟ أهو إسلام المرجعية النسبية؟ أم هو إسلام المسلمين؟

تختار لدنياك وآخرتك. وتختارين.

الذي أمر الله به أن يوصل هو آصرةُ الإسلام، و«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة»، وميثاق لا إله إلا الله محمد رسول الله. والذي أمر به الله ورسوله أن يقطع هو عبّيَّة الجاهلية، وأنصار باطل عبية الجاهلية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة خطبها في مكة يوم فتح مكة: «**يا أيها الناس! إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيّةَ الجاهلية وتَعاظُمَها بآبائها. الناس رجلان: بَرٌّ تقِي كريم على الله عز وجل، وفاجر شقي هيِّن على الله عز وجل**». الحديث. رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر بسند حسن.

العُبِّيّة من العِبْءِ وهو الثِّقْلُ. ثِقْلٌ ثقيل في ذاكرة العصبية القبلية يُخْلِدُ بها إلى الأرض، لا يرفعها إلى السمُوِّ الإيماني الذي يسموه المؤمنون بالله واليوم الآخر المصلون أهلُ المسجد.

ما أقذر الوصف الذي وصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعصبين لآباء ماتوا على الكفر، ولسَلَفٍ جاهلي يهتفون بأمجاده!

نَتِنةٌ هي دعوى الجاهلية. تخاصم رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجلٌ من المهاجرين وآخر من الأنصار، فنادَى أحدهما: ياللمهاجرين، ونادى الآخر: ياللأنصار. فزجرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «**دعوها فإنها مُنْتِنة**». من حديث رواه الشيخان.

يا أبناء كسيلة ونسل الكاهنة «الشهيدة»! إن كان منكم من لا يسمع بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمته البليغة في العُبِّـيِّينَ ولا يتعظ ولا ينزجر فعلى إسلامه العفاء!

من حديث نبوي رواه الترمذي وابن خزيمة وابن حِبَّانَ والحاكم بسند صحيح عن الحارث الأشعري قوله صلى الله عليه وسلم: «... **ومن دعا دعْوى الجاهلية فإنه مِن جُثَى جهنم**». فقال رجل: يا رسول الله! وإن صلى وصام؟ قال: «**وإن صام وإن صلى. فادعوا بدعوَى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عبادَ الله**». الجُثَى جمع جُثْوَة: الجماعة من جماعات جهنم.

ما دعوى الجاهلية؟ أنا بربري وأنت عروبي! أنا أمازيغي وأنت أسود!

ما دعوى الله؟ أنا وأنتم مسلمون مؤمنون عبادُ الله إخوان.

خسيسة هي دعوى الجاهلية والفخر بآباء جاهليين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة: «**ليَدَعَنَّ الناسُ فخرهم في الجاهلية أو ليكونُنَّ أبغض إلى الله عز وجل من الخنافس**».

وروي أيضا أنّ أُبَيّاً بن كَعبٍ رضي الله عنه أعَضَّ رجُلا اعْتزى بعَزَاء الجاهلية ولم يَكْنِهِ. فنظر القوم إليه. فقال للقوم: إني قد أرى الذي في أنفسكم. إني لم أستطع إلا أن أقول هذا. إن رسول الله صلى

الله عليه وسلم أمرنا: «**إذا سمعتم مَن يعتَزِي بعزاء الجاهلية فأعِضّوهُ ولا تَكْنوا**».

أعضّهُ إذا قال له: يا عاض كذا وكذا! وهي أفظعُ وأقذرُ ما كان العرب يسُبّون به الجانِيَ ويزجرونه.

فبعدَ الوعيد الشديد لأهل العبّيَّة الجاهلية بأنهم من جُثَى جهنم إن هم دعَوا بدعوى الجاهلية لا بدعوى الله، وبعد احتقارهم وتهوين شأنهم كهوان الخنافِس والجِعلان، يأتي الأمر الشريف المطاع يطيعه المؤمنون ويعصيه المنافقون بأن نُعِضَّ من تعزّى بعَزاء الجاهلية وتعصب لقومية تدعو بدعْوى الجاهلية.

يقول عُروبيٌّ قومي: «أنا لا أتعزى إلا ببني أمية المسلمين، وببني قيس ومُضر من المسلمين، وبالحزب العربي القومي وقد «أسلم» زعيمه مشل عفلق، وكتب قائده العراقي كلمة «الله أكبر» على الراية، وشمخ قائده الآخر النصيري جزار حماة بأنفه صامدا في وجه «إسرائيل» كما صمد صدام البطل حتى خراب العراق في وجه أمريكا».

ويقول الأمازيغي: «بعضنا يتعزّى بعزاء كسيلة والكاهنة وجوبا وماسنيسا، لكن لا عبرة بهم. إنما نحن نتعزى ونفتخر بطارق بن زياد الفاتح المسلم العظيم. وبما لا يحصى من أبطال البربر على مر العصور حتى عهد مقاومة الاستعمار الفرنسي والإسباني. وما اسم موحا وحمو واسم أسد الريف محمد بن عبد الكريم إلا ألوية مجيدة تخفق عالية في سماء الرموز المسلمة».

نعم لو كان بنو أمية خلفاءَ حَقٍّ لا ملوكا جبابرة انقضوا على الحكم اعتمادا على عبيتهم القومية لقلنا. ولو كان مشل عفلق وتلامذته القوميون شيئا آخر غيرَ ما يشهد به التاريخ المعاصر لتأملنا.

ولو كان المعتَزون بجوبا وماسنيسا وكسيلة والكاهنة هامشا موبوءاً في الناطقين بلغة الشلوح لسمعنا.

لكن عروبية القوميين عصبية جاهلية اجتمع فيها من شروط الجاهلية ومظاهرها وأفكارها وأفعالها الشنيعة وزندقتها ما لا يدع مجالا للشك في مَبْدئِها ومأتاها.

لكن المثقفين البربر المعتَزين بأمجاد الجاهليين الأمازيغ هم حَمَلَةُ لِواء الأمازيغوفونية. وأنتم المسلمين المصلين المعتَزِّين بطارق وابن عبد الكريم الناطقين بلغة الأجداد البربر هوامشُ في الجمهور البربري.

فرغنا من الملحدين والمنافقين

فرغنا من الملحد الأمازيغي. فذاك والعروبي القومي الملحد تجمعنا وإياهم ديمقراطية نظيفة نفضلها ألف مرة على استبداد خسيس دنِس. تجمعنا وإياهم ديمقراطية يختار الشعب بمقتضى مبدئها الأول: «أن الشعب يختار حكامه» مسلمين يصلون ويطيعون الله ورسوله، أو «مسلمين» لا يصلون ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض.

تجمعنا وإياهم ديمقراطية ينَدَسون تحت عباءتها بإسلام ظاهر ليس له باطن، بإسلام المنافقين.

ما منهم عاقل حاذق طموح يستطيع أن يجْهر بكفره.

يفضحه يوما نفاقه. ينحَرهُ يوما نحرا سياسيا نفاقه إن كان لا يملك شجاعة اقتناعه وجُرأة مرُوقه لينتحر انتحارَه على الملإ فيُفصح عن ذات نفسه.

تجمعنا وإياه ديمقراطية ذليلة لأن أصحابها المارقين عن الدين يتخلون عن المبدإ اللازم للديمقراطية فيرفعون بشَمَمٍ وافتخار واحتجاج شعار: «كلنا مسلمون».

فرغنا من هؤلاء الذين دعوناهم لميثاق إسلامي يجمع شتات هذا الشعب -هذين الشعبين البربري والعربي- فأبوا واشمأزّوا ونفَروا.

لا يعني التنصّلُ من العبّيَّـــة التَّبَرُّأ من انتماء المرء لشعبه وقومه. بل الانتساب السليم إلى القوم والشعب واللغة آصرة تَشد من كيان المسلمين كما تَشد العُبِّيّة الجاهلية جموع جهنم وجثاها.

فرغنا أيضا في الفقرة السابقة من «مسلمين» يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لكنهم لا يصلون. وبذلك يعصون الله ورسوله. وبذلك يفصمون العهد الذي بيننا وبينهم. هؤلاء غير أولئك. هؤلاء يتوبون وموعدنا معهم المسجد وصف الصلاة.

فرغنا من طائفتين عربان وشلحان.

ونفرغ لإخواننا المسلمين المصلين الذين اصطبغوا عن وعي أو عن غير وعي بالصبغة القومية، وجرَوْا في مهيع الأمازيغية والعروبية.

نفرغ لهم لنُعِضّهم بالصيغة التي تهضمها لغة العصر ويستسيغها ذوق الأدب الحواري.

نادى الصحابي أبو ذر رضي الله عنه رجلا من المسلمين وقد تغاضبا: «يا ابن السوداء». فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأبي ذر: «**إنك امرُؤ فيك جاهلية**».

يا مسلمين يا مصلين يا مُهمشين في طوابير الآخرين: إنكم فيكم جاهلية.

ما حظكم من ظن الجاهلية الذي يوجه أفكار أصحابكم؟

ما حظكم من حكم الجاهلية الذي يسيطر به صدام اليومَ وكسيلة أمس على الناس، ويضمِرُه كل قومي من أهل العبّـيّة نظاما لغد هذا الشعب؟

ما حظكم من حَمِيَّة الجاهلية وبُركانها المكتوم الذي يجتهد أصحابكم في تفجير ناره؟

ما حظكم من تبرج الجاهلية الذي يلتقي عليه أصحابكم وعامة أهل الخلاعة الراقصة الماجنة في فنادق المترفين ومهرجانات الفاسقين؟

تعييركم بأنكم فيكم جاهلية تَأَسٍّ بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم إمامنا الوحيد، وقُدوتنا الوحيدة، ومرجعيتنا الخالدة.

ونطيعه بعد ذلك فنمتثل أمره إيانا بأن نُعِض المعْتزين بعزاء الجاهلية. لئن كان اللفظ والجفاء الخشن كان قولا بليغا عند العرب، فإن من اللوم والتقريع بلغة العصر ما لعله يفهمه أهل العصر لينزجر مسلم مصل ومسلمة ضاعا في خِضَمِّ العُبّـيّة الزاخر.

فنقول مطيعين راجين من الله عز وجل جزاء من سمع فأطاع: يا إخوتي! يا أخواتي! من أمازيغ وشلوح وريفيين ويزناسنيين وشاوية وقبائل! يأيها المسلمون والمسلمات المصلون والمصليات المؤمنون بالله وباليوم الآخر والمؤمنات.

أتلعبون بدينكم وبآخرتكم فتتعرضون لغضب الله وتكونون أهون عند الله من الجعلان والخنافس وأنتم أعزكم الله بالإسلام وشرفكم بالحفاظ على صلاتكم؟

ويحكم ثُمَّ ويحكم ويا لَهْفَ نفسي عليكم!

كلمة صادقة لعل منكم صادقين غرهم المنافقون.

يُرْثَى لحالكم! صبيان عقول أنتم؟ أغرار أنتم فتنوكم عن دينكم؟ إمَّعات أنتم تستجيبون لكل ناعق؟ انهزاميون أنتم تَفْرَقون من ظل أصحابكم الـمُظْهِرين الـمُبْطنين؟ انتهازيون أنتم ترجون من اعتزائكم بدعوى الجاهلية عزا؟ ضعفاء أنتم استضعفوكم وغلبوكم على دينكم وعمادُه صلاتكم التي من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر؟

أي منكر أنكرُ من العُبّية الجاهلية المفرقة صفوف الأمة!

ألا رجال من طينة طارق بن زياد وقوته وإيمانه! قاد المسلمين فاتحا، عربا وبربرا. لم يخنع لجبَّار، ولم تَثْنِ عزمه وتوكله على الله مجاهل بلاد الكفر. ألا من رجال أقوياء الإيمان ونساءٍ يعرفن حق شهادة أن لا إله إلا الله ينفُضون أيديهم من خزعبلات العصبية العنصرية أقوياء غالبين، لا ضُعفاء مستضعفين.

استضْعفوكم فجهرتم بالمقبول في دين الثقافة اللاييكية وكتمتم إسلامكم وخجلتم أن تقوموا لصلاتكم في المحافل الهادرة بالاحتجاج على العرب الغزاة الذين قتلوا كسيلة كبيرَ البربر والكاهنة «شهيدة» القومية العتيدة.

كرهتم بكراهية أصحابكم دُعاة الإسلام المجاهدين الفاتحين الذين أخرجوا أجدادكم من جاهلية لإسلام وكانوا رحمة وهداية. وها أنتم أولاءِ ترتدون بردة أصحابكم وهوان إسلامكم عليكم.

مسلمون وتخشون في الله لومة لائم!

اقرأوا يا بني خُؤُلتِي الشلوح، يا بني أمازيغ يا أرياف يا يزناسنيون، يا من يصلّون لله ويسجدون ويركعون، ثم ينفرون إلى نوادي العُبِّيّة

ليناضلوا تحت راية عُمِّيَّةٍ ينصرون قضية يشجبها الدين ويلعنها الكتاب المبين.

اتلوا يا قارئي الحوار من أخوالي الأمازيغ الأحرار آيات الله الواصفة حوار أهل النار وحِجاجهم وخصامهم. منهم مستكبرون حملوا لواء الجحود والكفر فخضع لهم وخنع مستضعفون إمعات ما فطِنوا للطامة الكبرى التي ألقاهم فيها خنوعهم للكبراء إلا وهم في قعر جهنم. نعوذ بالله من النار. وأعيذكم إخواني وأخواتي في الإسلام المصلين والمصليات من النار.

اقرأوا في سورة القصص كيف جعل فرعون الناس شِيَعا وفرَّقهم ليستضعفهم وينصر دينه القائم على عقيدة «أنا ربكم الأعلى».

اقرأوا آيات سورة الأعراف تصف كيف استضعف كبراء قوم صالح عليه السلام ضعفاءهم فصمَد الضعفاء وثبتوا على إيمانهم.

اقرأوا حجاج الضعفاء والمستكبرين في النار في سورة سبإٍ (في الآيتين 33 و34). ومثل ذلك في سورة إبراهيم (الآية 14)، وسورة غافر (الآية 40).

أين إيمان أجدادكم الذين أسلموا مع حسان بن النعمان، ومع عقبة ابن نافع، وبايعوا المولى إدريس وجاهدوا معه ليدخل البربر في دين الله أفواجا. لولا إيمانهم، وشجاعتهم في الحق، وجهادهم، وقطعهم وشائج العُبية الجاهلية، ووصلهم ما أمر الله به أن يوصل وهو آصرة الدين، وأخوة الإسلام، ووَلاية الإيمان لَمَا عرف آباؤكم وأجدادكم الله، ولَمَا أشرقت شمس الهداية الإسلامية على ربوع «الوطن الأمازيغي» الذي يعبده أصحابكم من دون الله.

أنتم أحفاد القبائل الأمازيغية التي بايعت إدريس وجاهدت معه: مكناسة، غمارة، لماية، لِواتة، صدارة، غياثة، نفزة، أوربة، زواغة، زناتة، زواوة، وسائر القبائل التي دخلت في دين الله طوْعا بعد أن قاتلت المسلمين زمانا قبل أن يشرح الله صدرها للإسلام.

قبيلة أوربة قومُ كسَيْلة اهتدت وبايع قائدها المجيد إسحاق بن عبد الحميد إدريس.

فهل من إسحاقات فيكم يكفرون بدين كسيلات العصر. بقوة وشجاعة يطيعون الله ورسوله في قطع الحبال الجاهلية التي تَرْهَن مصيرهم الأخروي وتهدده؟

ألاَ وإن قطع حبال الجاهلية لا يعني إِنكار الرجل المسلم والمرأة المسلمة لغة قومها. لا يعني قطع رحِمٍ في الشلوح والأمازيغ والريف. بل صلة الرحم مطلَب أساسي منً مطالب الإسلام. والألفَة مع القرابة والناطقين بلغة الأقارب شأن من شؤون الفطرة السليمة يوظفها الإسلام التوظيف السليم لتكون رابطةً تقوِّي رابطة الإسلام. فإن نازعَتْها وغلبت عليها وأحببْتَ الأمازيغيَّ الكافر والشاك في دينه وكرهت العربي المسلم فما إسلامك إلا خُدْعة تخدع بها نفسك.

قدوتنا وإمامنا ومعلمنا وحبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم احتفظ بالوشائج القبلية السليمة، وسخَّرَها لتمتين رابطة الإسلام. فكان صلى الله عليه وسلم يُـبْقي الهياكل القبلية على حالها: تفِدُ عليه القبيلة مسلمةً فيؤمِّر عليها شيخها التقليديَّ الوافدَ مع قومه، يامره وإياهم بتقوى الله وبالأخوة في الله.

ما أنكر صلى الله عليه وسلم إلا العُبيَّة الجاهلية، وهي النُّعرة التي ينادي بها أعراب منافقون يتشيعون للقبيلة والآباء الجاهليين من حيث يَفُتُّون في عَضُدِ الأخوة الإسلامية.

يُثْبِت رسول الله صلى الله عليه وسلم البُنيَة القبلية كما هي، يَنتقل عامة القبيلة وخاصتها من جاهلية لإسلام، فيباركُ القبيلة ويدعو لها: «غَفار غفر الله لها»، «سليم سلمها الله»، «الإيمان يَمانٍ».

ويفتح صلى الله عليه وسلم مكة فيستعرض كتائب المجاهدين، كل قبيلة تحت رايتها الخاصة. وتلك كانت راياتٍ مشرقاتٍ بإشراق نور الإيمان في قلوب أصحابها. لم تكن رايات عُمِّيَّاتٍ.

وساندت الوحدة القبلية قُـوَّة الوحدة الإيمانية في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته. ففي حروب الردة قاتل المسلمون في اليمامة حتى استُنزِفوا وقُتِل خيارُهم. فاستبسل الباقون وتنادَوْا بالأحساب أي بالانتماء القبلي: أين أنتم يا بني كذا يا قبيلة كذا.

استشهِد في تلك الواقعة القُرّاء من الصحابة الذين كان باعِثَهم الإيمان، وكانت استجابتهم خالصة لله: ﴿**أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾[1]. ولجأ الباقون بعدهم إلى اللُّحْمَةِ الدنيا ينصرون الإسلام برابطتها: القبلية والشرف.

لا يُنكر الإسلام البناء القبلي والعُرف واللغة ما دامت لا تناقض الإسلام. بل يشجع روابط العرف واللغة والقوم إن كانت تفتِل في حَبل القوة الإسلامية وتشدُّ من عضدها.

فهل من طارق بن زياد فيكم يا أخوالي الشلوح، يا بني عمي الأمازيغ، يا أُسْدَ الريف المجاهدين؟

(1) سورة الفتح، 29.

الفصل الثاني

هوَية وتاريخ

- هوَيّة
- تاريخ
- هوية انشطارية
- الحسن اليوسي
- محمد بن عبد الكريم الخطابي
- محمد المختار السوسي

هوَيّة

يُسأل الإنسان من هو، أو يُسأل غيرُه عنه، فيُعَرَّفُ بأخص خصائصه، يُعَرَّفُ بحقيقة نفسه. فالهويّة على صيغة المصدر الصناعي كما يقول علماء اللغة، هي حقيقة الإنسان، أو حقيقة قوم أو جماعة إليها ينتمون، وبها يعتزون، وبها يتميزون لأنفسهم ولغيرهم عن غيرهم.

يعْتزي الإنسان والقوم ويعتزون بما يُكْبِرُ أنفسهم في أنفسهم، وبما يكبرهم في أعين غيرهم، وبما يرفع شأنهم، وبما يُرضي رغبتهم في الحصول على الشرف والحُظوة الاجتماعية، وبما يُحَصِّنُهم من الوَضَاعة، وبما يضمن مصالحهم كما يتصورون هم مصالحهم.

لو كانت هُوَيتي في نظر نفسي هي حقيقتي النسبية بين الحقائق البشرية، فإن هويتي تُصبح عندي هي الحقيقة التي أدافع عنها، وأصدم بها كل حقيقة تخدش كرامتها، أو تهدد كيانها، أو تقف في طريق بزوغها وإشراقها شمساً تكسف كل ضوء، وتنير كل طريق.

تصبح هُوَيتي هي الفكرة الـمُوَجهة لسلوكي.

إن قال النفعي: الحقيقة ما ينفع، قلت: الحقيقة ما يخدم هوَيتي. وإن قال المثالي: الحقيقة ما يسمو بالعقل والخلق، قلت: الحقيقة ما يسمو إلى إدراك تفوق هويتي. وإن قال المؤرخ: الحقيقة هي زبدة التجربة الإنسانية، قلت: التاريخ أنا ابن بجدته، زبْدَته أجدادي. وإن قال السياسي: الحقيقة صنع التاريخ، قلت: الحقيقة نضالي عن هويتي ليكتب في الدستور أن المغرب بربري بنسبة ثمانين بالمائة، وأن اللغة الأمازيغية يجب أن تحتل على الأقل المكانة التي يريد العربان أن تستأثر بها لغتهم.

إن كانت هويتي أرضية فأنا أعتزي وأعتز بما يملأ أنانيتي عظمة، ويشبع دنياي جاها ورئاسة ومصالح ومنافع.

لا أصغي إن كانت هويتي أرضية تاريخية قوامُها لغة الأجداد وتاريخ الأجداد إلى واعظٍ يتحدث عن الإسلام والصلاة والجاهلية والعبّـيَّــة والرايات العُمِّيَّة.

لا أسمع وأذن عقلي وقلبي ترن فيها أصداء الهوَية المجيدة. لاَ أبصِرُ ومرمى نظري أينما توجهت هُيامي بتاريخي ولغتي وتطلعي لمستقبل حر كريم. لا أسمع ولا أريد أن أسمع!

إن كانت هُوَيّة المسلم وانتماؤه وفخره وعزه وتاريخه تبدأ من لا إله إلا الله محمدا رسول الله، من إله خالق رازق قاهر مُحْيٍ مميتٍ أنا عبده، من آدم عليه السلام الذي كرمه الله وكرَّم بنيه، ومن بعثة الرسل والأنبياء إلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأنا الأمازيغي لا هوَيّة لي تنبثق من المطلق. هويتي هي المطلق. هي القيمة العليا. هي المثل الأعلى الذي أحيى به وله.

هُوَيتي تبدأ من فترة العصر الحجري حين استقر أجدادي على أرض «الوطن الأمازيغي». فخري وعزي وتاريخي أن الفينيقيين ومن بعدهم من رومان ووندال وجدوا أجدادي يحمون حوزة الوطن، ويدافعُون عنه بأسلحة لا تقل حضارة وتطورا عن أسلحة معاصريهم من الأمم.

أجدادي سماهم الرومان «بربرا» بالاسم الإغريقي الذي كان يطلق على الأجانب. فأجدادي ما اندمجوا قط في الغزاة الرومان الذين قهروا العالم في عصرهم. فكيف تمحق هويتي -كيف يُراد لها أن تمحق وهيهات -وتدمج في حضارة الغزاة العربان؟! صامدٌ أنا

لا أزال شامخ الأنف! سَلْ الرومان عما لاقَـوْا من بأس الأمازيغ الليبيين والنوميديين والموريتانيين. لا يندمج الأحرار الأمازيغ في أحد ولا يهينون.

الأمازيغ قومي الأماجد. إن سماهم غيرهم «بربرا»، وهي تسمية مُشرِّفة دالة على امتناع الأمازيغ عن التنازل عن هويتهم، فاسمهم من لغتهم «إمازيغن» تدل على الإباء والشجاعة والشهامة والشمَم والاستعصاء على العدو. سادةٌ هم لا يُستعبَدُون.

الأمازيغ شعب أصيل عريق في التاريخ متمسك لا يزال بعاداته وتقاليده ولغته رغم الاستعمارات المتتالية التي آخرها الاستعمار الفرنسي الذي أبلى فيه الأمازيغ البلاء الحسن. جذوري في التاريخ والأرض لا تزعزع.

بقي استعمارُ العربان المسلمين الذين أعزم أنا وبنو قومي أن نناضل لندفعه ونمنعه من طمس هويتنا.

فَـتَحْتُ هذه الفاصلة من الكلام بلَوْ التي تفتح عمل الشيطان. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وأعود لأحدثَ من يَسمع ويبصر من إخواني الأمازيغ، ممن لا تُغْشي أبصارهم ولا تُوقر أسماعَهم النضاليةُ الممانعةُ عن الهُوَية، الناصبةُ شعارات الهوَية صنما يُعبد من دون الله.

أقول لإخواني: إن الذي يهدد مصير المسلم المؤمن بالله وباليوم الآخر، ليس ما ينغص عليه دنياه، بل ما يقدح في دينه ويعرضه للعقاب إن عصى الله ورسوله ونادى بنداء الجاهلية وافتخر واعتزى واعتز فألْقِيَ في نار جهنم جُثىً من جثاها.

منغصاتُ الدنيا ما يتعرض له المسلمون في العالم من ضياع وحقارة وضَعف وهُزال وهزيمة وفُرقة. الفُرقة وتشتُّت الشمل في رُقَيْعَاتٍ وأقطار قبع فيها كل شعب، أو كل شعبين كما هو حال المغرب وسماها وطنا، وقطع نفْسَه عن الوحدة الإسلامية مُقَدِّساً الحدود الاستعمارية، مُنْحشِراً وراء أسلاك السجون التي رَسَم خارطتها أعداؤنا.

منغصات الدنيا إن أصاب بعضُها الأمازيغ من جراء طغيان الأعاريب فما علاجُها بطغيان معاكس مماثل. إن استُهين بالأمازيغ ولم يُوَفوا حقَّهم فما العلاج أن ينبذوا ظلـمَ الأعاريب وينبُذوا مع الأعاريب دينا بعث الله به رحمةً للعالمين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم.

نحارب منغصاتِ الدنيا وآلام ظلمها والطغاة الظالمين مهما كانوا. لكن لا يستخِفَّنَّا الظلْمُ الأصغرُ الذي يصيبنا به طغاة البشر فنتَدَرَّعَ بالظلم الأكبر وهو الشرك بالله، والإلحادُ في دين الله، والردةُ عن دين الله، وازدراءُ العهد والميثاق والصلاة والزكاة وسائر أركان الإسلام.

نحارب الظلم كلَّه من كل وجوهه بكل مقومات إسلامنا، ويَبقى لنا شرف انتسابنا لبني إمازيغن موفورا. ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[1] قرآن كريم. «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**» حديث شريف.

ننتسب للجاهليين من الأجداد لحما ودما ووراثة بدنية. وننتسب لهم مروءةً وإباءً وشجاعةً. فذلك شأن الفطرة والنسل الطيني الذي خلقنا الله عز وجل منه.

لكن الانتساب الطيني السُّلالي لا يتعاظم في أعيننا فيَعترِضَ أفقَ انتمائنا الإسلامي.

(1) سورة الحجرات، 13.

والناس خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَـقُهوا، كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

تاريخ

قُتل كسيلة على الكفر وقتلت الكاهنة. كانت ملكة شجاعة شامخة الأنف. استبسلت مع رجالها أمام جيش حسان بن النعمان حتى النهاية، وقالت قولتها المشهورة: كيف أفر وأنا ملكة! والملوك لا تفر فأورثَ قومي العار!». ما أسلم كسيلة وما أسلمت الكاهنة ليَعتبر الإسلام خِيَرَتهم الجاهلية. فهما وقومهما شجعان ذوو نخوة، لكن موتهما على الكفر يسقط بالشجاعة والنخوة إلى مرتبة العُبِّية الجاهلية، من تعزى بها اعتزّ لِيُنَاهض بمروءات الأجداد الكافرين مروءات الأجداد المسلمين، وبشجاعتهم شجاعتَهم، وبعزّهم عزهم فإنما يستحق بميزان الإسلام التّبكيت والإعضاض.

استبسل الأباةُ من فرسان البربر وملوكهم سبعين سنة ودافعوا عن حوزتهم بشجاعة نادرة. شجاعةٍ يَبُزُّون بها شجاعة الأمم إذا قارنَّا وحسَبنا أن المجاهدين المسلمين الفاتحين اكتسحوا مقاومة شعوب متعددة في الشام والعراق وفارس ومصر في عشر سنوات.

واعترف الفاتحون المسلمون بكثافة المجد البربري، فيكتب عقبة بن نافع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن بلاد البربر «ملوكها كثير، وأهلها عدد عظيم. وأكثر ركوبهم الخيل» فأمر عمر رضي الله عنه القائد الكبير أن لا يزج بجند المسلمين في حروب مع البأس البربري ما دام عمر حيا.

كان البربر أشداءَ أقوياء، فرساناً لا يشق لهم غبَار. يصفهم ابن خلدون رحمه الله فيقول: «قوم مرهوب جانبهم، كثير جمعهم، مُظاهرون لأمَم العالم وأجياله من العرب والفرس واليونان والروم في الصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، والإعانة على النوائب، وعلُوِّ الهمة، وإباية الضيم، ومُشاقَّة الدُّول، ومُقارعة الخطوب، وغلَبة الملْك وبيع النفوس».

فلما شرح الله صدور الفرسان الأباة للإسلام اعتنقوا الإسلام ودافعوا عن الحق الذي عرّفهم به الإسلام. فكان منهم طارق بن زياد، وكان من نسلهم علماء أجلاء، ومجاهدون أشداء في الحق، ودُعاة أسّسوا حكما، وحكام ملوك شادوا صروح دُوَلٍ عظيمة بسطت هداية الإسلام في شمال إفريقيا وجنوب أوربا.

اقتنع بالإسلام على يد عقبة بن نافع والأمراءِ المسلمين من بعده قبائل مثل لواتة ونفزاوة وزواغة وسائر القوم الذين بايعوا فيما بعدُ المولى إدريس رحمه الله. ثبتت على الإسلام قبائل وارتدت أخرى وتذبذبت ونافقت. يعُد ابن خلدون لبعض البرابر اثنتي عشرةَ رِدّة عن الإسلام في الفترة الأولى للفتح الإسلامي.

فلما قُتلت الكاهنة وانهزم جيشها تَمكن الإسلام في أرض البربر وقلوبهم، فأصبح المغرب وسائر بلاد الشمال الإفريقي معقلا من معاقل الإسلام، وقلعة من قلاعه، ومعسكرا جهاديا، ورباطا للدين خرج منه مؤسسو دول المرابطين والموحدين والمرينيين.

كان للبربر شوكة عسكرية هائلة نازلت الغزو الخارجي الروماني قبل الإسلام بقيادة بوغوطة وماسنيسا.

كان للفرسان البرابر في الجاهلية باعث قوي وشعور بالعزة والأَنَفة قاموا به في وجه الدول العظمى في ذلك الزمن. أنفَةٌ وعزة وحساسية ضد الظلم دفعت ماسنيسا الذي خدم في الجيش الروماني زمانا إلى الثورة على الرومان المحتلين بلادَه ليدفع عن قومه الظلم الروماني والعُنجُهية الرومانية. وليحقق الاستقلال والحرية والانتصاف من العُتاة الجبارين في الأرض.

وتلك رجولة وشهامة لها الاعتبار الكبير في ميزان المروءات.

وتلك مروءة يؤيِّدها الإسلام: أن يثور المظلوم على الظالم، وأن ينتصف المغبون المضطهد من الجبارين في الأرض.

رجولة ومروءة وشجاعة اختلطت أمشاجا في الدماء الموروثة التي تجري في عروق بعض معاصرينا من الأمازيغ مع التذبذب في دماء بعض القبائل التي ارتدت اثنتي عشرة مرة.

فهذه هي الردة الثالثة عشرة يقودها منافقون متذبذبون ناطقون باللغة الأمازيغوفونية التي تعتبر المسلمين الفاتحين غُزاة، والكاهنة «شهيدة»، والعنجهيةَ الغربية المعاصرة الغازيةَ أفكار المسلمين وعقائدهم وديارهم واقتصادهم وحضارتهم صديقا حميما، ومعلما مؤتمنا، وحليفا قويا لمحاربة «التطرف الإسلامي».

شجاعة ماسنيسا وأنفة الكاهنة انتكست وانعكست في أجيال بعض الأمازيغيين المعاصرين. إن كان فرسان البربر الجاهليون يُدافعون عن حوزة لا يرضوْن أن يَطأها عدو، فورثتُهم لا يميزون العدُوَّ من الصديق. إن كان الأجداد الجاهليون يُعِدّون العُدَّة ليدفعوا عن استقلالهم وحريتهم، فورثتهم يقدِّمون استقلال أمتهم وحريتها رَهناً في يَد ثقافة العدو: يستنيرون بنسبيتها في «ظلام التطرف الإسلامي».

نطق الأجداد الجاهليون الأقوياء الأشداء بأمازيغية عبَّرَت عن ذاتٍ مستقلة أصيلة. أما الأمازيغوفونيون فإن كان اللفظ مُؤَصَّلاً في لغة الأجداد فالمعنى المعَبَّـرُ عنه يكشف ذاتا هجينة.

هوية انشطارية

ذات كانت خرجت من جاهلية ودخلت في إسلام فأسست عز البربر في دولة صنهاجة المرابطين، ومصمودةَ الموحدين، وزناتة المرينيين، وأجنادِ الإسلام منذ دخل البربر في الإسلام.

ذاتٌ بربرية انعكست وانتكست وانشطرت: فبعضها يرتد من إسلام لجاهلية. يرتد من إسلام لا يحب أن يعرف ما هو وما يقتضيه مبدؤه، وشهادته أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ولا يحب من يحدثه عن الصلاة والشريعة الإسلامية. ويتهم بالإرهاب من يدعوه إلى ميثاق إسلامي يدخل فيه كل المسلمين، يلتقون في مساجد الله ليعبدوا الله الذي يؤمنون به جميعا.

ذات بربرية انشطارية تقسم الشعب المغربي شطرين يتنازع العربان العربوفونيون والبربر الأمازيغوفونية أي الشطرين أكثر عدداً وأحق بقيادة الشعب وحكمه. ويقترح الإسلاميون مقاومة المدّ الانشطاري القومي لنجتمع عربا وبربرا تحت راية الإسلام ولغة القرآن، غَيْرَ ناقضين عهد الله ولا عاقِّين فضل العرب المسلمين وفضل البربر المسلمين أجداد المغاربة وأعمامهم وأخوالهم وأسلافِهم.

هوية انشطارية تقسم الفرد قسمين متشاكسين متداخلين متصالحين متنافيين: لغة الأجداد تُرَجِّعُ أصداء الثقافة الأجنبية الوثنية، وفي أعماق بعض أبناء الأجداد صوت المؤذن الخافت يدعو: الله أكبر، أشهد أن

لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح.

هوَية وتاريخ لا يدري بعض أبناء الأجداد أيهم أقرب إليه رحِماً معنوية، ولا أيهم أرشد صراطا، ولا أيهم أهدى سبيلا: البربري الشجاع الكافر والملكة الشامخة، أو البربري المسلم الفاتح المجاهد.

هوية إسلامية بربرية كانت واعية بالتاريخ جاهليته وإسلاميته، عالمةً بالمصير بعد الموتِ، مؤمنةً بالله وبرسله وباليوم الآخر، انطمست معالمها في جيل الأمازيغوفونية واختلطت واختطت.

هوية العالم الشلحي المؤسِّس عبد الله بن ياسين، خريج مدرسة العلم والإيمان، تلميذ العالم الشلحي البربري وجّاجْ، تلميذ العالم الفاسي العربي أبي عمران الفاسي، انطمست واختلطت في جيل الفرنكو أمازيغوفونية منذ تتلمذت للبرالي روسو والماركسي الشيوعي مُفيضِ العقلانية التاريخية على العالمين.

الحسن اليوسي

هوية كانت واعية بنفسها، صادقة في ولائها، مجتمعاً تلميذها الشلحي مع شيخها الفاسي تحت راية واحدة، بفهم واحد ونية واحدة لخدمة الإسلام.

ثم انمسخت وانطمست وانشطرت.

هوية العبقري الشلحي المصمودي محمد بن تومرت الذي علَّم صفاء العقيدة وربَّى أسوداً مجاهدين جالَدوا دولة مفككة متآكلة متعفّنة فأسسوا المجد الموحدي الفريد.

ثم انمسخت وانطمست عن ذاكرة المدجّنين.

هوية العالم العبقري الأمازيغي الحسن اليوسي معلم الخير قوال الحق المجاهد الكبير، مجدد وقته وعابد زمانه كما وصفهُ علماء زمانه. شيخ الإسلام المجتهد الفذ الذي ضاهاه ابن الحاج بحجة الإسلام الغزالي.

العالم العبقري الحسن اليوسي الذي سطعت شمسه على عصره، فشهد له بالإمامة القاصي والداني، واستجازه علماء المشرق والمغرب، وشبهوه في علمه وتقواه وصلاحه بأئمة التابعين رضي الله عنهم. يقول فيه معاصره ابن زاكور الفاسي يفخر بشيخه الأمازيغي، كما تتلمذ اليوسي لمشايخ في حاضرة مراكش ومدرسة إليغ بسوس والمدرسة الدلائية في الأطلس المتوسط. وكما تتلمذ أيضا لشيخه في التصوف وتاج مَفْرِقه في معراجه الروحي محيي السنة الصحراوي سيدي محمد بن ناصر رضي الله عنه: «حَبْر الأحبار، وجُهَيْنة الأخبار، وزَيْن القُرى والأمصار، العديمُ النظير في سائر الأقطار».

أنشأ في الإشادة به ابن زاكور قصائد يقول في إحداها:

علامـــــــــة الدنيـــــا بـــلا ... شَبَـــهٍ ومِصْقَعُـــها المسَـوَّدْ
بَحـــر الشـريعـــة والحقيـــ ... ـــقة فـاض فيهـا لَيـس يعْهَد
بـــزَّ الذيـــن تقـدمـــــوا ... واستَشْـهِدْ الأخْبـارَ تَـرْشَدْ
فَسَـــمِيُّهُ البـــصْرِيُّ لـــــو ... رُزِق الحيـــاةَ لَـــهُ تـــرَدَّدْ

مبالغة شاعر ومحبَّةُ تلميذٍ محب. لكن أنْ يُذكر الحسن الأمازيغي إمام عصره مع الحسن البصري إمام التابعين أمرٌ يرفعُ بَصَرَ قَارئ الحوار من أُفْحُوصة القطاة القومية الضيقة التي يعشش فيها النِّداءُ

المعاصر اللاييكي الأمازيغي إلى آفاقٍ رحبة واسعة عالية مشرقة لا يفتحها للمسلمين الأمازيغ والعربان وسائر الأقوام إلا الإسلام، ووحدة المسلمين.

لا يفتحها إلا امتداد تاريخ المسلمين المجيد من عهد النبوءة والصحابة والتابعين، إلى عصر يوسف بن تاشفين المجاهد الصنهاجي الفذ فخْرِ المسلمين، إلى عهد عبد المؤمن بن علي العالم القبائلي الملك المغوار الداهية، إلى عهد الحسن اليوسي الذي ذكَّر معاصريه المؤمنين بالحسن البصري، لم يذكرهم بيوكرتا وجوبا وكسيلة والكاهنة.

ذلك أن الذاكرة الأمازيغوفونية اللاييكية الانشطارية جذورها تستقي، بل تُسْقَى، من مياه الجاهلية وتاريخ الجاهلية. من مياه جاهلية غبرت منذ قتل الملكة الصامدة الكاهنة فهم يحيونها. ومن مياه جاهلية حية معاصرة هم ممثلوها التجاريون بين ظهرانَيْنَا.

هل نضَب في أرض الأمازيغ معين الإيمان فلا مَطمع أن توصَل مسيرة الصالحين المصلحين من أمثال كبير المسلمين الحسن اليوسي؟

كلا، وإنما ارتفع زَبَدُ الأمازيغوفونية قاطِعَة الرحِمِ وكما يرتفع زبد البحر سَرعان ما يذهب جُفاء. والإيمان الدفين في قلوب العرب والأمازيغ والترك والفرس وسائر شعوب الإسلام فائض بحره إن شاء الله.

قال ابن الحاج يتحدث عن الحسن اليوسي إمام المسلمين: «فاض بحر علومه، وانتشر بدر فهومه حتى كان يُعد من نُظراء حجة الإسلام والفخر والعَضُدِ والسَّعْدِ. على أنه والله قَد نُوِّر بالعوارفِ والمعارفِ صدْرُه، وشاع بذلك في الآفاق صِيتُه وذَكره».

فاض بحر الحسن الذي قال: «يشرف الإنسان بالعقل والعلم والدين».

عقلٌ يا هذا كاملٌ ينظر في الكون فيعتَبِر، يُرجعه العقل إلى الدين إن كانت عقلانية بعضهم تدلُّه على نبذ الدين، أو على الاستخفاف بأصول الدين، أو على ترك عماد الدين الصلاة.

يقول الحسن اليوسي الإمام في محاضراته: «لاَ فخر لك بأصلك!» ويتعرض إلى ذكر الأنساب فيقسمها إلى نسب «طويل» وآخر «قصير».

ملَخَّص كلامه في الأنساب أن نُشدان الإنسان شرفَ الهُوَيَّة في انتمائه إلى الأقدمين إنما هو تعويض عن لُؤْمِ الحاضر والنسب القريب.

وأي لُؤم أحقر من لُؤم المنتسب إلى الكاهنة متخطيا أجيال الصالحين والمجاهدين من مازغ ويَعرب!

لؤم وخسة ما أنصع بيان اليوسي رحمه الله في كشفهما وترذيلهما في إحدى قصائده. وكان فَحلاً من الشعراء مُجيدا. لعلَّ أمازيغيا مسلما يجد علُوَّ نفَس سَلَفِه الصالح في هذه الأبيات ولعل أعجميَّ القلب واللسان من الأمازيغ المدجّنين يعود إلى المدرسة ليتعلم لغةً كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم ومنهم اليوسي كَلِفين بها، دارسين لها مدرسين، مُجيدين.

قال اليوسي رحمه الله:

وَيْحَ المشَرِّف للخسِيس مُجِلِّهِ ومُذِيلِ ذي الشَّرَف الأثيل الأقْعَد
وحفيظِ من هُو للصداقة خَائِنٌ وخَؤُونِ ذي الوُدِّ الصفِيّ الأتْلَدِ
ولبَائع حُوراً حِساناً خُرّداً عُرُباً بعظم في التّراب مُدَوَّدِ
ولِراضِع ثدْيَ الهوَى يجتالُ في ليل الضلالة خابِطٍ مُتردِّدِ

متخَبِّــطٍ في تيهــه متَصَلــفٍ ومُذَبْـذبٍ في نَوْكــه متلَـدِّد
فطِــنٍ بدنيــاه بصيــرٍ ناقِـــدٍ متغافــلٍ في دينــه مُتبَلِّــدِ
حَـرِدٍ إذا مـا سـيمَ خسـفاً جَاهُه وإذا يُســام إلهـه لَمْ يَحْـرَدِ
متكاسـل عـن كل حـقٍّ عاجـز مُتشَـمِّرٍ في كل مَـا بَطِـلٍ أدِ

لست أدري أيَّ الأبيات أدق تعبيرا عن حال البائعين دينَهم بعصبية «لعظم في التراب مدوّدِ».

لعله البيتُ السابعُ المتكلم عن أصحاب العبِّيَّة الجاهلية، يغضبون ويحرَدون إن مُسَّ جاهُهم وهُوَيتهم الجاهلية، ولا تتحرك فيهم متحركة إن سِيمَ خَسفاً دينهم.

كان الحسن اليوسي رحمهُ الله جبلاً شامخاً عزيزاً على الظَّلَمَةِ من كل صنف. كان قد درسَ في الزاوية الدّلائية الأمازيغية، التي كانت جامعة علمية تضاهي القرويين، مع مؤسس الدولة العلوية السلطان الرشيد. فلما مات الرشيد واستولى على الملك أخوه السلطان إسماعيل كتب إليه رسالته الشهيرة يعظه ويزجره.

كتب إليه يقول: «فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها مِلكٌ لله تعالى لا شريك له. والناس عبيد له سبحانه وإماءٌ له. وسيدنا واحِد من العبيد. [...] وإن قام بالجَور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته، ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسَخطِه».

ولليوسي رسالة عنوانها «نَدْب الملوك للعدل» تُلقي الضوء على خلفية رسالَته الشجاعَة اللَّبِقَة في آن واحد إلى السلطان. كتب اليوسي فيها يقول: «والتعرض لما يستحقه صاحب الأمر من بيوت المال،

وما يكون له أن يأخذه من الناس، وما يكون به استحقاق المرتبة من الأوصاف والشروط، والفرق بين الخلافة المعتبَرة شرعاً والتغلُّب ونحو ذلك أمر متعذر لا يُستطاع ذكرُه ولا الحَوْم بساحته. وقد ذهب الحديث عنه منذ الخلفاء الراشدين».

من اطلع على بطش السلطان إسماعيل يتصور لماذا يتعذر ذكر الأوصاف والشروط الشرعية لتولي أمر المسلمين. ومع ذلك فقد ذكر الإمام بشجاعة نادرة ما «لا يستطاع ذكرُه ولا الحَوْم بساحته» في رسالته إلى السلطان سماها: «براءة اليوسي».

أبرأ ذمتَهُ الإمام رحمه الله. وعانى من بطش السلطان الذي شرد العالم الفذَّ في البلاد عمرا طويلا رحمه الله.

أين نضالية المتمردين على الدين الماسكين بحبال الجاهلية وعبِّيّاتها من جهاد سلَفِنا الصالح الأمازيغي المؤمن رحمه الله![1]

محمد بن عبد الكريم الخطابي

حشرَجَةُ محتضَر هي نداءات المدجنين من يعرب ومازغ. ونداء الإسلام خالد يقول به أمثال اليوسي الأمازيغي والخطابي الريفي.

ينساح المؤرخون والسياسيون في الإشادة ببطولة محمد بن عبد الكريم أسد الريف وأشباله المجاهدين. ويضع المعلِّقون والصّحافيونَ الحواشيَ على سيرته الفريدة، وعبقريته العسكرية، وحنكته الإستراتيجية، وإيقاعه المذهل بجيوش الإسبان والفرنسيين،

(1) استفدت النقول عن الإمام اليوسي من كتاب الدكتور عباس الجراري «عبقرية اليوسي».

ثم لا يفُونَ بما يستحقه الرجل من تكريم، ولا يَخْلُصون إلى الدرسِ الأكبر من حياةٍ نموذجية بأكثَرَ من اعتبار.

الدرس الأكبر عندنا، ونحن نحاور أمازيغ وريفيين وشلوحا ويزناسنيين، هو أن الرجل رحمه الله كان مؤمنا يجاهد في سبيل الله. كان شعاره «الإيمان، والإيمان وحده». كان رجلا يتكل على الله قبل اتكاله على العَدَدِ والعُدَدِ. وقد كتبت صفحات عن جهاده رحمه الله في «حوار الماضي والمستقبل». فليُنظر هناك.

كان عزيزا بإسلامه لا بنسبه. من أخذتهم وتأخذهم العِزّة بإثم العبّيَّــة الجاهلية يَسعون جاهدين ليُدْرِجوا جهاد مؤمنين مصلين مخلصين لله رب العالمين في ناعورة الإديولوجية العرقية.

لا يسأل بعضهم عن السلوك الخطابيِّ ما صنعه، ولا عن النهضة الإيمانية التي محَت من قبائل الريف المتناحرة كانت في قتال الانتقام الروح الانتقامية الشرِّيرةَ لتحُلَّ محَلَّها روح الجهاد، والوحدة الجهادية، والبذل الجهادي، والتفاني الجهادي في خدمة قضية سامية رفعت الرجل والمرأة من حضيض العصبية للفخذ والقبيلة والعشيرة والعم والخال إلى الوَلاء الإيماني لله ورسوله. وكان له سلَفٌ صالحٌ هو المجاهد الكبير الشريف الريفي محمد أمزيان رحمه الله.

شريف ريفي سلفٌ صالحٌ لخطابي ريفي. فأَنَّى تُوفَكون يا قاطعي الرحِم بين عرب وبربر جمعهم الإسلام وجمعهم الجهاد وجمعهم التاريخ وأدمجت دماؤهم في نسل طيب بعضه سلف لبعض في الإيمان؟

لو كانت نفس الخطابي وَضيعةً ضَعَةَ طلاَّب الرئاسات ونافخي النار في حطب العصبيات لما استحق من التاريخ البشري إلا التفاتة عابرة كما يُلتَفَتُ إلى رؤساء العصابات. لكن الرجل كان مربِّيا عالما

بدينه مخلصا لله رب العالمين. وكان معلما انتشل قومه الريفيين من وهْدة الجهل الجاهلي ورفعهم إلى مَراقِي الإيمان بالله، والصدق مع الله، وبذل النفس والنفيس في سبيل الله.

ذلك الذي كان أشَدّ على أعدائه من كل شديد كان ذا قلب مُحبٍّ، وعناية رقيقةٍ بالمسلمين. كان مصليا، لم يكن جاسيا قاسيا: نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وأمره دينُه بالجهاد في سبيل الله.

إيمانه بالله صنع منه رجلا مجاهدا، وجهاده النموذجي صنع منه مثالا رائعا للمسلمين وللناس أجمعين. يرى الناس فيه البطل الغيورَ على وطنه، المقاتل ببسالة وإصرار وعزم وانتصار. فذاك ذاك.

ونسائل نحن بواعث الرجل وشهاداته المكتوبة فقد ترك مذكرات في آلاف الصفحات لما تطبع وشهادة سيرته فنقرأ غيرَ ما يقرأ الناس، نقرأ أعمقَ مما يقرأ الناس.

نستقري الأحداث العسكرية الخالدة، ونقرأ من خلال صمود الرجال، وصبر النساء، وإيمان الجميع بالله عز وجل، آياتِ التوكل على الله عز وجل. وإلا فمن أين لمجموعة قبائل ممزقة متقاتلة أن تضع بين عشية وضحاها العصِّبيّةَ الجاهلية وثاراتها، ومن أين لمعلم بسيط أن يُسْفِر عن قائد فذ، ومن أين لفقيه تقليدي أن يتعلم لغة القوم، ودراية القوم، وعقلية القوم، ويطوِّر كل معارفه القديمةِ والمكتسبة ليصبح المخطّطَ الفريد، والحاكم الرشيد، والاستراتيجيَّ العنيد؟

«الإيمان، والإيمان وحده».

ذلك هو الدرس الأول الأكبر، وتلك هي العبرة الكبرى.

نظلم تاريخ الرجل إن ضمَمْناهُ إلى صَدْرِ الوطنية المتقلصة لنتغنّى بأمجاد بطل وطني. ونظلمه ضعفين إن صنعنا منه لعبّيَّـتنا الجاهلية

ملهاةً وصَنما فزعمنا للناس أننا نحن الريفيين الأمازيغ تجري في عروقنا دماء العزَّة والإباء وكرَمَ المحْتِدِ. لِيَشُمَّ غيرنا من عبير مفاخرنا!

نظلم تاريخ الرجل ونبخسهُ حقه إن قَـزَّمنا قامته إلى قياس قزامة مطالبنا العصبية الوطنية اللغوية العرقية.

الخطابي عَلَم من أعلام الثورة على الظالمين في عرف الناس أجمعين. فلنترك ما للناس للناس. ونحن من الناس.

ثم لِنعتبر بالخطابي كما نعتبر بطارق واليوسي وسائر أعلام بني مازغ. قامات شامخة ورايات خفاقة في سماء الجهاد والعلم والرجولة والإيمان.

نعتبر بإيمان رجالنا علَّنَا نسمو بسمُوِّهم إلى حيثُ ينصبُهم الإسلام أمثلةً عزيزة لكل المسلمين.

ثم نصل إلى الدرس الثاني المهم جدا من تصفُّحِ تاريخ الخطابي.

أنتَ يا أَخَ البربر! ما يدريك أن نسبك ونسبَ من تلهج بذكرهم ممن نطقوا بالشلحة وينطقون، وممن نثروا ونظموا بالأمازيغية وينثرون، وممن عبروا بالريفية ويعبرون، نسب خالصٌ صحيحٌ في البربر؟

أكرم الله هذه الأمة بالإسلام فتصاهر المسلمون عربا وفرسا وتركا وأمازيغ. فللمسلم العربيِّ النسبِ في الشلوح أخوال. وللريفي البَطَلِ في العَرب أصل، وللعالم الأمازيغي -مَن يدري- في شعوب الإسلام قرابة.

وهكذا يُصرحُ مجاهدنا الكبيرُ محمد بن عبد الكريم الخطابي أن أصْلَه من الحجاز من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأن أسلافه هاجروا من ينْبوع إلى بني وَرياغل في الريف منذ القرن الثالث الهجري.

صرح بذلك لجريدة «الطان» الفرنسية. وذكر ذلك الكاتب الفرنسي ج. ر. ماثيو في كتابه «مذكرات عبد الكريم» طبعة باريس 1927.

كما أكد ذلك «مونتكومري هرت» في ندوة عقدت بباريس سنة 1973.

أكْرِمْ به من أصل. أكرمْ بها مِن خؤولة ألف سنة ويزيدُ في بني ورياغل الكرام. كَرُموا بالإسلام واعتزوا بالإسلام. وجدد لهم نزيلهم العُمَرِيُّ الخطابيُّ عزة بالإيمان، والإيمان وحده.

شهد لهم بالإيمان المسلمون. وشهد لهم به المراقبون من القوم الآخرين. قال مونتكومري هرت البحاثة عن محمد وأخيه: «مؤمنان جدا، متبعان دينَهم جدا».

وأنت يا أخا مازغ ما غَرَّك بدينك؟

محمد المختار السوسي

توفي أستاذنا العلامة الفقيه الأديب الشاعر المعلِّم محمد المختار السوسي رحمه الله منذ ثلاثين سنة.

أنتَسِبُ إليه بالتلمذة وإن كنت لم أحضر إلا بعض مجالسه العلمية العامة في مسجد الرميلة بمراكش بعد رجوعه من المنفى.

أنتسب إليه وأعتز بالانتساب إليه اعترافا بالفضل، لا عصبية شلحية. رحم الله الوالد قادني إلى مدرسة المختار السوسي بالرميلة صبيا في الرابعة أو الخامسة من العمر. كان جُل معلمي هذه المدرسة الحرة من شلوح قبائل الحوز وسوس. حفظونا القرآن ومبادئ

العربية. ومع الحفظ والتعليم علمونا إقامة الصلاة التي كانت جزءا من البرنامج اليومي في أوقاتها.

رحمهم الله وأجزل لهم الـمَثُوبة ولأستاذنا الذي كانوا يتلَقَّون عنه دروسهم في أصناف العلوم. فكان منهم أدباء وفقهاء. كان رحمه الله مدرسة علم وقدوة تقوى.

رجع محمد المختار السوسي من فاس وقد ملأ وِطابَه من الفكر الوطني الذي اتشح به وتسربل واغْتَذَى ونهل جيل علال الفاسي ومحمد إبراهيم الكتاني وسائر علماء القرويين الشباب. وكانت رفقة صالحة زرع فيها الشلحي المختار أدبَه وشغَفَه باللغة العربية. أسس للفاسيين العلماء نادي «الحماسة» يتداولون فيه تحت رعايته اللطيفة المتواضعة أشعار العرب وآداب العرب ونحو العربية وبلاغتها.

كان الزعيم علال الفاسي رحمه الله يلقب المختار ب «فقيه الجرومية» لرُسوخ قدم السوسي في علوم العربية، ولغيرته على اللغة العربية. كان معه دائما فائدة وسؤال وتنبيه وعويصة من قواعد العربية يطرحها في مجالسه، ويقترحها ويتدرج منها بحث لغوي أو تحليل شعري أو مسألة أدبية.

وكان يفخر باللقب الذي يطلقه عليه زميله في الوطنية الزعيم رحمهما الله.

«فقيه الجرومية». وما الجرومية يا بني مازغ ويا بني يعرب؟ الجرومية مُؤَلَّفٌ في النحو العربي ذائع الصيت في مشرق بلاد الإسلام ومغربها منذ قرون. وضعه شلحي يسمى ابن أجروم.

ممن يحفظ متن الجرومية في عصرنا، عدا من تعلموا في بوادي المغارب وعلى حُصُرِ المعاهد الدينية، عالم يهودي مبدع في النحو

المقارِن، في علم اللسانيات، هو الأمريكي تشومسكي. أخبرني بذلك أستاذ لمادة اللسانيات.

ناهيك بالجرومية يحفظ متنها يهودي أمريكي مبدع بحاثة، وجد ضالَّته العلمية في مُصنَّفٍ شلحي.

ناهيك بشلحي حُجَّة في علم العربية وآدابها، قرن اسمَهُ الزعيمُ العربي الفاسي بمصنَّفٍ شلحي. فامتدت آصِرة اللغة العربية عبر الأجيال لتذكر أن الأمازيغ الأحرار المسلمين المصلين الصالحين العاكفين على دراسة القرآن وتلاوته وتعليمه كانت اللغة العربية هي ميدان تخصصهم، ومفخرة علمهم، وعِزَّ معارفهم، لا اللهجات البربرية، ولا اللغة «الوسط» التي يَجْهَد القوميون الأمازيغ لنحتها وتوليفها لتجمع بين لهجات أشتاتٍ.

الجرومية مصنَّف ابن أجروم. اسم يحمل دلالتين اثنتين: دلالة النسب الشلحي الذي تشير إليه بِنْيَةُ الاسم المبدوء بهمز مفتوحة، ثم دلالة النسب الديني الذي تشير إليه كلمة أجروم. في لهجتنا الشلحية، وربما في اللهجات الأخرى التي يتقنها الأخ محمد شفيق، تدل كلمة «أجرَّام» بجيم معقودة على صلاح يُنْعت به المرء، أو نسب في آل البيت.

وما كان أمازيغ اليوسي وريفيو الخطابي وشلوح السوسي يعرفون لأنفسهم هوَية وتاريخا إلا في الرابطة الإسلامية التي يُحَبُّ فيها ويحترمُ «أجرام»، ويُستفْتَى فيها الفقيه، وتشاد فيها مدارس لتعليم القرآن ولغة القرآن. أحصى أستاذنا المختار رحمه الله أربعمائة مدرسة شِيدَت في سوس منذ قرون سحيقة، منها ما اندثر، ومنها ما لا يزال منارا للعلم والتقوى والصلاح واللغة العربية.

ما كان الأمازيغ والريفيون والشلوح وبنو يزناسن وسائر البرابر يعرفون لأنفسهم هوَية وتاريخا خارج الرابطة الإسلامية

قبل أن تطيش طائشة النعرة الأمازيغية. الأمازيغوفونية لها رباط آخر جذوره هناك في بلاد القوميات المحلية التي يتمسك بها الأوربيون ليتميّزوا وسط الـمَدِّ الوَحْدَوِي الذي تتمخض عنه الوَحدة الأوربية.

جذور هناك، وفلسفة من هناك، وتبعية واستنْبات هنا.

اشتكى المختار السوسي إلى تلامذته الخُلَّص بعد الاستقلال شناعة ما رآه عندما أسست الحكومة «المنسجمة» لحزب الاستقلال مدرسة في قرية المختار «إلغ» يعلم فيها الصبيان ثقافة «فريرُوجاكو» وتاريخ «أجدادنا الغاليون». وقال كلمته: «لو كنت أعلم أن مثل هذا يحدث لما انخرطت يوما في حزب الاستقلال».

هل كان الرجل منغلقا يكره اللغة الفرنسية وعلوم الغرب التي لا تدرك ولا تُكتسب ولا تُوَطَّن إلا بتعلم اللغات الأجنبية؟ هل كانت غيرة فقيه الجرومية على اللغة العربية أثارت فيه حَمِيَّة العداوة للغات الأجانب؟

كلا! وإنما رأى منكرا نكيرا غضب منه. رأى براعم تُسقى نَبْتَتُهم بزُعاف العجمة: عُجْمة اللسان تحمِلُ مُميتاتِ عُجمة العقل والقلب. عجمة العقل والقلب تعني بالضبط إنكار مرجعية المسلمين وهي الله والرسول والقرآن، واعتناق المرجعية النسبية التي تضع المطلق في خانة المخلَّفات الأركيولوجية.

لو بذرت مدارس الاستقلال في الناشئة بذور الإيمان وعلم القرآن ولغة القرآن حتى تتمكن جذور الشخصية وحتى يستقيم العود ويقْوَى الجِذْعُ لما وجدْت المختار ومن على شاكلة المختار إلا يُصَفّق للُغَةٍ أجنبية تعلمناها، وعلوم استفدناها ووطَّنّاها.

غضب المختار من لغة يُرْضعونها الصبيان في عُقْر بيتٍ وقرية كانت مدرسة خَرَّجَت علماء وأدباء منهم المختار نفسه. ويُعبر شاعرنا الفحل الفقيه العلامة الصالح (ولا نُزكي على الله أحدا، نحسِبه كذلك والله حسيبه) فيقول من قصيدة مدح فيها لغته الحبيبة:

نمـــدُّ أكُفّـــاً قطَّـع الله راحـــها   إلى غيرها من اللُّغَى السَّمِجَات

حسناء رائعة الجمال هي لغة القرآن. سَمِجَاتٌ قبيحاتٌ شوهاوات رذيلات غيرُها من اللّغَى إن مددنا أكفَّنا نستجدي من لغة غيرنا وفكر غيرنا عِزا. تلك كانت غيرة السوسي رحمه الله على لغته العربية.

ترجع الأكف بخيبة، بغبنة، إن بعثنا لجامعات الغرب شبابا أنفقنا عليه ثمين الجهد وثمين المال وعلقنا عليه نفيس الآمال. ثم ينبُغ من شبابنا نوابغ ويتمكن من علوم الغرب علماء يستهويهم الغرب بالمنصب، والاعتراف بالكفاءات، ومكافأة المواهب النادرة، فلا يرجع إلينا منهم إلاَّ أفراد من الطبقة الثانية والثالثة.

غبن وخيبة أن يستأثر الغرب بالأذكياء من أبنائنا وبناتنا. غُبِنَّا فيهم وخابت آمالنا وجهودنا جزاءً بما كسبت أكفنا الممدودة بثقة عمياء إلى غيرنا.

مدّ الأكُفِّ إلى اللغات الأجنبية، نعلمها صبياننا في قرية إلغ وفي حواضر البلاد ومداشرها ولما تنبُتْ لهم نابتة في الإسلام والإيمان. ولما تقم لهم فيه قائمة، ولما يصلُبْ لهم فيه عود، إنما هو إلقاء بهم إلى التهلُكة. فمع اللغة الأجنبية يُعَلَّمُها الطفلُ الغَضُّ الشخصيةِ تُفتح للطفل وللغلام وللبالغ بعد أبواب «المعرفة» الأجنبية التي لا مرجع لها في «المطلق»، ولا قبولَ لها لما جاء به الوحي، ولا سبب يربطها في تقدير فلسفتها بشيء يسمى الله، أو بشيء يسمى الدار الآخرة.

تُفتح للصبي والغلام والبالغ مصاريع الثقافة المادية، علمناه مبادئها في مدارس الاستقلال التي غضب عليها المختار السوسي رحمه الله، فيرسَخُ فيها طالبا في جامعات أوربا وأمريكا، ويتبناها هُوَيَّةً متكاملة وفلسفة حياة. ونفقده فنتحسر ببلاهة على نزيف الأدمغة، ويضنينا الحزن على ما آلت إليه بَعثاتنا، وعلى تقهقرنا في ميدان التنمية، وتوطين العلوم، وترويض التكنولوجيا، وبناء صَرح حضارة منا وإلينا.

نحن أضعنا أبناءنا الأذكياء وبناتنا لَمَّا عجزنا عن تحصينهم بالإيمان، لما فشِلْنَا في تربيتهم تربية تعرفُهم من نحن وما تاريخنا وما مصير الفرد منا بعد الموت، وما هو واجب على المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جهاد لتقوية الأمة وضمان مصير شريف لها على وجه الأرض.

ذلك ما أغضبَ أستاذنا السوسي رحمه الله، وما كرّه إليه الأكف الممتدة إلى اللُّغَى السمِجاتِ.

ولو رأى معلم الجرومية الغيورُ على لغة القرآن ما يدعو إليه الأمازيغوفونيون من نعرة قومية أولُ ما تطلبه إدخال «اللغة» الأمازيغية بلهجاتها أو بصيغتها الوسطية المفقودة الموهومة لهالَه امتساخ الأكف الخائبة المغبونة: لا هي تمكنت من لُغَى الأقوام واستخلصت منها حُمولتها العلومية الصناعية، ولا هي ساهمت في تقوية اللغة العربية لتقتحم اللغة العربية بما لها من مؤهلات فريدة بين اللغات ميادين يَرْطِن في مجالاتها الأمازيغي والعروبي باللغة السيدة: الإنجليزية اليوم، واليابانية الصينية غدا.

بلى! ساهمت الدعوة القومية البربرية وتمكنت من عرقلة اللغة العربية، وساهم معها وتمكن الحليفُ الغربي البحاثة الذي يعقد المؤتمرات الأمازيغية في باريس وغيرها من عواصم الغرب.

أين نحن معاشر الأباةِ الأمازيغ، ومعاشر الشلوح المتعلمين في مدارس سوس، ومعاشر الأسْدِ الريفيين العريقين في الصلاح والعلم، من إدراك ما يحيط بأمتنا من أهوال، وما يراد لها ويُحاك من تدابيرَ يُخُبُّ فيها ويضَع أبناء لنا وبنات دفعناهم مغمَضي الأعين لمدارس الاستقلال المترددة الهزيلة المتفرنجة، فصَنَّعَتْهُم دُمىً فاقدة الهُوَيَّة، احتضنوا ثقافة اللغى السمجات، وتدرعوا بها وتسلحوا ليعودوا على اللغة العربية وإسلامها وقرآنها بالغزو المنظم المبرمَج المتحزب المموّل من صناديق الدراسات اللسانية، ومن صناديق صناعة الهُوَيات الضَّرَّة والتاريخ المزيَّف.

أين نحن من فهم ذلك يأيها البرابر المصلون المسلمون الـمَسُوقون في نشوة ساهية مع رُواد قومية العُبِّيَّة الجاهلية!

أين نحن من مراجعة أنفسنا لنتوب إلى الله من الميل إلى دخلاء الفكر مدخولي العقيدة، نركن إلى ظلمهم وَصْلاً لما أمر الله به أن يُقطع، وقطعا لما أمر الله به أن يوصل!

غضِب السوسي الإمام رحمه الله كما غضب قبله الإمام اليوسي على المنافقين. وها نحن أُولاءِ نحيي ذكراهم علَّ نفحة من إيمانهم تحيي الرميمَ من ديننا. علَّ غيرَةً على إسلامنا تهبُّ بنا من رَقدة، وتُنقِذنا من وهدة.

علَّ ذكر الله ولقائه ومصيرنا إليه يوقظنا من وَسْنَة، ويُزعِجُنا من غفلة.

كان للمختار السوسي ولسلفه من العلماء الشلوح والأمازيغ غيرة شديدة على لغة القرآن لأن غيرتهم على العربية التي أنزل بها القرآن من غيرتهم على الدين الذي علمه الرسول المبعوث بالقرآن.

كانت لهم غيرة على العربية ضاعفها وثبَّتها أن لسانهم الفطريَّ أجنبي عن اللغة العربية. ثبت الغيرة وضاعفها، لم يوهنها ولم يُبَرِّرْ الإعراضَ عنها والنفْخَ في نَعرة لغة الأجداد الجاهليين.

يقول أستاذنا السوسي رحمه الله في كتابه: «سوس العالمة»[1]: «[السوسيون] أجانب عن لغة الضاد. ولكونهم لا يكادون يتذوقون حلاوة أساليب اللغة [العربية] حتى يبقَوْا دائمين على مُزاولتها شَغَفاً بها. على حَدِّ قول القائل:

أتاني هواها قبْـلَ أنْ أعرِفَ الهوى   فصادف الهوى قلبـا خاليا فتَمَكَّنَا

قال رحمه الله: «وحين تكون اللغة [العربية] والنحو والتصريف أولَ ما يسبق إلى أذواقهم قَلَّما ينسَوْنها وإن شاركوا في غيرها».

نقف عند «أولَ ما يسبق إلى أذواقهم قَلَّما ينسَوْنها وإن شاركوا في غيرها» لنلمس رأي الأستاذ الكبير في أهمية ما يسبق إلى عقل المتعلم وذوقه. لا يضيره بعد تمكن «ما يسبق» إن شارك في غيره. ونلمس في شطر الجملة سبب غضب السوسي على برامج الاستقلال تعلم الفرنسية للصبيان في قرية إلغ.

قال رحمه الله: «فيَعَضّون عليها بالنواجذ، ويُكِبُّون على تحصيلها والزيادة منها. ثم بمقدار إكبابهم عليها تتزحزح العُجمة عن ألسنتهم، وتتمكن روح الأساليب العربية في أذواقهم حتى تأخُذَهم نَعْرة ربما تكون شديدة للعربية كأنها إرْثُ أجدادهم. وحتى يكادوا يمْرُقون من مساليخهم على من يَلْمِزُهم بالتقصير فيها».

(1) سوس العالمة، ص 37.

النَّعرة في اللغة صوت في الخيشوم يُصَعِّدُه المرء غضبا. يكاد العالم الشلحي الغيور على دينه ولغة قرآنه يتميَّزُ غيظا ويخرج من إهابِه غضبا أن يتهمه أحدٌ بالتقصير في فهم العربية.

ذلك أنهم انكبوا عليها بجد المؤمن ومثابرة الحريص، وعضُّوا عليها بالنواجذ مخافة أن يرتَخِيَ منها المكينُ من علوم النحو والصرف وسائر علوم العربية.

ذلك كان المختار السوسي أستاذنا وسلفنا الصالح رضي الله عنه. وأولئك كانوا علماء العربية ودعاتها والمجاهدين في نشرها ونصرها من بني مازغ اليوسيين، ومن بني الشلوح السوسيين، ومن بني جبال الريف المسلمين المجاهدين المزكين المصلين، ومن بني يزناسن المقاومين المجاهدين.

الفصل الثالث

تمزيغ المغرب وتمزيقه

- «الظهير البربري»
- «ما أعظم مصابكم أيها الأمازيغ بالمغرب!»
- ثورة الفرسان الأمازيغ
- قضية حياته
- اللغة مؤسسة سياسية كبرى
- حصن العربية
- سِباق السَّلاهِب

«الظهير البربري»

لا يقبل الأمازيغيون أن تُسَمَّى فَعلة الاستعمار الفرنسي سنة 1930 الظهير البربري وتُنسَبَ إلى البربر محاولة استعمارية شنيعة استهدفت وحدة المغرب. لهم الحق في ذلك الرفض. لهم الحق لولا أن وحدة المغرب استُهدِفَتْ بعد انسحاب المستعمر الفرنسي بأشَدّ مكرا مما حاوله الفرنسيس.

لو كان سلوك القوميين الأمازيغ الذين نحاورهم يُفَنِّد المبدأ التمزيقي الذي ركَّبَ عليه، بل حاول التركيب، مخططو الاستعمار لقلنا. لكن المكرَ الـمُدَبَّرَ لتمزيق وحدة المغرب والجزائر وليبيا وتونس أيضا أغْدَقَ على مادّي الأكُفّ إلى اللغَى السَّمِجات من عطاياهُ ومزاياه. فركِبَ على متن المنزَع الأمازيغي ومشروعه الثقافي راكبون، ونزغت شياطينه في أذن المثقفين المغَرَّبين ذوي النَّعرة والغيرة والغضبة على هُوَيَّة الأجداد والجدات الجاهليين، وعلى تاريخ ملوك فرسان شجعان.

فها هي ذِهِ الأمازيغوفونية يُعْقَد لها في باريس تجمع اسمه «الكونغريس الأمازيغي العالمي». وينفق عليه غَدَقاً، وتُمَوَّل أجهزته وتُحشد نساؤه ورجالهُ طائعين راغبين مخلِصين لمشروع تمزيغ المغرب وتوزيعه وتمزيعه وتمزيقه.

ها هي ذه «القضية» البربرية تـدَوَّلُ بوسائِلَ متطوِّرة وبعُـمَّال متطوعين طائعين.

من يُمَوِّل ويُدَوِّل؟ سؤال لو بَحَثْت عن جواب له أخي الأمازيغي المسلم المصلي المؤمن بالله واليوم الآخر لوجدت أن المحاولة الفاشلَةَ

للاستعمار الفرنسي التي سميت بقضية «الظهير البربري» إنما كانت لُعْبَة هُواةٍ مقارنَةً بالفَتْلِ المتين لسياسة تمزيغ المغرب وتمريغه بيد أبناء المغرب وبناته.

كان الأمازيغ الأحرارُ فعلا أوّلَ مَنْ ثارَ على الظهير البربري سنة 1930. وها هم أولاءِ أبناؤهم وبناتُهم المصَنَّعون المدجّنون المخَدّرون بثقافة اللغَى السمجات يُسارعون إلى ما كان آباؤهم وأمهاتهم يقاومونهُ بشدة وأَنَفَةٍ وغيرة على الإسلام.

ماتَتْ الغيرة على الإسلام والحَرَدُ والغضب، بَلْ أمِيتَتْ بصَنعة صانع وتجارة بائع.

هُوَيَّةٌ إسلامية طُلِّقت، وتاريخ إسلامي جُهِّل. واعتنقَت النفوسُ الإمعاتُ دين القومية اللاييكية الحَرِدة النّاعِرة إن مُسَّ جاهها، المرِحَةِ المرتاحة إن سامَ الناسُ دين النفوس خسفا بل طربُ النفوس ومَرَحُها وراحتها في الانفتاح الافتضاح على الثقافة العالمية الحُرَّة من كل دين.

أين نحن من النَّوْكَى المتلَدِّدين في حُمْقهم وتفاهتهم الأخلاقية الذين وصفهم الإمام اليوسي رحمه الله بقوله:

حَرِدٍ إذا ما سيمَ خسفا جاهه وإذا يُسامُ إلهُـهُ لَمْ يَحْـرَدِ

نَوْكَى أفرادٌ يسخر منهم العالم الكبير ويسخر ويعظ.

فما نفعل في زماننا بنَوْكى منظمين في جمعيات، محشودين محتشدين في كونغريسات، مُوَلَّدين متوالدين، يطالبون أن يعترف الدستور بأن في المغرب أمتين، وأن له لغتين؟ أُمتان! لَوْ بقيت القضية قضية لُغة! ومِن شأن المشروعات التمزيقية أن لا تلزمَ حدّاً.

ما نفعل مع نوْكَى زماننا حين يُدْلون بحجّة الظلم الواقع على الأمازيغ من حكم الأعاريب؟ وحين يرفضون أن تكون في الجامعات المغربية كراسيٌّ لتدريس العبرية والفارسية والأرْدُو بينما اللغة الأمازيغية لغةُ الأرض والأجداد الحيةُ لا تزال محقورة مقهورة؟

تضافرت تربيةٌ دجَّنت العقول والنفوس مع واقع ظلم وتحقير فتكاملت الظروف الذاتية والموضوعية لميلاد مطالبة ثقافية هي السُّلمُ لمطالبة دستورية سياسية، تكون بدَوْرِها المطية الصعبة المراس لنضال، فقتالٍ، فحربٍ أهلية تتفانى فيها أمتان في المغرب والجزائر وليبيا: أمةٌ عريقةٌ في الوطن الأمازيغي لها رأسُمالها الرمزي التاريخي العتيد، ولها لغتُها وهويتها. وأمة عربيةٌ «غازية مستَعْمِرَةٌ» يجب دفعُها وإخمادُ أنفاسها.

ما نفعل بهذا الـمُرَكَّب الجهنمي النفسي التاريخي الواقعي إن لم نلتمس ما وحدنا بالأمس -أمس اثني عشَر قرنا ويزيد- ليوحدنا حاضراً ومستقبلا؟

وليس إلا الإيمان، والإيمان وحده.

إن من طبائع البشر وطبائع الشعوب ذاتِ المَقَوِّماتِ الثقافية اللغوية التاريخية، مثلما للبربر من مقومات، أن تتدرج من المطلب الثقافي اللغوي، وأن توظف المكتسبات اللغوية الثقافية توظيفا سياسيا تَقوَى مكاسبه ويَستقْوِي بعضها ببعض. فإذا أنت يوما من أيام الله أمام أمتين متقاتلتين. وإذا أنت في متاهة تاريخية ضالّة وإذا أنتَ وقد آتت العُبِّيّة الجاهلية أكلها الزَّقُّوميَّ. وإذا هو الصَّغار والدَّمار.

صَغار ودَمارٌ في الدنيا يحترق في لَهَبِهِ البَرُّ والفاجر. وصغار في الدنيا والآخرة لمن تعَزَّى بعزاء الجاهلية، ونخَرَ نخرها، ونَعَر نعرها.

إن النفوسَ المظلومة المحقورة واقعا، المصنوعة العقل والمشاعر والمرجعية تربية، تبحث عن نقيض وضد لتثبت هوَيتَها النيِّرة على خلفية ظلامه، ولتظهر أصالتها على النسيج المهلهل لِكيانه، ولتقاتل عن شرفها المكلوم وحقها المهضوم ظلمه وعدوانه.

تبحث عن نقيض وضد فلا تجد إلا العرب ولغة العرب. فتكرهُ العرب ولغة العرب وحكم العرب. ويكره بعضها دين العرب أيضا. بأية عقلية بحث المظلوم المكلوم، وبأية نفسية كره، وبأية مِزاجية ثورية نعْرية عصبية ألقى وراء ظهره الدين من ألقى؟

هناك النفوس المظلومة المكلومة، وهناك الأكُفُّ الممدودة إلى اللغَى السَّمِجات بحُمولتها الإلحادية اللاييكية. وهناك أيضا الأيدي الماهرة في شغْل الشعوب المستَضعفة بعضِها ببعضٍ في أرجوحة الاستقرار السياسي العالمي والجِهوي الذي تطيشُ كِفتاهُ وترْجَحان في جَيْئَاتِ ماسكي الخيوط وذهابهم.

دُمىً في بدلاتٍ أوربية. وكان الأجداد والآباء الذين نهضوا ضِدَّ «الظهير البربري» أسْداً مُسَلْهَمِينَ مُصلين مسلمين مجاهدين.

ترك فينا الاستعمار الأجنبي تُراثاً نفسيا عميقا من الاحتقار والازدراء والظلم. وجدد الاستعمار المغربي منذ الاستقلال ظلما وازدراء واحتقارا انصب أكثر ما انصب على المستضعفين من بني مازع ويعرب.

كان الفرنسيون بعد هزيمتهم شر هزيمة أمام الألمان في الحرب العالمية الثانية يلقبون الألمان بلقب مليء بالنقمة والحنَق والازدراء العاجز كما يزدري المهزوم جُبن نفسه فيتسلَّى بإسقاط ضعفه وخوَره على عدوه الغالب.

ولم يجد الفرنسيون اسما يشفي ما في صدورهم من غِلٍّ على غالبيهم إلا اسم «شلوح». الألمان شلوح. يعني أنهم متوحشون. ومع الوحشية كل ما يُقدِّره المستعمر الفرنسي ويُكِنُّه من عواطف الكراهية للألمان الشلوح، وللشلوح النموذج.

صدقَ من المستعمرين حاكم فرنسي إبان الاستعمار الفرنسي هو المستشرق جاك برك «صديق» العرب حين كتب مُعْرباً عن مكنونات قومه تجاه «الشلوح» ما يلي: «اتخذنا البرابر حظيرة وطنية. واتخذنا القبائل بِمثابة أشجار السِّكُويَا العتيقة التي ينبغي الحفاظ عليها».

لم يُخف المستشرق -وهو الذي حكم قبيلة سَكساوَة ردحا من الزمن وكتب عنها أطروحة مشهورة- الاحتقار الذي يُكنه زائر الحظائر لحيوانات الحظائر ووحوشها.

لو كنتُ محتقَراً مظلوما في هُوَيّتي مضطهداً في لغتي وقوميتي لَثُرتُ ونعرت ونخرت على كل الظالمين لكني إن كنت أفكر بعقل غير عقلي وبمرجعية غير مرجعيتي تختلط فِيَّ معايير الحكم ومقاييس التمييز، فأحتمي من ظُلْمٍ واحتقار بظلم أشنع واحتقار أفظع.

إن كنت أفكر بعقلية أجنبية ركَّبَتها فِيَّ تربية وأحكمت أمْراسَها فِيَّ ثقافة، وأنشأها فِيَّ تعليم، فمظلوميةُ حاضري في وطني تُسْدِل على عقلي غِشاوةً غضبية، فأُسنِدُ ظهري إلى ما أحسِبه رُكنا شديدا وعَضُدا سديدا، وهو هو القضاءُ الـمُبْرَم على كل أمَلٍ في نجاتي يوما من رِبْقة الظلم ومَراغَة الاحتقار.

أستند فرارا من ظلمٍ حاضرٍ في مَعاشي ومكانتي الاجتماعية وشرفي والاعتراف بهويتي ولغتي إلى من مسَخوا عقلي ونفسي وعلموني إنكار ذاتي الإسلامية. أستند إلى من غزوا قومي غزوا عسكريا وقهروهم

كما تقهر الوحوش وترمى في أقفاص الحظائر. أستند إلى من سَبَوْا ذراريَ البرابر وأودعوهم في مدارسهم التي حرَّمَتْ أن يتعلم بربري لغة العرب.

أستند ثم أفتخر بأنّ الكونغرس البربري العالمي هو مجمع الصالحين المصلحين الناصرينَ هوَيتي ومظلوميتي. وأفتخر بأن الكونغرس أنا خططت له وحشدت له حشود المثقفين الطيبين أصدقائي الذين مَوَّلوا ودَوَّلوا حماية لحقوق الإنسان وغيرة على أشجار السِّكويا العتيقةِ النفيسةِ نَفاسَةَ الآثار المهدَّدة بالانقراض.

ماذا أفعل أنا الأمازيغي تتقاذفه أمواج بحارِ الأوهام في سباحَتِهِ يبغي هُوَيَّةً ويستعيد تاريخا؟

إن كنت أمازيغيا مسلما مصليا فملاذي من كل ظلم وانجباري من كل كسر وعزتي من كل ذلة إنما هي إسلامي.

لكن إن كان إسلامي هُوَيّةً أضاعها مِني بقصد ومكر واحتقار من خططوا لسبي الذراري وإعادة تربيتهم بعد أن فشِلَت مؤامرة الظهير البربري فليس في يَديَّ غيرُ الارتماء في أحضان عدوّ مِلَّتي.

عَدُوٍّ مَهَّدَ لتمزيق المغرب حين كان المستشرق والحاكم والمراقب المدني يتحدث عن البرابر «الوحوش الطيبون» (بون صُفاج) ليميزهم عن العرب الوحوش الخبثاء الذين قادوا الحركة الوطنيَّة ضد الظهير البربري صفا واحدا مع البرابرة المسلمين الذين ناهضوا مع إخوانهم الظهير البربريّ. قاتل البربر الأحرار بالبسالة النادرة أكثر من عقدين من الزمن، ثم شاركوا «وطنيي الكلام» كما يعبر الأستاذ شفيق في النضال الوطني والمقاومة وجيش التحرير.

«ما أعظم مصابكم أيها الأمازيغ بالمغرب!»

أرجع إلى عنوان هذه الفقرة بعد حين إن شاء الله.

كان قصدُ الاستعمار الفرنسي حين أصدر قانون الظهير البربري القاضي بأن يُحكم البربر بالعُرْف البربري لا بالشريعة الإسلامية أن يفرقوا المغاربةَ المسلمين أُمَّتَيْن يحكمهما قانونان. وكان للبربر أعراف في المسائل الاجتماعية والسياسية بعضُها يلتقي تماما مع الشريعة الإسلامية كعُرف الاختيار التشاوري الانتخابي الاختياري لرئيس القبيلة وقائدها. وبعضها كان يصطدم مع شرائع الإسلام.

بدأت مقاومة الظهير البربري في عاصمة من عواصم الإسلام، ومعقل من معاقله، وقَلْعة من قلاعه: في المسجد، في المسجد الأعظم بسلا. خطب العالم في المسلمين، وبكى بخشوع وأبكى، وبيَّن أبعاد المؤامرة الاستعمارية الخبيثة. ثم أعقب الخطبة والموعظة والبيان بالتوجه إلى الله تعالى متوسلا باسمه اللطيف.

كان للمسلمين المصلين من عرب وعجم ملاذٌ وسلاح هو دينهم وقرآنهم وخطبتهم وموعظتهم ومسجدهم والالتجاء إلى ربهم عز وجل.

وامتدت حركة «اللطيف» في ربوع المغرب: يجتمع المغاربة المسلمون من عرب وبربر في المساجد يَجأَرون إلى الله تعالى: يا لطيف! يا لطيف!

أقلق الاستعمارَ وحدةُ المسلمين في رفض القانون الجائر. وأقلقهم وأقض مضجعَهم رَبْطُ المسلمين احتجاجَهم بالمسجد ومعاني المسجد وخطبة المسجد وموعظة المسجد.

وبلغ حَنَقُهم على الاحتجاج ذروتَه أن رأوا الحركة الوطنية التي التحقت بخطباء المسجد تقوي وتشعر بتقَوِّيها وتعبر عن ذلك بالمظاهرات خارج المساجد.

كانت الحركة الوطنية روحا إسلامية صرفة خالصة سرت في أوصال الشعب المغربي. نشَّط دماءها الظهير البربري من حيث كان الاستعمار الفرنسي يحسب أن سيوهنُها. فيمكن اعتبار حركة «اللطيف» وما أعقبها ميلادا ثانيا للحركة الوطنية. اعتدَّت الحركة الوطنية بنفسها، واكتشفت قوتها، وتنظمت فيما بعد أحزابا قادت البلاد إلى الاستقلال.

نعود بعدَ حين إن شاء الله إلى غضبة السوسي رحمه الله على مدارس الاستقلال التي أزاغت صبيان إلغ. وإلى الذي ما فَتِئنا نذكر به مما فعلت مدارس الأكفِّ الممدودة بأجيال ما بعد الاستقلال.

نلَخِّص كل ذلك تلخيصا بليغا في كلمة لابن عبد الكريم الخطابي أسد الريف رحمه الله. سَمَّى الاستقلال «احتقلالا». كلمة مركبة تركيبا مَزْجيّاً من «احتلال» و«استقلال». ونَمضي في السياق.

احتلوا الأعداء الأرض زمانا، واستقلت الأرض لندخل في متاهات الاحتلال النفسي العقلي الساكن المسَكَّنِ في جوانِح هُوَيّة جديدة عنها كنا نتحدث منذ هذه الصفحات.

لم يكن حزب الاستقلال قد انتظم وتميز عن الحركة الوطنية سنة 1930 سنةَ الظهير البربري مُوقظِ الغيرة الوطنية الإسلامية ولا كان علال الفاسي رحمه الله قد كتب كتابه «النقد الذاتي» الذي دوَّن فيه أفكاره عن بناء مغرب كان يريده مسلما.

فيكتب الزعيم رحمه الله بعد سنواتٍ عشر أو يزيد عن القبائل البربرية وما بغاها بكيدٍ الباغون المستعمرون. ويقول: «فإن عديدا من القبائل المغربية ما تزال متمسكة بلهجتها المحلية التي لا تطمح في جعلها لهجاتِ ثقافةٍ وحياة عامة، ولكنها بالطبع ما تزال تعتبرها لغة الأسرة والتفاهم الاجتماعي المحلي»[1].

قال رحمه الله: «وإذا أضفنا لهذا محاولات الاستعمار استغلالَ هذه الحالة القائمة عرفنا مقدارَ الخطر الذي يهدد المستقبل القوميّ إذا لم نهتمَّ به منذ الآن».

وأقول: خطَرٌ كان يهدد المستقبل القومي. خطر تحقق وأحاقَ. خطر لم تعرف مدارس الاستقلال كيف تهتم به. مدارس جهلت وتجاهلت نداء الوطنيين منذ أربعين سنة لتعريب التعليم ومغربته وتعميمه. أكثرُ من كانوا ولا يزالون ينادون بتعريب وتعميم ومغربة رجال حزب الاستقلال.

قال الزعيم المسلم رحمه الله: «إن وجود لهجات متعددة في أمة لا يضر بها سياسيا ولا يمَس وحدتها كأمة [...] ولكن الخطر هو من الناحية الاجتماعية، لأن للغة تأثيرَها في تحول الذهنية وأثرَها في التفاهم بين مختلف الأشخاص وتبليغ فلسفاتهم».

وأقول: تعدد اللهجات في الأمة لا يضر إن وقفت المطالبة الثقافية عند الثقافة واللغة. لكن من يقِفُها وهي تَخْطُرُ وتزِفُّ مسرعة إلى عُرْض الشارع السياسي، لتحرك الوعي السياسي القومي، ولتشارك بهمة واعتداد بالنفس في المعترك السياسي، ثم لتوازنَ القُوَى السياسية في البلد، ثم لترجَحَ بها ولو على حساب الوحدة.

(1) النقد الذاتي، 255.

وأقول: تتحول الذهنية ويتفاهم أهل اللغة الثائرة على ظلم سبق وظلم استُجدَّ، وتنْبَغُ فيهم فلسفة، وتُحدث الفلسفةُ جَلَبَةً، وتنخرط الجلبة وفلسفتُها في المفاهيم العصرية للقوميات المحلية ذات الهويات المتميزة التي تهدد وجودَها عولمة الاقتصاد، والـمَدُّ الكاسح للنَّمَط الحضاري العالمي، فإذا لُغة البربري وطنُه، وإذا لغتُه سياستُه، وإذا ثقافتُه الخاصة قضيةُ حياته، وإذا أنياب العبّيَّـة الجاهلية تتكشر عنها الشفاه، وإذا أظافِر الباس لا يَنخَنِس شيطانها ولا تُقَطُّ أشطانها.

لا يضر تعدد اللغات واللهجات أمة إن كان ما يوحدها في اعتقاد الناس وفكرهم ومشروع حياتهم أسمَى وأشرف وأعز من الهوَية الخاصة. وإلاَّ فمن المطالبات اللغوية يبدأ الانشقاق، ويقْعُد داعي الفُرقة أميراً من عند نفسه، من عند جاهلية حَمِيَّته، من عند جِنّ وَسواسه وهمسه، من عند فلسفة جنِّه وإنسه.

انتصر المنشدون المسلمون الغيورون على دينهم بالنشيد المناضل، وأبْلَوْا البلاء الحسن في المقاومة وجيش التحرير. فأي عَزَاءٍ وأي ألم وأي نشيد يلائم الأفق الـمُكفَهِرَّ المدْلَهِمَّ الذي ترسمه أمام المغرب والجزائر وشمال أفريقيا كونغرساتٌ جنّدَ فيها وموَّل ودوَّل العدوُّ الخارجي جنودا مخلصين من بني جلدتنا؟

كتب الزعيم المسلم علال الفاسي رحمه الله في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي»[1] عن الأمازيغ الغاضبين لدينهم ووطنهم سنة 1930، قال: «أصبحوا يحسون ويألَمون ويتحركون للدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم. وأصبح الرِّعاءُ يتغَنَّوْن بالأناشيد الوطنية الحزبية التي تبكي حالة الوطن وما يكيده الأجنبي له من دسائس».

(1) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص: 152.

ويسجل الزعيم رحمه الله النشيد الأمازيغي الحزبي العميق الدلالة فيقول: «ولعل من العظة والذكرى، ومن التسجيل للحقيقة أن ننقُلَ هنا هذا النشيد باللهجة البربرية ثم نُعقبه بالترجمة العربية».

ويكتب رحمه الله النص الأمازيغي يجده من يطلبه في كتابه. ويتَرجم لنا أحد الإخوة الأمازيغيين النشيد إلى العربية ترجمة أكثر دقَّةً من ترجمة علال الفاسي رحمه الله يقول النشيد:

1. أيها القابضون على أزِمَّة أمورنا، الحاكمون في قضايانا، ما هذا الحكم بالعُرف الذي أضاع الدين؟

2. تشاورتم في الرّأي إلى أن أضعتُم عزتكم، ورمَيْتم الدين كما ترمون الثياب البالية.

3. كان الحال مِن قديم الزمان أن الأُخُوَّةَ كانت بيننا صحيحة. أليس إسلام الأمازيغ أبوه عربي؟

4. يريد الأعداء أن يفرقونا ويُلْهو بعضنا ببعض لكي يجعلونا ألعوبة.

5. أيها الأمازيغ! إن النوم من طبائع الإنسان، لكنَّ الحرَّ ينتَبِه ويبادر اللص.

6. زعم الروميون أن السلطان احتمَى بهم لإقامة الطُّرُق ونشر السلام.

7. وإذاً فلماذا يجعلون بيننا وبين ديننا سدا، ويبُثّون فينا عداوته. والحال أن الدين الإسلاميَّ هو غايتنا من الحياة؟

8. أيها الأمازيغ! إنكم نقضتم العهد! أليس عاراً عليكم أنْ تُهانوا في دينكم، في عُقْرِ داركم المغرب؟

9 . أكلوا المال، وأخذوا الدين، وأخذوا الأرض، وصار الكل بيد عدوكم.

10 . أذعنتم بالذل حتى صرتم كالعبيد كأنكم لستم أبناء الشجعان.

11 . والله العظيم! لقد أضْناني السهر من أجلكم، وما أضْعَفَنِي إلا همُّكم.

12 . ما أعظم مُصابكم أيها الأمازيغ بالمغرب! أبكي لكم إذْ أنتم أنا نسبا ودينا.

رحِم الله علالا الفاسي وجيله من علماء المسلمين الذين استجابَتْ لندائاتهم أناشيدُ الرِّعَاءِ، وتجاوبت غيرتهم مع غيرتهم، والتحم نضالهم مع نضالهم، وانتصر إسلامهم جميعا متجسدا في الحركة الوطنية الملتفة حول خطيب مسجد «اللطيف»، وفي المقاومة وجيش التحرير، على الغزاة الخارجيين أعداء الدين.

وشارك في الحركة الوطنية بعض خِرِّيجي ثانوية أزرو التي كان الأستاذ محمد شفيق رئيس جمعيتهم رَدحا من الزمن. كانت مدرسة لصُنْع جيلٍ من البربر يعادي الإسلام والعروبة ويصادق فرنسا. فخرج من أزرو أجيالٌ عادَت فرنسا. وما يُدرينا أنه لم يخرج من مدرسة أزرو ومن سائر مدارس الاستعمار القديم والحديث ناسٌ عانقوا ثقافة فرنسا بعد انسحاب فرنسا عناقاً خالط العقل بالعقل، والعقيدة اللاييكية بالعقيدة اللاييكية، وإضاعة الدين بإضاعة الدين.

فما أعظم مصاب بعضكم أيها الأمازيغ بالمغرب أبكي لكم إذ أنتم أنا نسبا ودينا. وما أعظم مصاب بعضكم يا عرب المغرب. أبكي لكم إذ أنتم أنا نسبا ودينا.

أنتم أنا أيها البربر نسبا وخُؤولة لا تزال. وأنتم أنتم أيّها العُربان والـمُزغان المرتدون عن دينهم، لكم دينكم ولي دين.

قرأنا في البيت الثامن من النشيد البربري المسلم قول الشاعر لبعض بني قومه: «أيها الأمازيغ! إنكم نقضتم العهد!» ووبخ الشاعر ناكثي العهد قائلا: «أليس عارا عليكم أن تُهانوا في دينكم، في عُقر داركم المغرب؟».

ما نقض عهد الدين والإسلام والأخوة الإسلامية شعبٌ من رجاله طارق واليوسي والخطابي والسوسي. لا ولا أنكر الشعب الأمازيغي والشعب الشلحي والشعب الريفي والشعب اليزناسني أبوة العرب الدينية كما عبر الشاعر الـمُنشد في بيته الثالث حين قال: «كان الحال أن الأخوة كانت بيننا [نحن البربر والعرب] صحيحة. أليس إسلام الأمازيغ أبوه عربي؟».

وإنما خاطب الشاعر متهما إياهم بنقض العهد أوباش الناس مِمن باعوا ضمائرهم للحاكم الأجنبي من أصناف المتعاونين مع السلطة الاستعمارية ابتغاء وظيف أو منصب أو رئاسة أو مَتاع.

اتهم ووبّخَ. ولعله مات قبل أن يشهد ما جاء به الاستقلال «الاحتقلال» من رزايا، وما صنع من أخلاط، وما احتقر من دين، وما أزرَى بشرف البربر والعرب.

ثورة الفرسان الأمازيغ

ما فعل الاستقلال بالدولة والإنسان؟ ما فعل بالعرب المغاربة وبالمغاربة الأمازيغ؟

ما فعلت الحكومات الوطنية بعد الاستقلال بالآمال التي علقها على الاستقلال عرب المغرب وأمازيغهم وشلوحهم وريفيوهم؟

حدثت اضطرابات امتدت سنتين بعد الاستقلال أو يزيد. كانت فوضى أعقبت تَخَلّي الإدارة الاستعمارية الفرنسية والإسبانية من السلطة. وكان الحنَق الاستعماري من عوامل تفريغ الإدارة الاستقلالية من الكفاءات ومن النظام.

ثم كان إجهاض جيش التحرير وإخضاعه للنظام الوليد. وثار الأمازيغ الأحرار على حكوماتٍ كان حزب الاستقلال يبادر ليستأثر فيها بالنصيب الأوفر. ويبادر القصر.

قبل انتفاضة الريف وقمعها الدمَوي سنة 1958 ثار فرسان الأمازيغ.

في اليوم الحادي عشر من شهر يوليوز سنة 1956 بتاريخ النصارى اصطف ألف وخمسمائة فارس أمازيغي في جبال الأطلس حيث زارهم السلطان محمد الخامس رحمه الله. كان مُعظمهم من قبائل زَيانْ وزمور.

كان مع القائد الحسن اليوسي – من قبيلة الإمام اليوسي المجدد الكبير – رُؤساء القبائل الأمازيغيّة الكبار مثلَ أمَهروق الزياني حفيد المجاهد الكبير مُوحَا أَحَمُّو رحمه الله، ومثل عدِّي أبيهي، وإدريس بن عبد الكريم الريفي. رحمهم الله جميعا.

مفخرة المقاومة الأمازيغية لجيوش الاستعمار مُوحا أُحَمُّو الزياني ينتمي نسبه إلى الدوحة النبوية. فاصلة واصلة. وكلمة لِمن يعتد بعصبية بربرية مفاخرها تُسمَّى الخطابيَّ العُمَرِيَّ المحتد وموحا وأحَمُّو الشريف النسَب. ومن يسأل النسَّابين يجِدْ أن العرق البربري والعرق العربي تعانقا على مَرِّ القرون حتى لا مكانَ ثَمَّ لصفاءٍ عرقي لا يوجد إلا في أذهان جاءت من بعيد ولا تنظر إلى بعيد. وكم في البربر من مُخْوِلٍ في

العرب وفي العرب من مُخْوِلٍ في البربر. لا يتنكر لخؤولته إلا لئيم زنيم، ولا يعتزي بعمومةٍ جاهلية إلا لصيق في الإسلام أثيم.

غضب الفرسان الأمازغ في كَرَّانـدُو وإِمـوزّارْ نْكَنْـدَر وإِتْـزَرْ والقصَبية وتاغْبَلُـوتْ.

غضبوا على عنصرية حزبية، وعلى دكتاتورية ما ألفوها وهم المطبوعون على اختيار رؤسائهم منهم. كانت الإدارة الفرنسية التي اعتبرت البرابر (بون صُفاج) كما عبَّر الحاكم المستشرق جاك بِرْكْ حافظت على بعض مظاهر الرئاسة التقليدية المنتخبة دوريا في عُرف البربر. فكان القائد يَنصبه الفرنسيون من الأفراد البارزين في القبيلة، ويُمثِّل -بمعنى التمثيل المسرحي- صورة السلطة التي يمسك بحقيقتها المراقب الفرنسي.

فلما جاء الاستقلال ظن رجالُ البيوتات الرئاسية الأمازيغية أن حقيقة السلطة التي اغتصبها منهم الفرنسيون ستعود إليهم. أضِفْ إلى ذلك جهلهم بمقتضيات نظام الدولة الحديثة. أضِفْ إلى ذلك الصراع على السلطة يومذاك بين القصر وحزب الاستقلال.

أضف إلى ذلك أن الحكومات العرجاء الوطنية نَصَّبَتْ في السلطة أخلاطا من الناس انخرطوا في الحزب المسَيطِر انتهازا، أو تزلّفوا للقصر ارتكازا.

أضف إلى ذلك أن البرابرة الفرسان الأشداء الذين تجري في عروقهم دماء موحا أُحمو وأضرابِه من الأبطال صُعِقوا لما رَأوا مدنيين من أنصاف المتعلمين ومن الشخصيات الباهتة يُرْفعون فوق رؤوسهم.

ويخطبُ الرئيس القائد الحسن اليوسي في الجموع المحتشدة والفرسان المصطفة، فيُذَكِّر كيف كانت القبائل وراءَ أمجاد المغرب.

ويَشجُب سياسة الدولة التي تسند إلى مدنيين لا كفاءة لهم ولا شخصية، ولا يعرفون شيئا عن «قبائلنا وعن تاريخنا، وعن تقاليدنا وفلاحتنا».

كان حزب الاستقلال غداة الاستقلال يديره شخص قوي الشخصية شديدُ المِراسِ بالغ الذكاء وافر النشاط والحركة والحماس، هو المهدي بن بَرْكَة اليساري المتشبع بأفكار اليسار العالمي في ذلك الوقت. ولم يكن للزعيم العالم علال الفاسي سوى لقَب الزعامة.

وكانت الكلمة السياسية يومها هي «الوحدة». خطَّط ابن بَرْكة مشروع «طريق الوحدة» الذي تبناه القصر. طريق لتوحيد الشمال المغربي الذي فَرَّغَهُ الإسبان بالجنوب المغربي الذي فرَّغه الفرنسيس. طريق شغَّل في تمهيده حزب ابن بركة الشباب المغربيَّ من جهات المغرب. وشغّل أفكار الشباب في التقاط مبادئ الوطنيةِ الوحدوية المتَنازِعِ على ولائها القصر السلطاني والحزب العتيد.

واصطف في خنيفرة ألف وخمسمائة فارس يستمعون إلى السلطان محمد الخامس رحمه الله يحدثهم، فيما يحدثهم، عن الوحدة.

طَمْأَن البرابرة على أنهم لن يُضاموا في مملكته، وأنَّ نور الإسلام جمع بين العرب والبربر، وأن الإسلام صنع من المغاربة أمة موَحدة لا تستطيع قوة أن تفصل بين مكوناتها. وأن الإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي.

وختم خطابه السلطانيّ بتذكير الحاضرين أن مَثلَنا الأعلى جميعا حبُّ الوطن.

سمِع الفرسان الثائرون الكلمات الأولى التي أَسَّسَتْ الخطاب الملكيَّ الذي تبلور فيما بعد في الشعار الثالوثي: «الله، الوطن، الملك».

شعار لا حاجة هنا لإعادة ما كتبناهُ عن «المقدسات» الثالوثية في «الإسلام أو الطوفان».

خرج المغرب من أربع وأربعين سنة من الاستعمار الفرنسي الإسباني وكان يبحث عما يجمع شتاته. كان شتاتُ القبائل قبل الاستعمار أهمَّ مَا عَرَّض المغرب للاستعمار. كانت قابلية الاستعمار تتمثل في «مخزن» ضعيف أمام قبائل قوية. وأمام الثائر الجيلاني الروكي. ولم تفِدْ في كبْح جماح القبائل والثائر ما دأب عليه المخزن منذ قرون من سياسة «فرق تسد».

تُسمى سياستنا التقليدية في إقْرار السلم بين القبائل سياسة السيبة. يفهم الناس السيبة على أنها مرادف للثورة. والكلمة في مبناها ومعناها وتاريخها تعني أن السلطان يُهْدِرُ دِماء القبيلة المستعصية، ويُبيح أموالها وأراضيها، ويُحَرّش قبائل أخرى مُوالية أو ناهبة ناهزة لتسطُو وتسفك الدماء وتسبي النساء والأطفال.

عجزت سياسة التسييب وألقت السلطة المخزنية بجِرانها بين يدي القوى الغازية الاستعمارية القوية. فلما جاء الاستقلال ظن الرئيس اليوسي ومن معه من فرسان أن قد جاء الوقت لاستعادة المجد الـمُسَيّب ولإثبات الذات وتحقيق الانتماء للشعب البربري الحر.

وسرَّبَت فرنسا السلاح لبعض الرؤساء البرابر -عَدِّي أبيهي- لتضع العراقل في طريق المغرب المستقل كما كانت سلحت الجيلاني الروكي وكما كانت تحالفت مع «القياد» الكبار -مثل الكلاوي- قُبَيْل استيلائها على البلاد وبعده.

ثار عَدِّي أبيهي -وقد كان نُصِّبَ عاملا على إقليم تافِلاَلْت- وطرد قضاة المخزن وموظفيه. وأعلن أوائل سنة 1957 أنه لن يطيع أوامر الحزب «الملعون» الذي لا يتركه يعيش كما يشاء. وأعلن تمَرُّدَه على النظام كلية.

قضية حياته

نخوة عدِّي أُبيهي، وشهامته، وقِصَرُ نظره، وعقليته الحرة، وتهوره آخر الأمر أدت به إلى حتفه.

وكيف لا يضحي المرء بحياته إن مُسَّتْ القضية الكبرى في حياته!

من يَقرأ تاريخ الضُّعَيِّفِ وما فعله المخزن بالقبائل البربرية التي سيَّبَها وأهدر دماء رجالها وحرية نسائها وأطفالها يَفْهمُ عدِّي أبيهي والحسن اليوسي ومن اصطف معهما من الفرسان الأباة.

على أنَّ القبائل التي تعرضت على امتداد قرون للتَّسْييب ثارت على الحُكم الظالم، لم تَنْبِذْ إسلامها. لم تتنكر لدينها كما يفعل بعضهم اليومَ: بعضهم الذين تغطِّي عين عقْلهم وضميرَ نفسهم غشاوة من الحَنَقِ المحتقِنِ على ماض أهِين وحاضرٍ لَمْ ينل من الشرف الاجتماعي السياسي ما يستحقه، فإذا بأمِّ القضايا في حياتهم الثأرُ التاريخي. وإذا بالدين يُتَنَكَّرُ لَه انتقاما ممن لَعبوا بالدين، وجهلا بما هو الدين، وارتدادا زندَقيا عن الدين.

ولعل هذا الاحتقان الغاضب هو ما يجعل أمثال الأستاذ الأخ محمد شفيق يورِدُ في تعقيباته «القولَة المعروفة» كما قال، والتي يوصي فيها من لست أدري: «إذا اشريتم الرقيق أو غيره من الحيوان فلا تُغالوا في الثمن».

لست أدري من أين يلتقط الأمازيغي مثل هذه الكلمات المجنونة الحيوانية حيث كان يكفيه أن يعْرِض بالأمثلة التاريخية الـمُوَثَّقة المعاملة الحيوانية التي مورست على البرابر –والعرب أيضا– فعلا لا قولا.

للأمازيغ قوما قضية كبرى هي استعادة المجد الضائع والشرف المستباح. وللأمازيغي فردا قضية كبرى تجعله ينخرط في النضال القومي حتى لَيَنْسَى إسلامه في غَمْرة الحَمِيَّةِ.

يعظُم في عين الأمازيغي ما يملأ نفسه. يتضخَّم في تقديره الحقير. فإن لم يكن معه إلاَّ معيار المرجعية النسبية فالكل أرض مع أرض، والكل فعل تاريخي وتَاريخ، والكل دنيَا لاَ آخرة بعدها.

يهون في حسابه ما لا يؤمن به، أو ما كان يؤمن به من حقٍّ غَشتهُ عنه الغواشي: حقِّ أنَّ الله بعث رسولا بالحق والعدل، وحقِّ أن الظُّلم التاريخي مما جناه المسلمون على المسلمين منكَرٌ أمر الله أن يُنْهَى عنه ويُقاوَمَ، وحقِّ أن الإسلامَ بريءٌ من الظلم والظَّلَمة، وحقِّ أن الشرك بالله والكفر بالله أعْظم الظلم.

بمعيار الحق الذي بعث الله به رُسُلَه عليهم السلام، وبمعيار القرآن الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم بالحق، لا تُكَوِّن علاقة التضادِّ والتناقُض مع الدين صيغة ووسيلة لرَفض ما فعله عربٌ ظلموا بربراً. نضرب بالعروبة والإسلام معا عُرْضَ البَحْر.

في خطاب إثبات الهوَية البربرية تنزلق فلسفة الهُوَيَّة من المطالبة باستعادة الشرف الثقافي اللغوي إلى تعبئة سياسية حَرِدَةٍ تكون اللغة فيها هي المؤسسة الدفاعية، والكتيبة الهجومية، والحِصْنَ التاريخي، والوِعاءَ المستقبلي للآمال، والقلْعة التي منها توَجَّهُ مَدافع الحرب على العُرُوبة القومية المخزنية، وعلى كل عروبة حمقاءَ، كانت شنيعَةً مثل المذهب العفلقي الصدامي الصنمي، أو رَشيدة مثل عروبة المسلمين المتمسكين بقرآنهم وهَدْي نبيهم وصلاتهم ودينهم.

تراكمت في الذاكرة التاريخية الأمازيغية التي تُحاول النخبة المثقفة الأمازيغوفونية بعثها آلامُ مجد ضاع، له جذور في العصر الحجري. ويكتسي قِدَمُ الزمان قداسةً تعلو بالمنتَسب لآلاف السنين إلى عَنان السماء. وتراكمت آلام سَيْباتٍ لا يزال صداها يَحُزُّ في نفس المثقَّف قارئ التاريخ الموَثَّق الأسود.

وتراكمت آلام استعمار أجنبي حاربه الأبطال الفرسان المسلمون. وتراكمت خيْبَاتُ أَمَلٍ علَّقه الأمازيغ على الاستقلال الذي سلط على الفرسان الشجعان ذوي النخوة والشهامة أغْرارا حليقي اللُّحِيِّ يرطِنون بلسان المستعمِرِ الراحل، ويفكرون كما يفكر، ويحتقرون كما يحتقر.

يتراكم كل ذلك ويتضخَّم فيُنْسَى الله، وتُنسى الدار الآخرة، ويُجْحد الدين ومرجعيتُه.

لو بقي لهذه الحَفْنة من المثقفين القوميين الأمازيغ المتدينين بدين اللاييكية بقية من الفِطنة التاريخية لخاطبناهم من هذه الجهة.

ساهون عن مصير أمتهم الإسلامية، بل نابذون الانتماء لهذه الأمة منذ اكتشفوا أن لهم أمةً غيرها.

ساهون عن مصير الأمة الإسلامية التي هي وحدَها، الانتماءُ إليها وحدَه، التوبةُ إلى الله للكينونة منها وحدَها، عزُّهم في العالم، وقيمتُهم في العالم، وعُدَّتُهم للقيام في وجه تحديات مستقبل الأمازيغي والعربي والتركي والفارسي والهندي والماليزي والأندنوسي والأبيض والأسود في العالم.

بالإسلام وحدَه يمكننا أن نتسربل بعزة الإسلام في العالم، معتمدين على الله رب العالمين، ماسكين بالعروة الوُثقى الجامعة ولايتُها بين المسلمين.

بُطولة فيكَ موروثةٌ دِماؤها من الأجداد؟ تَعالَ أظْهرها في فُسحة العالم متوحّداً مع أمة الإسلام، صانعا وحدَة المسلمين. لا تُضِعْ جُهْدَك في حَفْرِ أفحوصةٍ ضيقة تعظُم في عينك حتى لَتحسبُها العالَم.

صغيرة تعظمُ في عين صغير. كما قال الشاعر:

وتعظُم في عين الصغير صِغارُها وتصغُر في عين العظيم العظائم

كفاءَةٌ فيك؟ ذكاءٌ فيك؟ مروءة فيك؟ يقَظةٌ فكرية فيك؟

تعال اصرفها مصْرِفاً يليق بك إن كنت الشهْمَ سليل الشجعان!

تعال صُنْها من الابتذال والتبذّلِ في الصغائر.

تعال اقتحم العقبات الكبرى يُصَغِّرُها في عينك عِظَمُ همتك.

تعال ابن أمة الإسلام التي يسومها خسفا نظام عالمي غاشم. ساهم في البناء. وإلاَّ فالقاطرة مرتحِلَةٌ مُخَلِّفَةٌ الصِّغَارَ في عربَةِ صَغارهم.

في تركيا نهضة إسلامية رائدة. فيها انبعاث لدين الله الذي ظن لاييكي قومي ظالم أنه محاهُ من الوُجود في أرض محمد الفاتح وسليمان القانوني رحمهما الله.

في إيران ثورةٌ يشعر مستكبرو العالَم أنها عليهم خطر.

في ماليزيا وإندونسيا نهضة إسلامية ونموٌّ اقتصادي.

في باكستان شَمَمٌ وعزة بالإسلام، وقُوة عسكرية في طور البناء. في الهند عشرات الملايين من المسلمين المُرْتقين سلَّم المعارفِ العلومية التكنولوجية مثلما فيها وفي سائر بلاد المسلمين

علـماء بالكتـاب والسـنة يحيُـون القلـوب وينتزعونهـا مـن براثـن الجهـل بالله وبالمعـاد.

أقوام عجم ترتسم في آفاق مستقبلهم وحدة إسلامية عالمية. عجمٌ كما هم البربر عجم. عجم كانوا ولا يزالون وسيبقَوْنَ إن شاء الله عِزَّ الإسلام، وعضُدَ فُـتُـوَّته، وشوْكةَ بأْسه، ونور هدايته. والعرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم إنما شرفهم، وشرفكم يا أمازيغ بلادي، بنُصرة الإسلام لا بالانتماء العِرقي.

عالم يُبْنَى بك يا أخي الأمازيغي أو بدونك. قوة مستقبلية تتألف لتواجه أمريكا الطاغيةَ اليومَ، الهاويَةَ في دَركات الانحلال. ولتواجه أخْطُبوطَ المنافسةِ الشرسة النَّهِمَةِ المدمِّرة الأرض.

عالم يُبْنى بك أخي وبدونك. الكتلة الإسلامية الضخمة عددا وإمكانات، الحية بحياة الصحوة الإسلامية المباركة، يَلتقي مشروعها التَّحَرُّريّ مع طموحات الهند والصين واليابان وأوربا المتحدة وسائر الأقوام المستضعفة في الأرض.

فما هي قضيتك أخي الأمازيغي بين القضايا. صغيرة؟

اللغة مؤسسة سياسية كبرى

فكر صغير لا تبني عليه شيئا يذكر. ولغة شعبية مثل اللغة البربرية الأمازيغية لن تنهض بالمهمات المنتظرة من لغة متطورة قابلة للتطور في عالم الصراع الـمُعَوْلَم.

يعلَم ذلك من يُميِّزُ. إلا أن تكونَ له قضية سياسية يوظف لها اللغةَ الصغيرة الشعبية، فيصنَع لقضيته ولغته أجنحةً لا يُدْرَى من أين ارتاشت -أو ارتشت؟- خوافيها وقوادِمها.

ينقب الباحث الأمازيغي عن مفخرةٍ عظمى للغته وقضيته السياسية فيكتشف حرفاً أمازيغياً مُوغِلا في القدم محفورا على صخور صحراء ليبيا ومصر والجزائر والمغرب.

ينقب ويَكتشف حرف «تِيفِنَاغ». تِيفِي نَّاغْ. أي مُكتَشفتُنا. وجدناها. وجدناها مؤثّـلَةً عريقةً في التاريخ. وجد آباؤنا العباقرة حرفا ربما عاصر رسومَ الفراعنة وسبقها بما هو أبجدية متطورة تُعَبِّــرُ سابقة في وجه الأشكال المصرية القديمة.

ويُرَشح البحاثة المؤرخ صاحب المعجم العربي الأمازيغي الأستاذ محمد شفيق لغة الأجداد، لغة العناد، لتكون أداة سياسية ومؤسسة إديولوجية يستفيد منها المغرب ويمُدُّ نفوذه وخيوط دبلوماسيته من مالي والنيجر إلى موريطانيا وليبيا.

وذلك ما كتبته عنه الجريدة الأمازيغية «أكراو» منذ شهور. يرى البحاثة المؤرخ المعجمي أن الأمازيغية ورقة سياسية يكسب المغرب إذا لعبها كسبا استراتيجيّاً ينتصب به مُدافعا رائدا عن الثقافة الأمازيغية.

لا نثق ببراءة المطالبة الثقافية الأمازيغية. فإن في بطنها جنين ثورة سياسية قومية، ومشروع حَميّةٍ وعبِّيَّة. في بطنها كسيلة والكاهنة.

ذلك الذي سَمَّى أعز المخلوقات لديه -ابنه- كسيلة، وتلك التي سمت بنتها الكاهنة، كما سمَّى غيرهم أبناءَهم شِي كِفارا وصدام وماو، ما سمَّوْا لمجرد إعجابٍ تاريخي. سمَّوْا لوجود مشروع تَمَاهٍ واقتفاء أثر. سمَّوْا رَغبة في فَكٍ وصلة وربط أخرى. سمّوْا لاشتراك في فلسفة حياة وإديولوجية مذهب.

سمَّوْا لنصْبِ حدود رمزية لغوية تفصل الهُوَية القومية اللغوية وتحميها من الخطر المهدد بتمييع الهوية والذات الثقافية السياسية.

سمَّوْا تمَسُّكا رَمزيا عمليا حياتيا بقضية كانت قضية كسيلة والكاهنة وشي كفارا.

عندما نتقدم في مُعْتَرَك القضايا المصيرية الكبرى بقضية صغيرة تلعب بها أصابعُ لا يُدرى ما هي فإنما نُنْبِئ عن تقلّص فكري. نَسْجُن عقلنا في لغةٍ قفصٍ، ونتقنع بقناع ثقافي من ورائه وجه لا يحب الأمازيغي الملتزم بالمذهب ومنطقه أن يُكشف.

بتقدُّمِنا في معترك القضايا الكبرى في العالم بفكر صغير ولغة شعبية نرتد عن مواجهة الحركة التاريخية المصيرية في العالم. نركَنُ إلى سُكونٍ واستكانَةٍ. نُلْقِي السَّلَمَ للأساتذة المنظمين المولين الـمُدَوِّلين. ونلتفت مغاويرَ أَشِدّاءَ لننتزِع من اللغة العربية فرصَتها في التسَلُّح لخوض المعارك المصيرية الكبرَى.

ونقيم المآتم والمناحات احتجاجا على حق من حقوق الإنسان هُضم، وعلى غبْنٍ سياسي لحق بالأمازيغ في ظل الديمقراطية المخزنية اليوم، كما لحقها أذى المخزن المخزني قروناً طويلة.

ويتميز المثقف القومي الملتزم يُخفي وجهه أو بعض وجهه، عن الأمازيغي المشتغل بالسياسة مكشوف الوجه.

نقرأ في سلوك الأمازيغي السياسي السياسوي مثل ما نقرأ عند المثقف الملتزم بالأمازيغوفونية الكاملة. نقرأ نفس الاعتزاز باللغة المؤَسَّسةِ السياسية المركزية. ونقرأ الاعتزاز بالأجداد. ونقرأ الحساسية التاريخية باضطهاد السيبة البائدة. هل بادت؟

ونقرأ الحساسية بهضم حقوق اللغة الأمازيغية مِحور الهوَيَّة وعمادها.

ثم نجد اختلافا بين المثقف الأمازيغوفوني والسياسي الأمازيغي.

الأولُ يكادُ يُخْفِي سياسةً واتقاءً لواعظ يمارس «الإرهاب الفكري» رأيَه الصريح في الإسلام ومرجعية الإسلام وصلاة الإسلام وزكاته وصومه وحجه وعقيدته.

والآخرُ أوّلُ ما يُعلنُه إخلاصه للإسلام وتفانيه في تقديس المقدسات الثالوثية. كيف يتعايش الإسلام والشرك في أجواف بعضهم!

ذلك أن مُحترف السياسة يتعرض مباشرة لضغط شعبي لاَ يعرفه المثقف في بُرجه النخبوي المتحصن، يُلقي قذائفه على الإسلام ولغة القرآن، وعلى سياسة شريعة الإسلام من علياءِ قلاعِه أستاذا في الجامعة، أو رئيسا في إدارة، أو باحثا متخصصا في معهد، أو عضوا في محافل مُكَرّمة.

السياسي الأمازيغي المحترف لا يفلْسف مطالبه اللغوية السياسية الحياتية. وإنما يمهِّد الطريق ويعبِّدها إلى نفوس الشعب الأمازيغي بدغدغة أحاسيسَ عتيقةٍ، وبإيقاظ ذاكرة قومية يهددها بالاسترخاء والإدماج والنوم فولكلور السياحة، ونداءُ المدينة، والتطبُّعُ بطبائِعِ الوَطن المقدس، والتضَبُّعُ بإديولوجية الوطن المقدس.

أفكار عتيقة مغَبَّرةٌ، وأحاسيس على هامش الأهازيج الفلكلورية، عليها لون الأرض، ونُكهة الجبل، ونبرة لغة الأجداد.

وينفُذُ النداءُ الشعبوي القومي يخطبُ به السياسي الزعيم والمتزَعِّم والمنشَقّ عن زعامة، والمنصوب لزعامة، والمغضوب عليه من زعامة.

ينفُذُ النداء الشعبوي يخطب به المنتصبون والمنصوبون، جوازُ مرورهم إلى نفوس الجماهير اللغة التي يعودون إليها بعدَ غُربة عنها. جوازهم اللغة المؤسسة السياسية الكبرى.

ينفُذ النداء القوميّ الشعبوي -جواز مروره اللغة المستَعادةُ- أعمَقَ وأعمقَ كلما كان بسيطا كاركاتوريا مُغرقا في تَحريك الرموز البرية الجبلية من طيور تفتِك وأخرى يُفْتَك بها.

ينفذ النداء القومي أحيته اللغة المستعادة بعاطفة جيَّاشة إلى نفوس حشود عبّأتهم السلطة، وموَّلَت ودَوَّلَت.

عبأتهم وحشدتهم ليصنَع صُناعُ الرأي السياسيون الأمازيغيون وعياً مخزنيا يقدس الإسلام ويقدس معه المخزن.

أيُّ الفريقين أكثر مهارةً في تقليص عقل المسلمين الأمازيغ وتقزيم هِمَمِهم، ورَدِّهم عن مواجهة العصر وتحدياته المصيرية: المثقف في برج عاجه وندوات نخبته، أم السياسي الشعبوي المتمخزن؟

كلاهما في حساب الوحدة الإسلامية وحساب عزة لغة القرآن وشريعة القرآن عجْزٌ ينظر إلى الوراء، قصورُ همة امتلأت بصغائِرَ تُعظمها وتنفخُ فيها الأوهام الفكرية، وتغذيها وتشجعها السلطة القائمة.

على بَصَر بعضهم غِشاوة تحجُبُ عنه نورَ المستقبل، نورَ الإسلام ولغةِ القرآن.

حصن العربية

قاد الرئيس الحسن اليوسي فرسانه في مظاهرة الشرف والنخوة. وخاض القائد الشهم عدِّي أبيهي ثورته على الحكومة المخيبة للآمال.

وامتشق العالم السوسي محمد المختار رحمه الله قلمه ليشجب سياسة التعليم المغرَّب الذي غزا عُرُوبة المسلمين في عُقْر دارها، في حِصن العربية سوس.

استُفِزَّتْ النخوة والشهامة فدفعت بالذي عندها. دفعت بالثورة الغاضبة دون أن تتخلّى عن دينها. بل يعتبر الأمازيغ والشلوح والريفيون وبنو يزناسن وغيرهم من البربر أنفسهم أحسن إسلاما من غيرهم من الأقوام. وحُقَّ لِمن سلَفُهُ طارق والإمام المجدد اليوسي، والصلحاء المجاهدون الريفيون، والذين تلقّوا تربيتهم في مدارس سوس وجبال الجهاد في بني يزناسن أن يفخروا بحسن إسلامهم.

واستُفِزَّ الإيمان والعلم والقرآن ولغة القرآن فدفَعَ «فقيه الجرومية» رحمه الله بالذي عنده، وترك للتاريخ والعِبرة والموعظة شهادةً ليقرأها أمازيغ اليومَ وشلوحُ غدٍ.

جمع القدر بين الرئيس اليوسي والفقيه السوسي في كنَف المخزن السنوَاتِ الأولى من الاستقلال. جربوهُما وخَبَروهما، هذا في وزارة الأوقاف وذاك في وزارة الداخلية. فلما لم يقبل الحزب لهما قالا ولا قيلا، ولا هما وجدا في كنَفِ القصر وتشريفاته مَقيلا، «شُرِّفا» وعُيِّنا وزيرين للتاج. خَبَرا الحالَ وخبرهما، فلم يجد الرئيس في السلْطَة المتنازَع عليها بين حزب ابن بركة والمخزن ما يرفع هام النخوة، ولا وجدَ الفقيه في القُرْب من السلطة الحزبية المخزنية ومشاركتها إلا ما يُحْدِث فَزْراً في ثوب دينه، ووَخزا في بواطن مروءته، وفسْخا في عقيدته، ونقضا لبناءٍ هو في صميم نيته الإسلام والعروبة، لا القبلية المخزنية.

أستفيد من مقال للشريف الأستاذ أبي بكر القادري صديق أستاذنا المختار ساهم به ونُشر في أعمال ندوة نظمها اتحاد كتاب المغرب بأكادير سنة 1984. وأنقل عن الشريف دفاع المختار السوسي عن حصنه وحصن دينه: اللغة العربية.

قال القادري: «وكان [المختار السوسي] يرى أن «سوس» يجب أن تبقى حصنا حصينا للغة العربية والعلوم الإسلامية، تُدرس فيها جميع

الفنون المتعلقة بها، سواء منها العلوم الأدبية على اختلافها وتَنَوُّعها، أو العلوم الشرعية على تعدُّد مناحيها الفقهية والحديثية والتفسيرية». قال: «لقد كان يريد أن تتمتع «سوس» بمدارسَ مثلِ المدارسِ التي كانت في عهدها السابق فيتخرج منها أمثال الشخصيات التي ترجم لها في كتابه الضخم «المعسول» و«سوس العالمة» وغيرهما»[1].

ويتحدث السوسي رحمه الله إلى صديقه وزميله في الحزب متسائلاً ومتألِّماً في الوقت نفسه: «لماذا نعمل في عهد الاستقلال ما لم تستطع فرنسا أن تقوم به في عهد الاستعمار؟ لماذا نقوم بنشر اللغة الأجنبية [الفرنسية] لأبنائنا في سوس بعد أن كانت هذه اللغة متقلصة في عهد الاستعمار؟ أليس نشرها في تلك الأصقاع سيكون على حساب اللغة العربية التي كان لها شأن وأي شأن في مدُننا وقُرانا السوسية، فنبدلها الآن باللغة الأعجمية؟ ما هي مصلحة أبنائنا الصغار في هذه الازدواجية التي ستضيعُ عليهم معرفة لغتهم، وتقلل من اهتمامهم بدراسة دينهم وقرآنهم؟»[2].

قلت: تألُّمٌ وتساؤلٌ نجدهما بأسلوب آخر وبحرارةٍ مُحرِقة فيما اشتكى منه الزعيم الفاسي في كتابه الشهادةِ المهم جدّاً «دفاع عن الشريعة». ندد السوسي بسياسة الازدواجية المبكِّرَة في التعلم، وندد الفاسي وشكا بثه وحزنه ولوعته مِمَّن زرعوا بذور الشِّقاقِ على اللغة ومحمولها القرآني الديني: النخبةِ المغربةِ صنعها الاستعمار في مدارس الاستحمار.

اشتكى الفقيه السوسي رحمه الله إلى أصدقائه ما لا يمكن أن يصرح به من مَجْثِمِه الرسمي. واشتكى وتحرق الزعيم الفاسي من

(1) ص: 101.
(2) ص: 100.

فعلات من همَّشوه وانحرفوا عن مقصِده الإسلامي، ثم انشقوا عن حزبه ليبقى رمْزا متألما في علياء الرايات الخَفَّاقة تَرْفعها أيدٍ مفتقرةٌ إلى رأسمال رمزي.

كان علال ومحمد المختار والعلماءُ المؤسسون للحركة الوطنية من عرب وأمازيغَ «نخبة العِفة والدين» كما يصفهم المختار السوسي في كتابه «الإلغيات». ما ماتوا رحمهم الله حتَّى قاسَوْا آلامَ الغُربة بين ظُهْرانَيْ المثقفين المغَربين نخْبَةِ الإديولوجيات. من وراءِ كتف المغرَّبِ عن دينه المثقف بثقافة الغرب يُطلُّ المعلِّم الغربي والفيلسوف إمام الإديولوجية. ينزَعج وينقمع التلميذ مخافةَ أن يوصف بالتبلدِ والتخلف إن ذكر الله واليوم الآخر، أو دعا مجرد دعوة أن يُحْكم في المسلمين بشريعة المسلمين، بل يَدخله الرعب كما يدخل أساتذته لمجرد ذكر كلمة «شريعة».

ينقل القادري عن صديقه الفقيه السوسي رحمه الله هذا النص. أورِدُهُ بطوله لعمق دلالته. قال: «دهَم علينا الاستعمار بخَيله ورَجله، بلَوْنه وفكره، بسياسته ومكره، بحضارته الـمُشعة، بعلومه الحيوية المادية، بنظامه العجيب، بمعامله المنتجة السريعة، بكل شيء يَمُتُّ إلى الحياة الواقعية. فوقع لنا كما وقع لأصحاب الكهف يَوْمَ رَجعوا إلى الحياة فوجدوا كل ما يعرفون قد تغير تَغَيُّراً تاما».

قال: «وحين كان المغرب لَقِناً حاذقاً سريعَ التطوُّر، مندفعاً إلى كل ما يروقه، أقبلَ بِنَهَمٍ شديد على التِهامِ كلِّ ما في هذه الحضارة الغربية العجيبة، التي تُغِيرُ على جميع نواحي الحياة، فتُحْدث من التغيير ما يجرف التقاليد والأفكار، وكل ما يمُتُّ إلى العادات». قلت: وتحدِث ما يجرف الدين وكل ما يمُتُّ بالدين.

قال رحمه الله: «فإذا بالمغرب يتحول في عهد قصير إلى مغرب آخَرَ، يُغايِرُ كلّ ما كان معروفا منه في الأمس. فإذا بأمثالنا نحن الذين كنا نعيش في شرْخ شبابنا في المغرب المستَقِلِّ قبل سنة 1330 هجرية قَد كِدْنا نكون غرباءَ في طَوْرِ شَيْخُوختنا في المغرب المستقِل من جديد سنة 1375 هجرية».

ويشرح الفقيه رحمه الله مأساة جيلٍ فُجِعَ في آماله، وهُمِّش وأحسَّ بالغربة والوحشة في طور شيخوخته، غلبه التيارُ الجارف، ولم تفد محاولاته في فرْز المسالك والمعارف.

قال رحمه الله: «فقد حَرِصْنا أن لا نُنْكِر إلاَّ ما يستحق أن يُنكَر، وأن نحمد كلَّ ما يمكن أن يُحمَد. واجتهدنا أن نُسايرَ العصر، وأن نتَفهمَه فلا نُنكِرَ أخْذَ ما لا بُدَّ مِن أخذه من أساليب الحضارة ونُظُمها وعلومها، لأن الحكمة ضالَّةُ المؤمن يلتقطُها أنّى وجدها».

قال رحمه الله: «ولكننا مع ذلك نشاهد إسرافاً في التحول السريع الذي لم يُراعَ فيه حسب أنظارِنا نحن الـمُسِنّيَن حكمة ما بين التفريط والإفراط. فنحاول أن نجمع بين محاسن أمسِ واليَومَ، ناصبينَ ميزان القسط. فإذا بنا نكادُ نعيش اليوم على هامش الحياة العادية التي اندفع فيها هؤلاء الذين يملكون ناصية الحياة الاجتماعية بعد الاستقلال»(1).

لا يرفض الفقيه التطوُّرَ الموزون الذي يحافظ على المسلمين في دائرة مِلتهم. لكن الذين ملكوا ناصية الحكم ساروا مسارا آخر. وهؤلاء هم الأمازيغ الـمُحدَثُون لا يستحيون أن يُشيِّدوا بالفقيه الشاعر المؤرِّخ أمْجادَ الشلوح المسلمين ليرفعوه راية خفاقة في سماء دعوتهم.

«نخبة العفة والدين» تُسحب من قُرون ذكراها لتشْهَدَ شهادة الزور في الكونغريس الأمازيغي!

(1) ص 105.

شجرة طيبةٌ سقاها ماء العلم والإيمان قروناً تحت أشعة شُموس علماءَ أتقياءَ فهي ثابتة الأصل وفروعها في السماء، يحاول صِبية صغار اقتلاعها واجتثاثها. ويستدعون لحفر الجذور أمثال الخطابي واليوسي والسوسي رحمهم الله!

سِباق السَّلاهِب

أَزْرَى الوقت بعملاقي الشهامة والنخوة الأمازيغية المسلـمَيْنِ الرئيس الحسن اليوسي وعدي أبيهي ومن معهما فأهوى بقومهما في أكُفِّ ساسةٍ أقزامٍ وموظفين صغار.

وأزرى الوقت بالسَّلْهابَيْن العالمين الوطنيين المسلمين علالٍ الزعيم ومحمد المختارِ الفقيهِ فارتدَّ بهما تلامذةً في أقسام الأساتذة الأقزام.

قامات وهامات أمازيغية زانها الإسلام. هامات وقامات وطنية زانها الدين والعلم والشجاعة الجهادية. ما كان يَزّيّنُ القامات القصيرة ويرفع قدرها لو تابت إلى الله وصلَّت وعبدت ربّها! ما كانت تَزَّينُ بشرف يأبى الضيم عماده دين يأبى النفاق!

السلهب لُغَةً الطويل من الرجال والخيل.

قال أستاذنا السوسي في قصيدة أنشأها عند نفيه من مراكشَ إلى قريته «إلغ» سنة 1936، وذكر سلاهِبَ همته السباقة في مضمار المكْرُمات مع رجال ذوي قامات طويلة وهامات جليلة:

إليكم بني أمــي أُثيــبُ ركائــبي   فياليت شـعري هل أنا غير آئب
فقـد غِبـتُ أحقابـا طـوالا وذا أنـا   أعـود كأنْ لَمْ أَغْـدُ قـطُّ بغائـب
رأينـا المعـالي كلَّهـا في مُرادِهـا   فَطِرْنا إليهـا بالنفوس الرواغب

فغـادرتُ «إلغـاً» والشـبيبة غَضَّـةٌ ووجهي وغُصْني مثلُ أبيضَ قاضب
أُريـغُ العُـلا بالنَّـص في كلِّ فَدْفَـدٍ تُضِلُّ به الخِرِّيتَ شتّى الـمَشاغِبِ
أُعَـرِّضُ حُـرَّ الوجْـهِ نَحْوَ سَمُومِــه فيَكْسُوهُ مِن أثوابَ سُودٍ غرائب
فَجُبْتُ الجبالَ الشامِخاتِ وخَضْخَضَتْ سَرابَ البِطاحِ الفِيحِ هُوجُ رَكائبي
فَخَيَّمْـتُ بالحمـراء حينا وسـابقَتْ مِن أبناءِ فاسٍ آوِناتٍ سـلاهبي
وطَـوْراً أراني في الربـاط وقـد طَمَتْ علَيّ غُيُوثُ الهامِعاتِ السَّواكِبِ
فَأَفرغْـتُ في هـاتي وتِلـك وَتِلكـمُ جهـودَ مُجِدٍّ في التفَـوُّق راغِـبِ

رحل المختار رحمه الله رحلتَه في طلبِ المزيد من العلم في حواضر المغرب بعد أن ملأ وِطابَه من علوم العربية وآدابها وفقهها في مدارسِ سوسَ. فلما استقر بمراكُشَ الحمراء عَوْدتَه من فاس والرباط كان قد أوْفَى بالجُهد والجد والتفوق على ما كانت ترومه سلاهب الوقت من أقرانه. وكان قد علَّم في نادي الحماسة بفاس وتعلَّم.

قام في الحمراء على قدَم وساق، وأسس مدرسته بالرميلة، ودأَبَ على عقد لقاءاتٍ وندوات يتبارى فيها تلامذتُه وأصدقاؤُه في اقتطاف زهور جنانه الأدبية، ويُحْضِرُ الصبية من أمثالي دون السابعة ليُعَرِّضوهم في السنِّ الغضَّة «لغيوثه الهامعات السواكب»، وليعلموهُم بالمثال الحيِّ سَمْتَ المتخلقين بأخلاق الإسلام.

حضرت مرة أو أكثرَ مجالسه رحمه الله في عرصَةٍ بظهر مسجد الكتُبية لا أذكرُ فلعل سني يومئذ دون السابعة. فلم يبق في ذاكرتي إلاَّ سَمْتُ الفقيه في سلهامه الأبيض، وجدِّيّةِ ملامحه، ثم عَطفُه الرقيق علينا نحن الكتاكيت.

انطبع في الذاكرة الغضة صورة «الفقيه» النظيف اللطيف البشوش.

انطبع في العقل الطري أن «الفقيه» شخصية ودود.

كنا نتحلق حول الفقيه صبية مَرِحين ضاحكين صارخين: آبّانا! فيدخل الفقيه في اللعبة ويجيب: آوْلِداتي!

لا أذكرُ هل كان يَنْفحنا أيضا ببعض الحلوى. ولعله كان يفعل رحمه الله.

رحمه الله وأغدق عليه من كرامته، ورحم تلامذتَه أساتِذتَنا البَرَرة. آمين.

وتصقُل التجاربُ آمالَ الفقيه، وتَصقُل الآمالَ نضالات الوطني، وتصْقُلُ نضالات الوطني واعتقالاته ونفيه خيبات الأمل بعد الاستقلال. فيعبر عن ذلك شعرا ونثرا. ويترك بمؤلّفاته الأدبية التاريخية الحافلة بصماتِ أديب مُرَبٍّ غيورٍ على الإسلام ولغة القرآن غيرة أمثاله من عظماء الأمة.

سابقت سلاهب قريحته شاعر النيل حافظا إبراهيم رحمه الله، فيعارض قصيدتَه على لسان اللغة العربية التي أوْرَدْتُ بعضها في فصل سابق. يقول رحمه الله:

بـأيِّ خطـابٍ أم بـأَيِّ عظـاتِ ... أوَجِّهُ وجه الشعب شَطْر لغاتي
بـأيِّ فَعـالٍ أم بأيـة حكمـة ... أنَشِّرُهـا مـن أعظـمٍ نَخِـراتِ
وكيف، وأنى يا إلهي؟ وإنّني ... عَييتُ وأعْيَتْ حيلَتي وأداتي
فـأيُّ لسـان أرْتضيـه لنشرهـا ... وألْسُنُنا صِيغَتْ مِنَ العَجَمات
تركنـا بهـا كنـزا نفيسـا فأقْبلَتْ ... عـلى غـيره الأفـكارُ مُبْتَـدِرات
نمُـد أكُفّـاً -قَطَّـع الله راحهـا- ... إلى غيرها من اللّغَى السَّمِجَات

ونترُك منها روضة تخلُب النُّهى بِطَلعَتِها الـمُخْضَلَّةِ الزهَراتِ
فلَوْ أنَّنا نِلْنا من العَقل ذرَّةً ونالَت طوايانا أقَلَّ حياة
وأمْعنَ كلٌّ طَرْفَه في أصُوله وأمعَن في أحوالِه النَّظَرات
رأيْنا جميع العِزِّ تَحت حياتها بها يترَقّى الشعب في الدرجات
ففي غيرِنا لو كان فينا مفكِّرٌ عظاتٌ ولكن مَنْ لنا بِعظات؟

ويعقد الأديبُ الفقيه الإمام رحمه الله عزمه على خدمة اللغة العربية بقيةَ عمره. بل يفتتح جِهادا لتعبئة جنود يساعدونه على خدمة اللغة العربية. بل ينْدُب إلى حفلته التاريخية مَن يُحِسَّ مثلَ إحساسه بالحسرات على ضياع اللغة العربية. ضيعها في أول عهد الاستقلال تعليم ازدواجي هجين ظنين، وخَرَّج التعليم الظنين الهجين فيما خرَّج جيلا من المثقفين بثقافة غيرِنا هم أوَّلُ من يخذُل لُغة القرآن ليصطفوا مع أعداء القرآن في حرب مُعلَنةٍ لا تكاد تُخفى هوَيّتها الدخيلة المموَّلة المدَوَّلة.

ويقول رحمه الله:

سأستَعْجِمُ الأعوادَ في كل مجمَع وأستطلع الأفكار في الخَلَواتِ
وأسبُرُ أغْوارَ الرجال وأفْتَلِي عقول جميع الناس في الجَلسَات
وأعرض في كل الذين أراهمُ خطابي وأبْدِي بينَهم حسراتي
وأدعو إلى رأيٍ وأعلنُ أنَّه نَجاةٌ لمَن يَبْغي طريق نجاة
إلى أنْ يواتينِي الزمانُ فألْتَقِي بِمَنْشودَتي رَغْماً على العقَبات

ويستولي الأسَى على قَلْب رجُلنا العزيز لَمَّا رأى ما آل إليه مَشروعه في إحياء العربية والدين أيام الاستقلال. رأى أن ما عرضَه في المحافل والجلسات، وما أبداه من حسرات، وما أوصى به من رأي، لم يُواتِه الزمان بمن يعضِّده ويساعده. لَمْ يلْتقِ بضالته المنشودةِ، ولم يجد في ما عجمَه من أعواد، وفيما سبَره وافتلاه من الرجال مَن يقوم معه في وجه التغريب المبرمج.

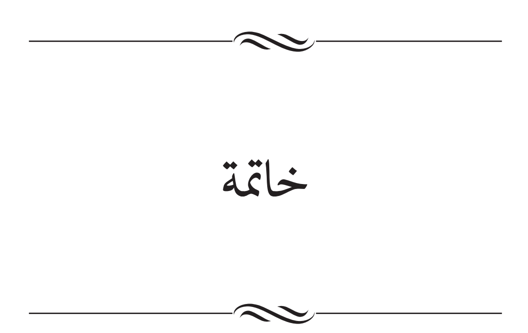
مَلك آخرون ناصية الحياة السياسية، وسطوا على الحكم، فهمَّشوا المختار وأمثال المختار.

كتب رحمه الله يقول: «نكاد نعيش الآن على هامش الحياة العادية التي اندفع إليها هؤلاء الذين يملكون ناصية الحياة الاجتماعية بعد الاستقلال. وأعظم ما نهتم له شيئان: أحدهما التفريطُ في الـمُثُل العليا التي لا ترسَخُ في الشعوب إلا بعد جهود قرون. ومتى اجتُثَّتْ من أي شعب بهذه الاندفاعات العمياء فإن أبناءَ ذلك الشعب سرعان ما ينحرفُون عن الصراط المستقيم في الحياة».

قال رحمه الله: «وثانيهما التفريط في المحافظة على اللغة العربية وآدابها التي هي شِعار المغرب وكنزُه الموروث. [...] وليتَ شِعْري لماذا كنا نحرصُ على الاستقلال إن لم تكنْ أهدافُنا الـمُحافَظَةَ على مُثُلِنا العليا المجموعةِ في ديننا الحنيف، والمحافظة على هذه اللغة الوحيدةِ في البلاد. ومعلوم ما للـمَغراويين والمرابطين والموحِّدين والمرينيين من تمجيد هذه اللغة وهي دوَلٌ بربرية».

رحمك الله يا سيدي. فقد اتخذك بعضُهم بعد موتِك رايَة ليُثْبتُوا بذكراكَ المجيدة أنه لا ينبغي أن يكون العرب والبربر أمة واحدة يجمعها الإسلام ولغة القرآن.

طلقوا الدين الحنيف فطلقوا معه لغةً طالما جاهدت واجتهدت لتعليمها وتمجيدها والدفاعِ عنها. ها هم أولاءِ يُرِيدون تهميشها وتعويقها كما همشك أساتذتُهم في رِقَّة الدين.



خاتمة

ما يقوله المؤذن

أخي محمد شفيق،

ألقتني تعليقاتك في حيرة، بل أفزعتني وأذهلتني.

أفزعني أن أقرأ بخط يدك حرصَك على أن لك مرجعية نسبية غير مرجعية صاحبك الواعظ.

– لَنْ أُعَلِّقَ على ما تبقّى مِن جوابك على رسالتي، لأني شَعَرْتُ أَنَّ موازين حِوارِنا غيرُ مضبوطة. فبينما تَنطلق أنتَ مِن «المطلق»، لَا أنطلق أنا إلّا من «النِّسْبِيِّ» القابِلِ للنقاش. ولا يَمنعني هذا مِن التعبير عنِ الارتسام العامّ الذي ارتسم في نفسي أثناء قراءتي لجوابكم.

عهدي بك دقيقا في استعمال الكلمات واختيارها. فهل تعني أن ما كان عندك منذ بضع وعشرين سنة من المسلمات المعتمدات المرجعيّات –أقصد إيمانك بالله وباليوم الآخر وبالرسالة النبوية– قد أصبح حقيقةً لديك من الحقائق. لكلها حُرْمة، ولكلها نصيب من الصحة، ولكل منها مَساغٌ في عقلك، وقَبولٌ في دار دينك، وتَرْحَابٌ حِبِّيٌّ في جَنْب حقيقتك المطلقة بالأمس؟

فزعت، ورجعت إلى كتابك الذي ألفته منذ بضع وعشرين سنة بعنوان: «ما يقوله المؤذن». عدت إليه فوجدت نفس نصاعة بيانك،

ونفس صفاء فكرك، ونفس أناقة فرنسيتك، التي كانت أخذتْني أثناء قراءتي الأولى.

فزعت، وعثرتُ في أوراقي على ثلاث رسائل بعثتَها إلي بعد نزوحي إلى مراكش، تحمل تاريخ شهر ماي سنة 1974.

رسائلك هذه الثلاث ذكرتني بالمشروع الذي كنت اقترحته عليك يومئذ لِما رأيت من براعة كتابتك بالفرنسية. ولما رجوتُ أن يَكون «ما يقوله المؤذن» إعلانا عن كتاب يُفيد الناس.

وهذه صور رسائلك بخط يدك.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد
المرسلين

أخي الحاج عبد السلام،

السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته،
وبعد، العمل الذي تندبني إليه لا يمكن أن
يكون إلا عملا طويل النفس كما قلت، ولكن
هات قائمتك "البيبليوغرافية"... ولها مدبر
حكيم. أما أنا فإني أرى من الضروري أن يُهيأ
مؤلف في شكل "المدينة الفاضلة" ترسم
فيه خطة لإيجاد مجتمع إسلامي "مثالي".
وتعالج القضايا الروحية والمادية على السواء،
حيث يشعر القارئ - المسلم وغير
المسلم - بأن مشاكل العصر لن تجد حلولها إلا
في الاستسلام لمشيئة الله، أي في الدخول في
دين الله. فإن راقك هذا الموضوع فعسى أن
أجد قوة بإذن الله لطرقه وتفصيله، شريطة
أن تزودني بالمعلومات الفقهية الضرورية وأن
ترشدني إلى ما فيه الصواب. وإني أرى أن
يكون المؤلف في شكل رواية مستقبلية
([illegible]) يوصف فيها مجتمع انساني مسلم

مؤمن يقيم شعائر الدين الحنيف ويخشى
الله في السر والعلانية ويأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر في علاقاته بربه وفي
معاملات أفراده بعضهم لبعض. وإما أن
تدور القصة حول مجموعة قليلة من الناس
يحيون حياة اسلامية مثالية وإما أن تعرض
على القارئ لوحات تشمل قطاعات واسعة
من المجتمع الفاضل الذي نتوخاه... ولا بأس
أن نكرس لهذا المشروع أربع سنوات أو خمسا
من عمرنا إن أبقانا الله على قيد الحياة. وعلى
أي حال، أرسل إليّ القائمة "البيبليوغرافية"
لعلني أستفيد منها.

وتقبل أزكى تعابير التحية الأخوية.

والسلام

الرباط في ٢٥ ماي ١٩٧٩

محمد شفيق

الحمد لله وحده
والصلاة والسلام على رسول
الله وعلى آله وصحبه

أخي عبد السلام،

سلام عليك ورحمة الله،

تسلمت قائمة الكتب، ولكني أود
لو تتفضل بتعيين دور النشر بالنسبة
للكتب الفرنسية، ولك جزيل الشكر.

أخوك

[signature]

عبد السلام،

سلام عليك،

ها هي قائمة الكتب، أردها إليك

فأتممها وردها إليَّ، وشكرا

أخوك،

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيد المرسلين

أخي الحاج عبد السلام،

السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، العمل الذي تندبني إليه لا يمكن أن يكون إلا عملا طويل النفس كما قلت، ولكن هات قائمتك «البيليوغرافية»... ولها مدبر حكيم. أما أنا فإني أرى من الضروري أن يُهيأ مؤلف في شكل «المدينة الفاضلة» تُرسم فيه خطة لإيجاد مجتمع إسلامي «مثالي»، وتعالج القضايا الروحية والمادية على السواء، بحيث يشعر القارئ «المسلم» وغير المسلم بأن مشاكل العصر لن تجد حلولها إلا في الاستسلام لمشيئة الله، أي في الدخول في دين الله. فإن راقك هذا الموضوع فعسى أن أجد قوة بإذن الله لطرقه وتفصيله، شريطة أن تزودني بالمعلومات الفقهية الضرورية وأن ترشدني إلى ما فيه الصواب. وإني أرى أن يكون المؤلف في شكل رواية مستقبلية (futuriste) يوصف فيها مجتمع إنساني مسلم مؤمن يقيم شعائر الدين الحنيف ويخشى الله في السر والعلانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في علاقاته بربه وفي معاملات أفراده بعضهم لبعض. فإما أن تدور القصة حول مجموعة قليلة من الناس يحيون حياة إسلامية مثالية وإما أن تعرض على القارئ لوحات تشمل قطاعات واسعة من المجتمع الفاضل الذي نتوخاه... ولا بأس أن نكرس لهذا المشروع أربع سنوات أو خمسا من عمرنا إن أبقانا الله على قيد الحياة. وعلى أي حال، أرسل إليّ القائمة البيليوغرافية لعلني أستفيد منها.

وتقبل أزكى تعابير التحية الأخوية، والسلام.

الرباط في 20 ماي 1974

محمد شفيق

❊❊❊

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه.

أخي عبد السلام،

سلام عليك ورحمة الله،

تلقيت قائمة الكتب، ولكني أود لو تتفضل بتعيين دور النشر بالنسبة للكتب الفرنسية، ولك جزيل الشكر.

أخوك شفيق

❊❊❊

عبد السلام، سلام عليك، ها هي قائمة الكتب، أردها إليك، فأتممها وردها إليّ، وشكرا.

أخوك شفيق

❊❊❊

فزعتُ أن رأيتُ خُطْوتَك في الاتجاه الصحيح في «ما يقوله المؤذن»، وخطوتك الثانية في قبول اقتراحي قد ارتدتا على الأعقاب.

ليت شعري ما أرْبَكَ الخطَى، وما عرقل المسيرة؟

كنا معك في كتابك نقْرأُ دعوة بليغة للملحد والنصراني واليهودي والعالم في مختبَره أن يدخلوا في دين الله.

كنا نقرأ -ويا ليت هذا الكتاب يعادُ طبعه ونشره الواسع- دعوةَ مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر الناس جميعا إلى عالمِيَّة الخضوع لله رب العالمين، فإذا بتعقيباتك بعد أكثر من عشرين سنة تدعو إلى

عالمية تعددية نسبية حقائق كل الناس فيها نسبية متساوية في حظها من الحُرْمة والصواب. الحقيقة المطلقة لا يملكها أحد.

هل خرجنا وأطلق سراحُنا من «قفص» الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر لنسبح في فضاء «التسامح» الذي يبدأ بنفي تهمة التعصب والتطرف عن أنفسنا حتى نُقْبَل في النادي الحضاري العالمي الديمقراطي اللاييكي الذي لا يعبأُ بمن حذّر وأنذر من العُبِّيّة الجاهلية وما يسير في ركابها من قاطعات؟

ماذا أصاب العقل الأمازيغيَّ حتَّى تَنَمَّرَ وحَرَدَ حَوْراً بعدَ كَوْر؟ أهُوَ اقتناعٌ جديد نَسَخ الإيمان القديم؟ أم هو تهيُّبٌ أن يُوصَم المثقّف البارز بأنه يُمارس سياسة الإقصاء وهي جريمة في دين الديمقراطية التعددية «المتسامحة» اللاييكية؟

أهو اندماج في موضَة حُقوق الإنسان أطلق سَراح منغلق، وفتح أبواب سِجْن يريد العصر وتريد المرتبة وتريد التجربة أن ينفتق؟ أم هو مجرد سوء فهم لما تعنيه بكلمة «نسبية» مرجعيتك؟

إن في جزيرتكم النخبوية -معشر المثقفين الأمازيغ- راحةً ماديّة وظِلاً ممدوداً ورغد عيش وراحة بال.

فهل انقطع أصحاب الجزيرة عن إسلام الصلاة والزكاة، وهل نسي المثقف البارز في جزيرته ما كان قاله المؤذن، وما كان استدل به استدلالا عقليا دقيقا على أن لا خلاص للإنسانية إلا في الإسلام؟ أمْ يجحد أخي محمد شفيق رسالته إلي -وهذه صورتها على هذه الصفحات- يبشر فيها بأن المسلم وغير المسلم لن يجدا حلا لمشاكل العصر إلا في الاستسلام لمشيئة الله، أي الدخول في دين الله؟

وأن المجتمع الإنساني المسلم الذي كنت وإياه نتحاور كيف نصفه هو المجتمع المؤمن الذي يقيم شعائر الدين الحنيف، ويخشى الله في السر والعلانية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في علاقاته بربه وفي معاملات أفراده بعضهم لبعض.

ما حَوَّرَ بعد كوْر يا أخي يا محمد شفيق؟ أم من أين دخل بيننا اليوم سوء التفاهم بعد ذلك الصفاء منذ بضع وعشرين سنة؟

كانت حُجتُك الأخيرة الحاسمة في كتاب المؤذن آية من كتاب الله وحديثا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكيف أعقَب كلامَ المؤمنين خطابٌ عقلانيٌّ ينظر إلى تاريخ الأمازيغ، وإلى جغرافية «الوطن الأمازيغي»، وإلى اللغة الوسَط التي يؤصلها المعجمي الأكاديمي البارز، وإلى الورقة السياسية التي ينبغي للمغرب أن يلعبها؟

خطاب عقلانيٌّ توَلّى عن الوحي، واغتَرَبَتْ عنه لغة القرآن حتى لاَ يقرأُ في كتاب صاحبه الواعظِ إلا السباب والشتم. وكأن وعيدَ القرآن وأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالقول الغليظ البليغ للمنافقين، مُنكَرٌ من القول وزور وسبابٌ وشتائم. من أين دخل سوء التفاهم، وكيف ولماذا؟

وكأن الإعضاض الذي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نزجُر به ونقرع من يعتزي بعَزاء الجاهلية أسلوب سوقي لا طاعةُ مؤمنين لرسول رب العالمين.

وكأن الصلاةَ شأنٌ خاص في حياة المسلمين كما هي انحناءات النصراني وقرابين البوذي وتململ اليهودي شؤون خاصة.

***

في الفصل الأخير من كتاب مؤذنك خاطبت صنفا من «الذين يظنون أنهم مسلمون». وغضبت على المنافقين الذين يَحولون دون الناس ودونَ «شمس الحياة» التي هي الخضوع لله.

وأردْتَ أن لا يحولَ المنافقون بين الناس المرتعشة أرواحهم بَرْداً وبين شمس الحياة.

وأغلظت النكير على «المسلمين» المزَيفين المتعصبين الذين يذهبون مع مشاعرهم المتوترة.

وخشِيتَ أن تتحول الثورات والفهم القليل النضج بؤْرة بارودٍ تنفجر تعصبا وتطرفا.

وتكلمت عن الأعراب الذين قالوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم. وعن أخطر المنافقين الذين يقفون عند «ويل للمصلين».

إذا وضعنا غضباتِك هذه وتخوُّفاتِك في إطارها الزماني منذ بضع وعشرين سنة، وفي إطارها المكاني بمجالس حِوارنا، واقتراح يُصيب قَبولا، ونَقْدٍ يُعقِبه اقتناع، اتّصفَتْ لنا نفسية كانت مطمئنة بالإيمان، وعقلية سخرت في كتاب المؤذن من مبدإِ دِكارط «أنا أفكر فأنا موجود».

ثم إذا انتقلنا زمانا بضعا وعشرين سنة، ومكانا إلى حيثُ الأكاديمي البارز كشفنا كيف يقف عند «ويل للمصلين» ناسٌ يكتمون بعض ما أنزل الله لأسباب لا يُعترف بها، أو يكتمونه كله خوفا أن يَجلبوا صواعق بعض أقوياء العالم، حسب قولك[1].

وتختِم كتابك المؤَذّن الشهادةَ لك أو عليك بقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**﴾. اِقرأْ تمام

(1) ص 122.

الآيات من سورة الانشقاق التي تخبر المؤمنين بها بعد لقاء الله. تخبرنا بأن من الناس من يُؤتى كتابه بيمينه، وأن منهم من يوتَى كتابك وَراء ظهره. فلذاك السعادة الأبدية في جَنات عدن، ولهذا الثبور والسعير.

فليت شعري ما يشغل المثقفين المسلمين والذين يظنون أنهم مسلمون من عربان ومُزغان عن العمل الصادق لآخرتهم، ابتداءً من إقامة الصلاة. ابتداء من يقينهم بلقاء الله.

أي شيء أنا إن كان إيماني بالله وباليوم الآخر وبالرسل والملائكة والحساب والميزان والصراط والجنة والنار يساوي كفر الكافر، وإلحاد الملحد، وعقيدة الهندوسي، وفلسفة الوجودي، وفكرة الدهري.

أي شيء أنا إن كان الشك منهاجي، وكان الحق كالباطل والباطل حقا؟

أم نَلْقى الله عز وجل - وقد طاب زرعنا يا شفيق - فنتقدم إليه بما اقترفناه مما كتبت أيدينا وبطشت قائلين: «جئناك جئناك! ما قصرنا في دعوة النصارى واليهود والكافرين والحائزين على جوائز نوبل. وما قصرنا في شجب عمل المنافقين والـمُرائين. فأين المكافأة؟».

وأين الصلاة يا عبدَ نفسه وأسيرَ هواه ورهينة أوهامه؟

أين الصلاة؟ وما فعلت بعلم تعلمته، وقرآن تلوته ونسيته، وأمْرٍ لم تطعه، وحقوق لم تؤَدها، وصِلاتٍ قطعتها، وعُبِّيّة نُهيت عنها فتحملت راضيا مسرورا أوزارها؟

***

أخي محمد شفيق،

هذه رسائلك إلي علها تذكرك.

وهذه رِوايَتي أنا الشلحية عما يقوله المؤذن.

كان جَد والدتي من أمها رحمهم الله جميعا مؤذنا في قريته. فمنذ عقلتُ وأنشودة شلحيَّةٌ تداعِبُ أذني. لا يزال رَنينها في أسماعي إلى الآن. لا يزال حنان الأم ولُطفُ العناية ممتزجا بالنغمة والكلمة والوزن والإيقاع. سمعت الجدة رحمها الله من المؤذن، وسمعت الأم رحمها الله من الجدة، وسمعتُ ووَعيتُ.

شلحي أنا أخوالاً منذ قرون طويلة. اللغة الشلحية ميراثي، لها في أذني مسلك وعلى لساني طلاوة وحلاوة. لكنها لا تتحاربُ في جَوفي مع لغة القرآن. هي ثَمَّ «تُؤازرُ» الإيمان حسب كلمةٍ للأستاذ شفيق.

نشيد يوقظ به المؤذن بعد الأذان الشرعي من لم يُفيقوا للأذان الشرعي. نشيدٌ من عند المؤذن الشاعر الواعظ، بعد الأذان الشرعي الذي هو من عند الله ورسوله.

يسير النشيد هكذا: (واعتذر للأمازيغ والشلوح الجدد عن استعمال رسْمٍ غير الذي أحدثوه ولا أعرفه)

نَكْـرَتْ أوِي وِنْـدِي كَنّـنْ تَكَرْكُنِي مـادَوْنْ إكايطّسْ

نَكْـرَتْ زّالاَّتّ تَمْـدِمْ إلْخِرْ هَنْ مَلاَنـا يُوجَدْ أتْ إفْكْ

إطْـسْ أيْلاَّنْ إغْ يادْ إمُّوتْ يانْ إكْنْ أبَداً أرْيادْ نْكِرْنِ

أترجمها ترجمة تقريبية نظما هكذا:

أفيقـوا أفيقـوا لَبيسَ السُّـباتْ فـما النـومُ إلا ضيـاع الحيـاة
الصـلاة الصـلاة! تعالـوا إلى عطـاءِ إلهـي جميـلِ الهِبـاتْ
سَتشـبَع نومـا إذا مـا أوَاكَ لُحَيْـدٌ يضـم شـتيت الرُّفـاتْ

ثم أترجمها نثرا هكذا: قوموا يا هؤلاء الذين ناموا بئس النومة. ماذا يفيدكم النوم؟ قوموا وصلوا وتعرضوا للخير، فإن مولانا موجود لعطاء الخير. النومُ نومُنا بعد أن يموت المرء: ينام إلى الأبد، نوما لا يقوم منه. (أضيف: لا يقوم منه إلى يوم البعث والنشور).

ترجمة تقريبية. وشعر شلحي آخر من إنشاد المؤذن:

أركَازْ أرْ إتّـزَالاّن أيْـكا دَلْمُهْلِـكِ
تُوتَمْتْ أُرْ إتّزَالاّن أيكَانْ دَ الدّابْتْ اللِّي
فَـسْ إتّسِي الشِـيطانْ أزْرُو يَوْمِ الجحيم

ترجمتها: الرجل الذي لا يصلي رجل هالك. المرأة التي لا تصلي إنما هي دابة يحمل عليها الشيطان الصخر يوم الجحيم.

للشلوح كلمة يطلقونها على تارك الصلاة. فهو عندهم «مُتْرِك». ولأَن تسُبّ الرجلَ والمرأة فيما عقلتُ بأقذع السِّبَاب أحبّ إليه من أن تصفه بأنه مُتْرِك.

كتب الأستاذ محمد شفيق فيما كتب عن اللغة الأمازيغية قال: «وهي لا تزال نشيطة تُواكب لغتنا العربية في وِئامٍ تام، وتؤازِرها في تعميق الوعي الديني الإسلامي كما آزرتها فيما مضى على نشر الدعوة

الإسلامية في ربوع أوربا وأفريقيا، بدليلِ أنَّ أسماء الصلوات الخمس في بوادي كلٍّ من السنغال ومالي والنيجر وتشاد هي: «تيفاوْت» لصلاة الصبح، و«تِيزْوُوري» لصلاة الظهر، و«تاكوصين» للعصر، و«تِيوُوتشي» للمغرب، و«تيضْسْ» للعشاء».

هذه أسماء الصلوات. فأين الصلاة يا مثقفين يا أمازيغ ويا عربان. وهل يجمعنا إلا الإسلام ومسجد الصلاة؟

ختَمتُ حواري بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم.

وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

سلا، عصر الأحد 15 جمادى الأولى 1417.

عبد السلام ياسين كان الله له

الفهرس

الجزء الأول من الحوار

الفصل الأول

مدخل

الفصل الثاني

المدخل السياسي
إلى القضية الأمازيغية

الفصل الثالث

اللغة الهوَيَّة

الفصل الرابع

لغة القرآن نسيج وحدتنا

الجزء الثاني من الحوار

الفصل الأول

ما هو العلم؟ ما هو الإسلام؟

الفصل الثاني

هوَية وتاريخ

الفصل الثالث

تمزيغ المغرب وتمزيقه

yassine.net